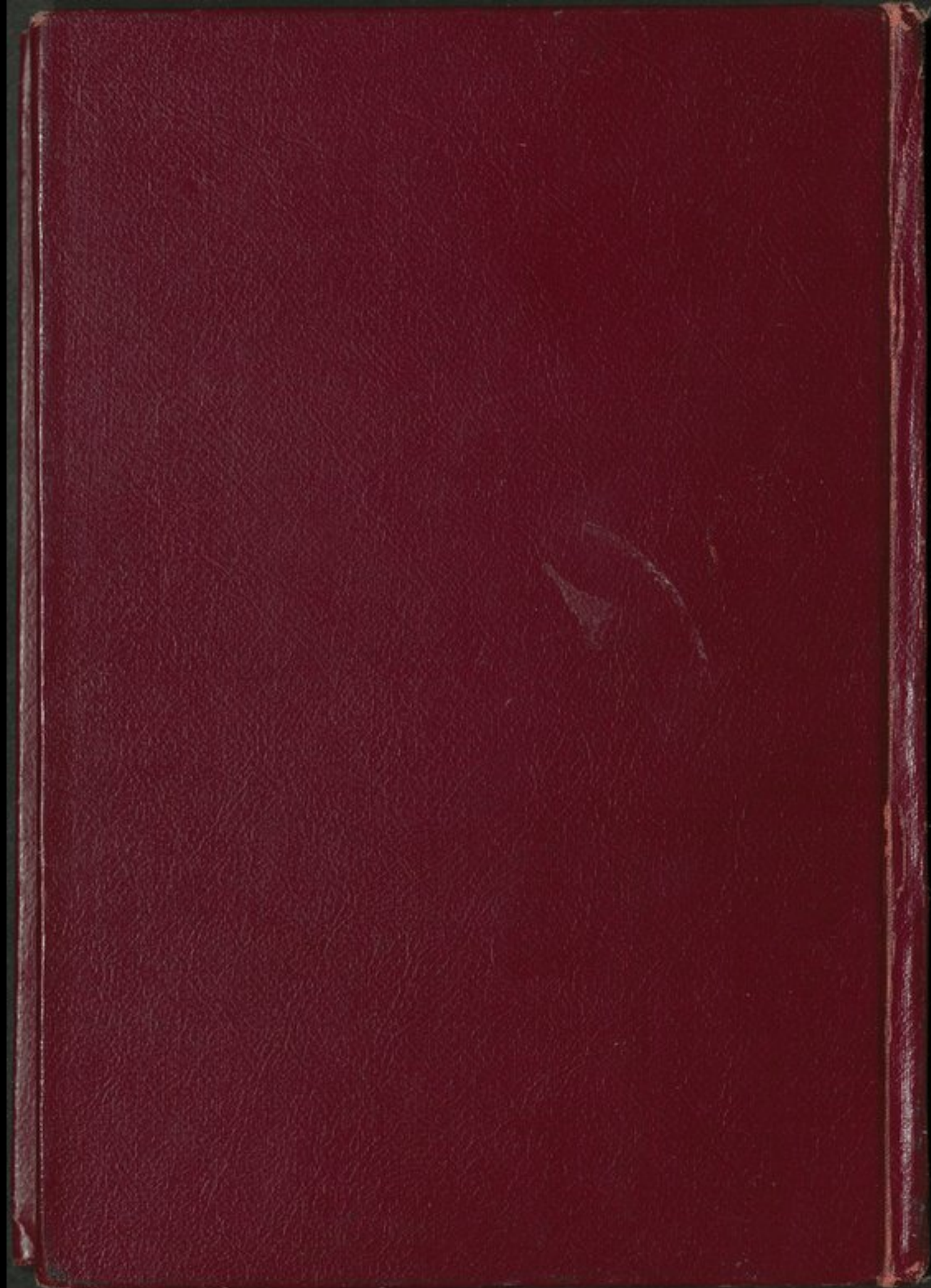
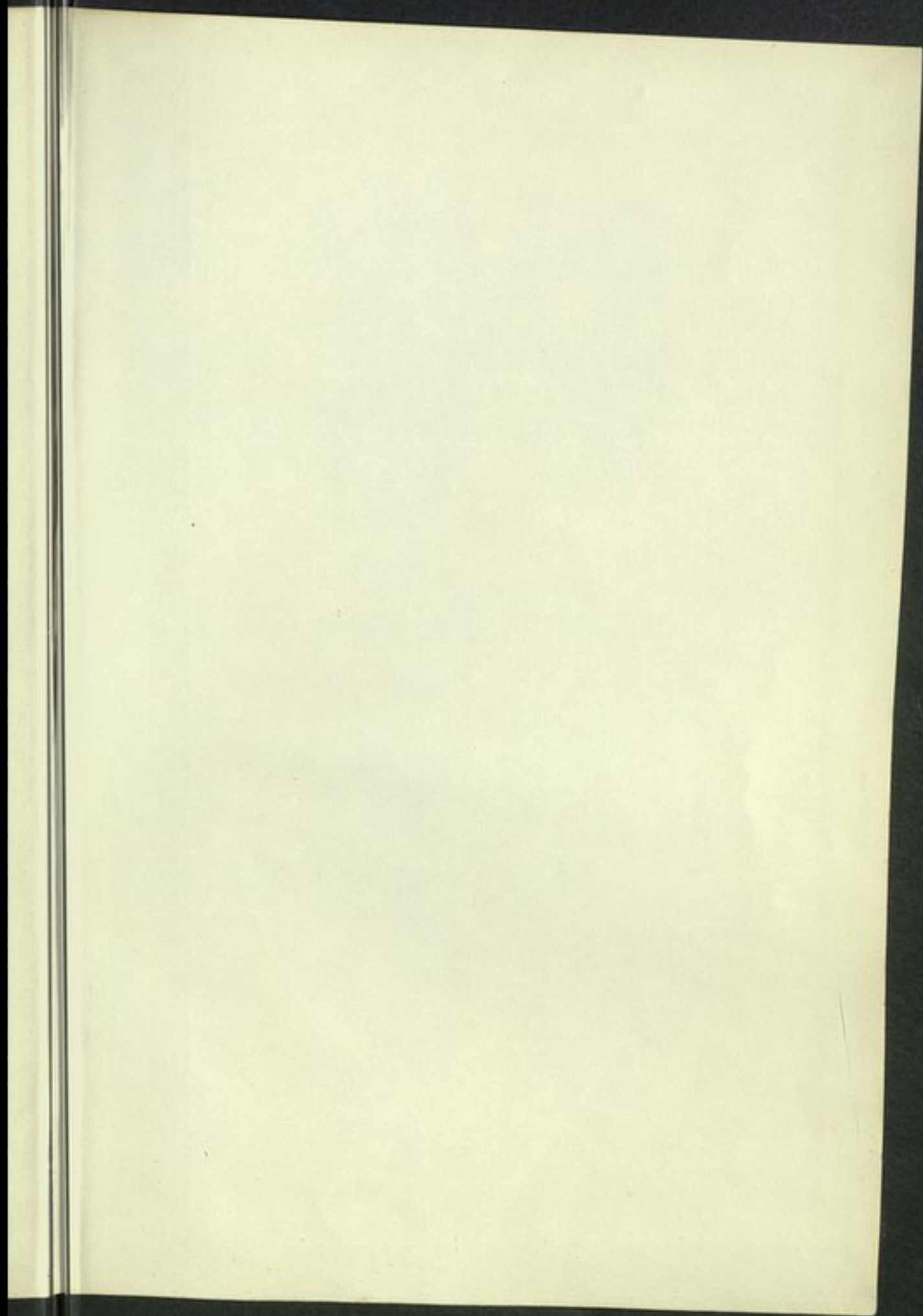
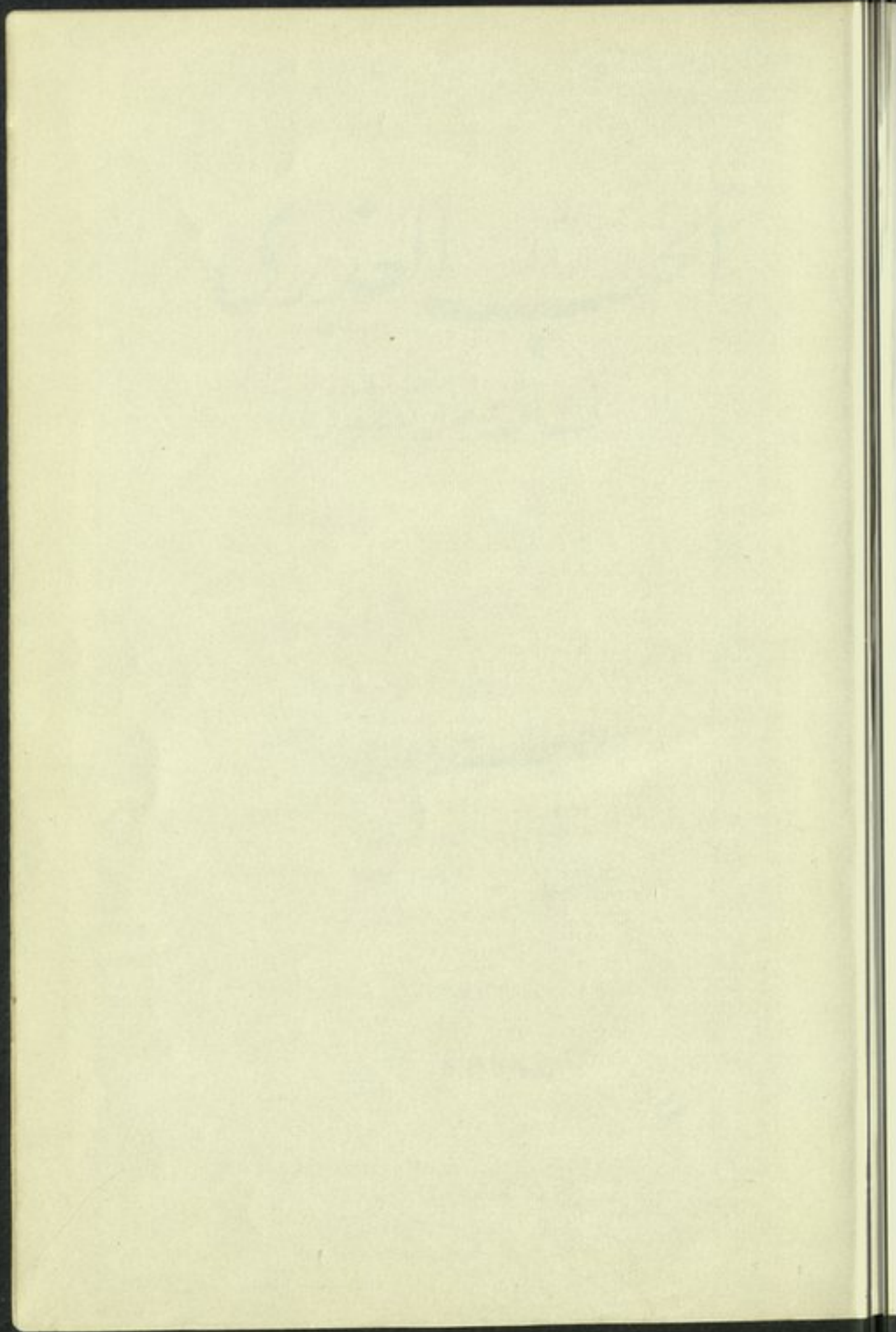




AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

2/6
10/18





Cat. Jan. 1950

مكتبة المكتبة المثنى :

177.6
J41hA
C.1

الحب العذري

نشأته وتطوره

تأليف

أحمد عبد الستار البخاري

ماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً
مع مرتبة الشرف من جامعة فؤاد الأول
مدرس في دار المعلمين العالية ببغداد

68942

طبع بدار الكتاب العربي بمصر

شارع فاروق — تليفون : ٥٠٩٣٨

Cat. Jan. 1950



الحب العذرى

نشأته وتطوره

وهو البحث الذى تقدم به المؤلف لنيل درجة الماجستير فى الآداب
(قسم اللغة العربية) من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ونوقش فيه أمام الجمهور فى ١٣ تموز (يولية) سنة ١٩٤٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلى . . .

القلوب الكبيرة التي اتسعت للحب ، فتلهذت بحميم ، وتقلبت في أعطاف
نعيم ، وصبرت على بلاواه ، ورضيت به غاية في الحياة ، وفنيت فيه ، فارتفع
بها إلى معارج القوس ، وأخرجها من ظلمة المادة إلى نور الروح . . .

أحمد

مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

X يكاد الأدب العربي يكون أسبق آداب العالم إلى تصوير الحب والتعبير عن عاطفته. ويقر النقاد الأوروبيون بأن عاطفة الحب لا وجود لها في الشعر اليوناني القديم، بل لم تفتح أزاهيرها إلا في مفتح عصر النهضة Renaissance، ولم تنضج بواكيرها إلا بعد أن اتصلت أوروبا بالشرق اتصالاً أدبياً واجتماعياً. X

X والحب العذري صورة مصفاة مهذبة من صور الحب تسمو على لذة الحس وتعالى عن شهوة الجسد، وهو ظاهرة أدبية اجتماعية عرفها الأدب العربي بعد الإسلام واشتهرت بها قبيلة عربية عرفت بالدمامة والرقة وكثرة الجمال وشيوع العشق بين أفرادها. تلك هي قبيلة عذرة التي نسب إليها هذا الحب فسمى الحب العذري. X

وهذا البحث — الذي أضعه بين يدي القارىء — محاولة قصدت فيها إلى دراسة هذه الظاهرة الأدبية الاجتماعية دراسة أدبية تقوم على أساس مما كشفه العلم الحديث في درسه للعواطف والمظاهر النفسية وتتبع مبدأ هذه العاطفة في الشعر العربي وألمت بتاريخها وأسباب نشأتها، وعرضت لصورتها الأولى التي عرفت في الأدب العربي، ثم انتقلت في النصف الثاني من هذا البحث إلى الحب العذري بعد أن حل في بيئة أهل العلم والفقه، حيث لوثته الثقافة الدينية والفلسفية بلون مثالي فلسفي بعد به عن أصله الغريزي بعداً ما.

(وما يكن في هذا البحث من محاسن فردته إلى الإرشاد والمعمونة الصادقة التي لقيتها من أساتذتي الأفاضل في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وفي مقدمتهم أستاذي الجليل الأستاذ أحمد أمين بك فقد كان لإشرافه الحكيم وتوجيهه السديد أبلغ الأثر وأعظم الخطر في تمهيد مسالك البحث والأخذ بيدي إلى أقربها من الحقيقة وأخلقها بطالب العلم، وكان في سعة صدره وكبر قلبه وتقيله لما لا يوافق عليه من آراء تلميذه أكبر عون على البحث الجامعي الحر.)

(كما أنى مدين بمثل ذلك إلى) أستاذى الجليلين الأستاذ أحمد الشايب والأستاذ مصطفى السقا فقد كان لى من شعورهما الأبوئى النبيل وتوجيههما السيد خير معين لى على البحث والدراسة .

وفى الختام أرى من واجبى أن أقدم وافر الامتنان إلى الأستاذين الفاضلين الدكتور حسين مؤنس والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة فقد منحاني من وقتهما الثمين ما يسر لى الاطلاع على كثير من مصادر البحث .

أما الأستاذ المستشرق الكبير لويس ماسينيون فقد كان له الفضل الكبير فى إرشادى إلى مصادر البحث وإطلاعى على أبحاث الأمانة المستشرقين فيما يتعلق بهذا الموضوع فله منى جزيل الشكر .

(وبعد فهذا البحث بداية أرجو أن أتزود منها خبرة انتفع بها وأتفع ، وعسى أن لا يرضى على القراء الكرام بالإرشاد إلى مواطن النقص والكمال لله وحده)

أحمد عبد الستار الجبارى

بغداد فى جمادى الأولى ١٣٦٧
آذار ١٩٤٨

المفهرست

الحب العذري

نشأته وتطوره

صفحة

١	الكتاب الاول - نشأته
٣	الباب الاول - الحب
٣	الفصل الاول - الحب . قديماً وحديثاً
	(١) الحب في الفلسفة القديمة . أفلاطون في الفلسفة الإسلامية .
	إخوان الصفاء . ابن سينا . نظرية عامة ...
	(٢) الحب عند المحدثين . تركيب عاطفة الحب . رأى فرويد .
	رأى مكاو جل وأيهما أدنى إلى طبيعة الإنسان . بريس جيسون .
	رأيه في الحب . نظرية عامة ...
	(٣) رأى في الحب . الفلسفة والعلم واختلافهما في بحث الحب .
	السرور بالقى لذاته . الألفة ومقامها في الحب . قوام عاطفة
	الحب . لماذا يقع الحب ...
٢٧	الفصل الثاني - أصناف الحب
	(١) أسماء الحب في العربية
	(٢) تصنيف ستندال للحب
	(٣) مذهبان في الحب عند العرب
	الحب العذري صورة صادقة لعاطفة الحب
٣٣	الباب الثاني - الحب العذري
٣٣	الفصل الاول - ماهيته ومقوماته
	(١) ما الحب العذري وكيف ينشأ
	(٢) معالمه العامة
	(٣) متى نشأ . عذرة وتاريخها ...
٤٥	الفصل الثاني - كيف نشأ ولماذا
	(١) رأى الأستاذ ماسينيوت وتقدمه
	(٢) رأى الدكتور طه حسين وتقدمه
	(٣) رأى في نشأة الحب العذري * الإسلام ونظامه الاجتماعي
	وأثره في نشأة الحب العذري

صفحة	
١٦٧	الفصل الثاني — طوق الحمامة
	(١) تاريخه
	(٢) متى ألفه
	(٣) لماذا ألفه
	(٤) تحليل
١٧٨	الفصل الثالث — آراؤه في الحب
	(١) ما الحب وما سببه
	(٢) كيف يقع
	(٣) مراتب الحب
	(٤) علاماته
	(٥) سبيل الوصول إلى المحبوب
	(٦) أحوال الحب
	(٧) آفاته وملاذباته
	(٨) نهايته
	(٩) آدابه
	شخصيتان
٢١٠	خاتمة
٢١٣	المراجع

كتاب الدعاء

المحب العذري

نشأته

مكتبة

مكتبة

مكتبة

الباب الأول

ما الحب...؟

الفصل الأول

الحب قديماً وحديثاً

ما الحب . سؤال يجدر بالباحث أن يتأمل فيه وأن يجتهد في الكشف عنه ما وسعه الاجتهاد إذ أن مفهوم الحب أصبح في هذا العصر ولعله كان كذلك في غابر العصور مجالا لاختلاف بعيد في إدراكه والإحساس به والتعبير عنه . لذلك آثرت أن أعرض لمفهوم الحب في عصور مختلفة لعلّي أخرج من ذلك بفكرة عامة عن الحب حتى لا أقع في الخلط الذي يقع فيه من يتكلم في الحب ومن يكتب فيه . وقد آثرت أن أبدأ بالفلسفة القديمة وأثنى بعلم النفس الحديث الذي حاول أن يدرسه درسا علميا يقوم على التجربة العميقة والملاحظة الدقيقة .

١

والعواطف الإنسانية تكاد تتفق في القديم والحديث ويكاد الاختلاف ينحصر في وصفها وفي تحليلها . لهذا أخذت نفسي بأن أعرض لشيء من بحث الفلاسفة القديمة في الحب وقصرت همي على أفلاطون من اليونان لأنه أشهر من كتب فيه من فلاسفتهم ولأنه اشتهر بمذهب في الحب يكاد يتردد على كل لسان ويعرف في كل مكان وإن كان في صورته التي يتناقلها الناس نفاً . وسبب آخر سيتضح فيما بعد وهو العلاقة للزعومة بين الحب الأفلاطوني وبين الحب عند العرب في العصور الإسلامية الأولى وبالتالي العلاقة المحتملة بينه وبين الحب عند العرب في العصور الإسلامية الوسيطة .

وقد عرجت بعد الفراغ من أفلاطون على فلاسفة المسلمين فعرضت لما كتبوا في الحب . بل لما أعرف مما كتبوا في الحب .

لأفلاطون كتاب صغير في الحب ضمنه محاورات أجراها على السنة زمرة من الفلاسفة اجتمعت في وليمة ويعرف هذا الكتاب في اليونانية باسم سمبوزيوم (Symposium) واشتهر باسم الوليمة أو المائدة الأفلاطونية (Banquet) .

يرى خبر هذه الوليمة أبو لودورس - Appolodorus - فيقول . - إنه خرج من بيته ذات يوم فأبصره صديق له واستوقفه يسأله عن الوليمة التي جمعت سقراط وأجاثون والكبيادس وغيرهم وما دار فيها من الكلام في الحب .

فيخبر أبو لودورس صديقه كيف التقى سقراط باريستوديموس فصاحبه إلى الوليمة وفي الطريق تخلف سقراط منشغلاً بتأملاته وأشار على صديقه أن يواصل سيره إلى بيت أجاثون صاحب الدعوة ولما سأله القوم عن سقراط أخبرهم بخبره فأرسلوا إليه فلم يجبيء إلا بعد أن فرغوا من العشاء حتى إذا حضر استقبلوه مرحبين مداعبين ولما أتم عشاءه أخذوا بأطراف الحديث عن الشراب وأي طريقة فيه أليق بهم لأنهم كانوا يشكون خمار الأمس ، واتفقوا آخر الأمر على أن لا يكون مجلسهم للشراب وأن يقصروه على الحديث فاقترح أحدهم وهو أريكسيماخوس أن يكون الحب موضوع حديثهم ، وذكر أن صديقه فايدروس - Phaedrus - هو الذي طالما شكك إليه أن إله الحب ذلك الإله العظيم ليس له نشيد أو ترتيل ينشده الناس في تمجيده والثناء عليه . وبناء على هذا فهو يقترح أن يقصروا جلستهم على تمجيد هذا الإله ويظفر اقتراحه الأول بالقبول فيردفه باقتراح آخر : أن يتكلم كل منهم بدوره من الشمال إلى اليمين مثنيا على الحب الثناء الجميل .

ويبدأ فايدروس بتمجيد الحب ماشاء فيقول : إن إله الحب أحق الآلهة بالعبادة وأولاهم بالتمجيد فهو مصدر البركات وليس في الوجود أئمن ولا أقوم من حب في أول الشباب . وليس شيء أحق من الحب بأن يكون المثل الأعلى للحياة الهائلة السعيدة ولا أفضل ولا أسعد من أمة يكون مواطنوها مجموعة من المحبين إلى جانبهم محبوبوهم ، إذن يكون التنافس بينهم على الجود والشرف وينفخ الحب فيهم روحاً من الشجاعة والإقدام والفضيلة ويربط بينهم برباط أقوى من رباط القرابة .

والأبوة . ويختم فايدروس حديثه بقوله : إن للحب من القوة والسلطان ما يمد به الناس بالسعادة والفضيلة أحياء وأمواتاً^(١) .

ويتكلم من بعده باوسانياس (Pausanias) فيقول : إن هناك إلهتين للحب فهناك إذن حبان . الإلهة الأولى هي الكبرى التي ليس لها أبوان فهي سماوية علوية والإلهة الأخرى هي بنت الإله زيوس (Zeus) والإلهة ديون (Dione) وهذه هي الإلهة الأرضية العامية « Popular » فالحب إذن حبان حب سماوى وحب أرضى . فأما الثانى فيحدث بطريق الصدفة وهو الذى نجده عند الطبقات الوضيعة ويجمع فيه هؤلاء بين حب الأنثى وحب الذكور وينصب حبهم على الجسد لا على الروح ولذلك يقع اختيارهم على أقل الناس نصيباً من الروح لأنهم يهتمون بالغاية التى يسمعون إليها فى الجسد غير مبالين بالوسيلة ، وههنا نجدهم يسلكون سلوكاً غير منضبط من غير تمييز بين الحسن والقبيح أو للنيل والوضيع . وأما الحب العلوى الذى تلهمه الإلهة الكبرى فيمتاز بالعظمة والاتساع . وهذا الصنف من المحبين لا يميل إلى الذكور ، حيث يغريهم بحبهم الحيوية الطبيعية والمواهب العقلية فهم إنما يعشقون فيهم هذه المواهب العقلية ولا يتخذونهم هزوا .

والحق أن الحب فى ذاته ليس خيراً ولا شراً ولكن ذلك يأتى من الوسيلة الذى تصطنع فيه فهو شر إذا كان حبا أرضيا يعبد الجسد من دون الروح . ثم يقول باوسانياس فى ختام حديثه إنه أشرف للمحب أن يعلن حبه من أن يخفيه وبخاصة حين يكون المحبوب على حظ من العقل والفضل والنبل يزيد على حظه من الجمال . ومن الشرف للمحبيب أن يواصل محبه ويساعده وذلك حين يكون المحب من ذوى المواهب العقلية التى يفيد المحبوب منها فى التربية وتعلم الفنون . وهو يعيب على الآباء فى أثينا أنهم يتخذون الرقباء على أولادهم حين يحبون حتى لا يتحدثوا إلى محبوبيهم أو يواصلوهم^(٢) .

ويتحدث بعده أريكسيماخوس - Eryximachus - فيذكر أنه علم لاحترافه الطب أن الحب ليس مقصوراً على البشر يحذبهم إلى الأشياء الجميلة بل إنه يشيع فى جميع المخلوقات من حيوان وغيره مما يوجد فوق الأرض ومن الطب تعلم أزلية هذا الإله وطليته وجلاله وهيمنته على جميع الأفعال إنسانية كانت أم علوية .

Plato's : Lysis Symposium Gorgias, edited by Lamb PP (١)
105—107.

(٢) المرجع السابق 109—121 PP

وهذا الحب المضاعف (Double) يرجع إلى طبيعة الأجسام المختلفة . فبين الصحة والسقم اختلاف والمختلف (Dissimilar) يحب ما يخالفه ويعبده والرغبة المنبعثة من جسم كامل الحيوية تختلف تمام الاختلاف عن تلك التي تنبعث من جسم سقيم وهكذا ترى أن الرطوبة والجفاف أو الحرارة والبرد إذا اجتمع كل منهما بنقيضه جاء بالخير والخصب والمنفعة للناس والدواب والأنعام^(١) .

ثم يعقبه أرسطوفانس (Aristophanes) فيعود بمحدثه إلى الماضي السحيق حيث كان بنو الإنسان ثلاثة أجناس . الذكر والأنثى والخنثى (Man-Woman) فالذكر صدر عن الشمس والأنثى صدرت عن الأرض والخنثى عن القمر ؛ وكان الفرد منهم بوجهين وأربع آذان وأربع أعين وهكذا باقى الأعضاء وكان يسير معتدل القامة رغم أنه يمشى على أربع . وكان انثى على حظ عظيم من القوة والبأس حتى إنه ما كان يتورع أن يستخدم تلك القوة فى عصيان الآلهة وتحديهم .

واجتمع الآلهة وفيهم الإله زيوس وتداولوا الأمر بينهم وتبادلوا الرأى فيما ينبغي أن يفعلوا ليقفوا هذا التناول على مقامهم وغلبتهم الحيرة لأنهم ما كانوا يريدون للإنسان الفناء . وأخيراً أشار عليهم زيوس بوسيلة تحد من قوة هذا الإنسان وتضعفه ولكنها لا تقنيه تلك هى أن يجرأ كل منهم فيقسم نصفين كل يمشى على رجلين حتى إذا عاد إلى سيرته الأولى فلم يكف عن عصيان الآلهة قسم هذا النصف نصفين كل يمشى على رجل واحدة عرجا . واتفق الآلهة على ذلك وعهدوا إلى زيوس بالتنفيذ ففعل وقطعهم أجزاء كما تقطع التفاحة الطرية ليحتفظ بها بحففة وطلب إلى — أبولو — أن يدير وجه كل جزء إلى قسيمه حتى يروا فعل اللدية فيهم فيكونوا أشد طاعة . . . ثم شفاهم . بعد هذا أصبح كل منهم يحن إلى حاله الأولى فيبحث عن نصفه ويشتاق إليه فتراه إذا وجدته ضمه إليه وطوقه بذراعيه وطاقه فعر عليه أن يفارقه .

وهكذا المحبون كل يبحث عن قسيمه ويجرى وراء نصفه فالذى يحب النساء ويفرم بهن هو الذى انشق من الخنثى والذى يحب الذكور هو الذى انشق من الذكر فهو لا يألف إلى الرجال ولا يلتذ بصحبة غيرهم . وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد .

وفى الختام يقول باوسانياس :

« وإذا اتخذنا الآلهة أولياء فأطعناهم وأرضيناهم فسيظفر كل منا بنصفه الذى انفصل عنه . وطريق السعادة فى هذه الحياة أن نتمكن للحب فى حياتنا فيجد كل منا محبوبه الحقيقى ويرجع إلى حياته الأولى حياة الاتحاد والشمل المجتمع^(١) » .

ويتحدث بعده أجاثون (Agathon) عن رقة الحب وأنه لا يأوى إلا إلى أرواح الآلهة والأناسى ويفر من الأرواح الفظة الغليظة ؛ ويصفه بأنه لين ليست القسوة من صفاته فهو رهن برغبات الناس طوعاً وموافقهم وهو إلى جانب هذا أقوى من أى شئ وأشجع . وهو بعد ذلك يجعل المحب شاعراً مهما كان بعيداً عن إلهة الشعر (Muse) .

أما سقراط فيروى لهم حديثاً جرى بينه وبين ديوتيميا (Diotima) قالت له فيه . إن إله الحب ليس بفان ولا خالد ولكنه فى منزلة بين الفانى والخالد أو بين الأرضى والمقدس ، وهو لذلك حلقة الوصل بينهما يصل الفانى الأرضى بالمقدس الخالد ويعرفه به والإله لا يتصل بالناس ولا يخاطبهم وسبيل الاجتماع به والتزلف إليه هو الحب ؛ الحب الروحى الذى ينزل منزلة بين الإله والإنسان ويصل أحدهما بالآخر .

ثم يخبرهم أنه سأها عن والدى الحب وكيف ولد ، فقالت له : « كان ذلك ليلة ولدت أفروديت (Aphrodite) وقد ضم الاحتفال بمولدها طائفة من الآلهة كان بينهم إله الفيض (Resource) ومدت الموائد فجاءت إلهة الفقر (Poverty) تستجدى وكان الفيض ساعثئذ سكران بالنسكتار (Nectar) لأن الخمر لم تكن إذ ذاك معروفة ، ولما غلبه السكر وأحس بالإعياء عرج على بستان زيوس وهناك غلبه النعاس فنام واتبعته إلهة الفقر وكانت عقيماً لاتعقب فاضطجعت إلى جانبه وحملت بالحب .

ومن ههنا كان تعلق الحب بأفروديت إذ حمل به فى ليلة مولدها فهو لذلك مفرغ بالجمال يتبعه ويهيم به .

وقد ورث الحب عن أبويه الفيض والفقر صفات جعلت له وضعاً خاصاً فهو أولاً فقير وما هو بجميل (وليس الرقة من صفاته بخلاف ما يظن الكثيرون ولكنه فظ قاس حاف لا مأوى له ، يفرش الأرض ويستريح على عتبات الأبواب

وجوانب الطرق في الهواء الطلق . وهو شديد الإخلاص لما ورث من طبيعة أمه فلا يقيم إلا على الحاجة وهو كذلك مخلص لما انحدر إليه من أبيه فهو لا يفتأ يقتنى كل جميل ويتبع كل حسن وهو شجاع نشيط قوى المراس صياد ماهر يحبك خططه (الاستراتيجية) راغب في الحكمة مشغوف بها باحث عن الحقيقة وهو بعد ذلك على جانب عظيم من الاحتيال والسحر والكلام المعسول .

والحب بحكم مولده ليس بخالد ولا فان ، ففي يوم حياته وازدهاره تمتلئ نفسه وتفيض ، وبعد لأي يموت ثم لا يلبث أن يعود إلى الحياة بقوة الفيض التي ورثها عن أبيه ثم يتبدد هذا الفيض ويفيض . وهو بعد هذا ليس بفقر مدقع ولا غنى مكث بل هو في منزلة بين الإدقاع والإثراء ، وفي مكان وسط بين الحكمة والجهل .

والحكيم لا ينشد الحكمة ولا يسعى إليها لأنه ليس في حاجة إليها والجاهل لا يدرك الحكمة فيطلبها ولكننا ينشدها الوسط الواقع بين الحكمة والجهل فكذلك الحب إذ هو من أب فياض حكيم ومن أم جاهلة عقيم . « وأنت يا عزيزي سقراط كنت تتوهم أن المحبوب هو الحب وهذا قاذك فيما أظن إلى أن تصف الحب بأنه جميل رقيق كامل سماوى » .

ثم يسألها سقراط ما فائدة الحب للجنس البشرى فتجيبه : « إنه يجعلهم سعداء والسعادة تأتي من السعى في إثر الخير والجمال ولا حاجة بك إلى أن تسأل ما غاية من ينشد السعادة لأن السعادة تطلب لذاتها » .

وليس البحث عن القسم — كما مر في كلام أرسطو فانس — هو الحب إلا أن يكون القسم خيراً لأن العضو السقم يتر إذا أيس من شفائه .

أما الوسيلة التي يعمل فيها الحب فهي السعى للاتصال بالجميل والاتحاد به عن طريق الجسم والروح معاً . ففي سن معينة يظهر فينا هذا الميل للاتصال والاتحاد — وهو ميل مقدس لأنه سبيل الخلود للمخلوق الفاني — وهذا الاتصال لا يمكن أن يكون مع البغيض المنفور منه . والقبيح المنفور منه والجميل محبوب . وحين ينضج في الفرد هذا الدافع يشعر بالميل إلى الاتحاد بالجميل ليحمل عنه وزرا يشعر بثقله ؛ فالحب إذن ليس للجميل ولكنه للاتحاد بالجميل وهذا الاتحاد المقدس الخالد يحفظنا من الفناء .

والحب وما يصحبه من المتاعب أحد أشكال الكفاح من أجل الخلود ، فالخلف

يحفظ السلف بشكل آخر يشبهه ويختلف عنه كما أن الإنسان نفسه يختلف في شبابه عنه في شيخوخته وهكذا .

والناس في الحب أحد اثنين . ذلك الذي لا يعبا بغير المادة ولا يرغب إلا في الجسد فهو لا يحبون النساء والنسل ينشدون الخلود ؛ وأولو الأرواح الكبيرة التي تضم في ثناياها الفضائل ، وهؤلاء ينشدون الجمال والأشياء الجميلة ، وإذا وقع أحدهم على روح شريف نبيل في جسم لطيف جميل كان سروره بذلك عظيما . ثم تحدثه ديوتا عن التربية على الحب فتخبره أنها تبدأ بالجمال المشاهد ثم يرتقى حتى يحب الأجسام الجميلة كلها ويرتقى فيحب المشاهد الجميلة ، ثم يصل إلى المرتبة العليا وهي حب الجمال المطلق وينتهي به المطاف إلى معرفة جوهر الجمال .

« وبهذا يا عزيزي سقراط يجد الإنسان قيمة الحياة ، فهو حين يتأمل ذلك الجمال لا يورثه التأمل خيالات وأوهاما وإنما يمدده بالفضيلة لأن اتصاله يكون حينئذ بالحق لا بالوهم ، وحين يتحد الحق في نفسه بالفضيلة يصل إلى صداقة السماء وهو دون الناس الخالد^(١) » .

نستخلص مما تقدم أن الحب في رأى أفلاطون حبان ، حب سماوى علوى وحب أرضى عامى ، ويمتاز الحب السماوى بأنه ليس موضوعه المرأة وإنما هو حب الذكور وأنه يتعلق بالروح فلا يعبا بالجسد ولا يحفل بلذاته والمحبة ينشد في حبه أولى الأرواح الصافية والنفوس العالية والعقول الراجحة .

وهو حب عقلى غايته الأولى تحرر العقل وتبادل المنفعة الفكرية وغاية المحبة فيه أن يربى المحبوب على التفكير والتأمل والفلسفة ويعينه على التعلم .

والحب في رأيه قوة كونية كبرى ترمى إلى الجمع بين المختلفين لينتج من اجتماعهما الخير لهما وللمن حولهما .

أما أساس هذه العاطفة في الإنسان فالخرافة التي أجراها أفلاطون على لسان أرسطو فانس عن تقسيم الأرواح وشرط الأجسام وكيف أصبح كل شطر يمن إلى الشطر الذى فارقه ويبعث عنه ويتوق إلى الاتحاد به ، وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد واجتماع الشمل .

والحب ليس في ذاته خيراً أو شراً ، ولكن ذلك يأتيه من الوسيلة التي يصطنعها المحب فيه .

وهو بعد وسيلة يسعى بنو آدم من طريقها إلى الخلود ، وهذا الخلود يختلف فيهم الناس إياه فمنهم من يسعى إليه من طريق النسل ومنهم من ينشده بالروح والعقل ، وهؤلاء هم الخالدون حقا .

والحب بعد ذلك الطريق لإدراك الحقيقة الأولى وتذوق الجمال المطلق .

وصفوة القول أن أفلاطون كان كأهل عصره ينظر إلى الحب على أنه حب الذكور للذكور وهو ما تسميه السيكلولوجية الحديثة « Homosexual love » أما الحب الجنسي وهو العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة فكانوا يعتبرونها حاجة جسمية لا تختلف عن الحاج الجسمية الأخرى مثل الطعام والشراب^(١) ويفسر بعضهم ذلك بأن الخدمة العسكرية المستمرة التي كانت تفرض على الجنود البعيدين عن النساء صرفتهم إلى حب الذكور ، ولما جاء سقراط وهو طليعة الفكر اليوناني لم يزد على أن جعل هذه العلاقة الشاذة حبا عقليا يقوم على تربية المحبوب وترقية تفكيره^(٢) .

هذه أمور ينبغي أن نلتفت إليها بإمعان لأن لها أثرها البعيد في دراسة الحب عند العرب بعد أن ترجوا إلى لغتهم أدب اليونان وفلسفتهم .
فاذا نحن تركنا اليونان إلى الفلسفة الإسلامية كان لنا في هذا المقام متزلان لا بد أن نقف فيهما وقفة المستعرض المتأمل .

أول هذين إخوان الصفا وخلان الوفا في رسائلهم المشهورة ففيها فصل عن الحب أو بعبارة أخرى عن العشق ، أقول بعبارة أدق لأن العشق عند العرب مرتبة في الحب خاصة ومنزلة فيه قبلها منازل وسنوفي هذا حقه من البحث في الفصل الآتي إن شاء الله .

يعرض كاتب هذا الفصل الأقوال الحكماء في العشق وما هيته ثم يرجع قول من قال إنه شدة الشوق إلى الاتحاد^(٣) .

(١) Greek Love in the Encyclopaedia of Religion & Ethics .

(٢) المرجع السابق .

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ٣ ص ٦٥ ط بومبي .

ثم يقسم العشق إلى أصناف ثلاثة كما أن النفوس للتجسدة اصناف ثلاثة فهناك النفس النباتية الشهوانية وهناك النفس الغضبية الحيوانية وهناك النفس الناطقة . فأما النفس الأولى فتعشق لذات الجسد من مأكول ومشروب ومنكوح وأما النفس الثانية فتعشق القهر والغلبة والتسلط وحب الرياسة وأما النفس الأخيرة فمعشوقها المعارف واكتساب الفضائل^(١) .

وهكذا المعشوقات « فهي مفعنة بحسب مراتبها — مراتب النفوس — في العلوم ودرجاتها في المعارف وذلك أن النفس الشهوانية لا يليق بها محبة الرياسة والقهر والنفس الحيوانية لا يليق بها محبة العلوم والمعارف واكتساب الفضائل . والمحوبات أصناف فمنها محبة الحيوان أو من هو كمثل الازدواج لما فيه بقاء النسل ومحبة الوالدين للأبناء ومحبة الرؤساء للرياسة والسيطرة والمدح والثناء ومنها محبة أبناء الجنس وما يسمى العشق وما تصف العشاق من أحوالهم وأحوال معشوقهم وما يجدون في نفوسهم من الأفكار والهموم والأخزان والفرح والسرور والنشاط^(٢) .

ثم يعلل المحبة التي تكون بين شخصين فيزعم أن سببها « اتفاق مشابهة الأشخاص الفلسفية في أصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض » ولا يكتفى بهذا التعليل الفلسفي فيردفه بتعليل فلسفي ميتافيزيقي قوامه أن العناية الإلهية قد ربطت أجزاء الكون وأطرافه برباط من العلوية والمعلوية فكل شيء معلول لشيء فوقه وعلة لشيء آخر تحته . فالمعلول يشاق إلى علته وينزع إليها والعلة ترأف بالمعلول وترأفه وتحنن عليه . وذلك ظاهر في طائفة الآباء والأمهات نحو أبنائهم وفي شعور الأقوياء نحو الضعفاء وهكذا . ثم يتحدث عن حنو الأستاذ على طلابه وحبهم ورغبته فيهم ومن هنا يفسر ظهور هذا الحب — حب المذكور — في الشعوب التي أخذت من العلوم والحضارة بنصيب^(٣) . ويعود بعد ذلك إلى تفسير الاتحاد الذي اختاره من بين أقوال الحكماء فيزعم أنه يختص بالأمور الروحانية والأحوال النفسانية لأن أمور الجسم لا يمكن أن يكون فيها اتحاد بل كل ما يمكن أن يكون هو المجاورة والملازمة والمماسية .

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) رسائل إخوان الصفا — ج ٣ ص ٦٨ . يقارن بكلام أفلاطون .

والعاشق لا يزال يتمنى القرب والمجاورة من معشوقه فإذا أتيج له ذلك تمنى الخلوة
فإذا أتيجت له تمنى ما بعدها وهكذا لا يقنع بشيء . ولهذا يقول ابن الرومي :

أطانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كي تزول حرارتي فيشتمد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يجتمعان

وله في تعليل اشتداد الشوق وازدياد الليفة من العاشق والمعشوق كلام أقله
على سبيل التفككة . يقول : « ويفسر اشتداد شوق العاشق إلى المعشوق بأن كلا
منهما إذا بلغ ريق صاحبه نزل إلى المعدة وامتزج بتكوين جسمه وكذلك إذا
تقاربت أقدامهما فثم كل نفس الآخر ودخل إلى الرئة واختلط بالدم فلذلك
يزداد شوق كل منهما إلى الآخر ^(١) » .

ويختم الفصل بلمحة قيمة مجملها أن الإنسان إنما يحب من يحب لصفات ومحاسن
يشهدها فيه ثم إذا تغير المحبوب ورجع الحب إلى نفسه وجد تلك المحاسن
والصفات منقوشة فيها باقية لم تتحول ثابتة لم تتغير ووجد أن ما كان يحبه في
الشخص الآخر موجود فيه مكنون في داخل نفسه ^(٢) .

والناس عوام وخواص فالعوام هم أولئك الذين إذا رأوا منظرًا حسنًا
أو مخلوقًا جميلًا اشتاقوا إلى النظر إليه والقرب منه والتأمل فيه ، والخواص
أولئك الذين إذا رأوا مثل ذلك تشوقوا إلى مبدعه وتطلعوا إلى صانعه .

والشيخ الرئيس أبي علي بن سينا رسالة في العشق تحوى سبعة مباحث أولها
مريان العشق في كل واحد من الهويات ، وثانيها وجود العشق في الجواهر البسيطة
غير الحية وثالثها وجوده في الموجودات ذات القوة المغذية ، ورابعها وجوده
في الجواهر الحيوانية من حيث لها القوة الحيوانية وخامسها عشق الظرفاء والفتيان
لأوجه الحسان ، وسادسها عشق النفوس الإلهية وخاتمة .

والعشق عند ابن سينا هو النزوع إلى السكال والسكال هو الخير المنبعث
عن الخير المحض وكل من الهويات يترع إلى السكال وينفر عن النقص والموجود
إما أن يكون مستعداً لنهاية السكال أو أن يكون خالياً من السكال أو متردداً

(١) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) يلوح لي أن هذا شبيه بنظرية المثل عند أفلاطون ولعله مقتبس منها .

بين النقص والكمال . فأما الخالي من الكمال فهو موجود كالمعدوم أو في حكمه ، وأما المتردد بين النقص والكمال فهو الذي لا يزال ينزع إلى الكمال وينفر من النقص فهو يشترك إلى كماله في حالتي حضوره وغيابه ؛ أما في حالة الحضور فرغبة في الاحتفاظ به وإشفاقاً من عدمه وأما في الغياب فقلقاً لبعده ^(١) .

وهذا العشق أو نزوع الشيء إلى كماله موجود في البسائط الحية الثلاث وهي الهيولي والصورة والأعراض . أما الهيولي فيتحلى العشق في نزوعها إلى الصورة إذ لا يتم لها وجود بدونها ، والصورة يبدو عشقها في مظهرين أحدهما ملازمتها للهيولي ونزوعها إليها والثاني نزوعها إلى الكمالات وعشق العرض ظاهر في ملازمتها للجوهر ^(٢) .

والعشق موجود أيضاً في النفوس النباتية بأقسامها الثلاثة : قوة التعذية ويظهر عشقها في الشوق إلى حضور الغذاء عند الحاجة إليه وبقائه في المقتضى بعد أن يصبح جزءاً منه ، وقوة التنمية ويبدو ذلك في شوقها إلى الزيادة في أجزاء المقتضى ، وقوة التوليد ويحلى العشق في نزوعها إلى إيجاد المثل ^(٣) .

وهو كذلك موجود في القوى الحيوانية يصرفها في مسالكها ومنافعها ؛ فالحواس الخارجية تألف بعض المحسوسات دون بعض ، وترتاح إليها ولولا هذا النزوع إلى ما تألفه وترتاح إليه لكان وجودها في النفس عبثاً لا طائل تحته ولما تورعت عن مباشرة المضرات . والحواس الباطنية تراح إلى بعض التخييلات المروحة وتشتاق إليها والقوة الغضبية يظهر عشقها في نزوعها إلى الانتقام وتقورها من الاستكانة والذل .

والقوة الشهوانية الحيوانية هي أظهر القوى وأجلاها ، وعشقها يبدو في الشوق إلى التكاثر والتناسل إلا أنه عشق أعلى من عشق باقي القوى وأرفع ، والطريق التي تسلكها فيه أقوم وأفضل ، وهي قد توافق القوة النباتية في الغرض من حيث حصوله لا بقصد اختياري كما هو الأمر في الحيوان غير الناطق فهو لا يدرك بعد إشباع الشهوة غرضاً .

(١) جامع البدائع — ط مطبعة السعادة . الرسالة الثامنة في العشق لابن سينا من ٦٩ — ٧٠ .

يقارن هذا بكلام أفلاطون عن الحب ومتركه بين الحكمة والجهل .

(٢) المرجع السابق من ٧٢ — ٧٤ .

(٣) المرجع السابق من ٧٤ .

والعشق بعد هذا نوطان عشق طبيعي يندفع فيه العاشق إلى معشوقه ولا يقف حتى يظفر بغرضه إلا أن يصده عنه « قاصر خارجي كالحجر فانه لا يمكن أبداً أن يقصر عن تحصيل غايته وهي الاتصال بموضعه الطبيعي والسكون فيه من ذاته اللهم إلا من جهة طارض قبرى » وعشق اختياري وهو الذى قد يعرض فيه العاشق عن معشوقه إذا وجد ضرراً يعترض طريقه إليه ^(١).

ثم يخوض فى الحديث عن العشق الإنسانى فى الفصل الذى يسميه « عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان » فيمهد له بالحديث عن القوى النفسية وأن كلا منها تستفيد من انضمامها إلى قوة أعلى منها فى المرتبة فتزيد الأفعال الصادرة عنها زيادة فى السكم أو السكيف « بحسن الإتقان ولطف المأخذ » فإذا جاورت القوة المنطقية القوة الشهوانية وانضمت إليها استعانت بها على حفظ الموع واستدامته ثم نتج من تجاوزها أن تعشقا حسن النظم واعتدال التركيب « فالقوة الحيوانية تفعل ذلك أداء الغرضها الأصلى وهو التوليد والتكاثر وأما المنطقية فلعلها أن ما حسن نظامه واعتدل تركيبه قرب من المعشوق الأول ^(٢).

وهكذا تتعاون هاتان القوتان بالتجاور والامتزاج وينتج من ذلك قوة العشق الإنسانى — عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان — وهو نزوع إلى الصور الجميلة فيه الشهوة وفيه الإدراك.

ولنا بعد الذى مر وقفة عند أمور أهمها : —

- ١ — رابطة العلية والمعلولية وكونها سبب العشق : وقد مر شرحها.
- ٢ — إن ما يعشقه الإنسان فى محبوبه من الصفات والمحسن قائم فى نفسه — نفس المحب — فالعشق إذن أمر ذاتى « Subjective » وليس للموضوع فيه إلا أنه صورة لما فى النفس . أو بعبارة أخرى إن العاشق يعشق صورة فى نفسه يجد مثلها فى العالم الخارجى .

٣ — تفسير ابن سينا للعشق بانه نزوع الأشياء إلى كمالها وهو بذلك يفسط على كثير من مظاهر السكون . والكمال عنده منبعث عن الخير المحض فالعشق إذن وسيلة لمعرفة الخير المحض وللتقرب منه . والعشق الإنسانى إذن مرحلة لها ما بعدها وما بعدها هو العشق الإلهى وهذا يعيد إلى الذهن كلمة صوفية جميلة مرادها أنه

لا يصل إلى الحقيقة من لم يقطع إليها المجاز ، والمجاز هو الحب الانساني والحقيقة هي الحب الإلهي الذي يقضى إلى المعرفة فالاتحاد .

٤ — وأخيراً يجدر بنا أن نتأمل في حديث ابن سينا عن تجاوز القوى وكيف تسمو القوة النطقية بالقوة الشهوانية فتحيل الشهوة حباً .

٢

وإذا نحن انتقلنا إلى الحب في رأى المحدثين وجدناهم يقولون إن الحب حال نفسية تستمد معينها من الغرائز والدوافع الحيوية في الإنسان وتخلق من تلك الغرائز والدوافع نظاماً مرتباً من الاتصالات تتحد في عاطفة واحدة قوامها تعلق بالشئ المحبوب ومرور لوجدانه وانقباض لفقدانه ولا تزال تتطور حتى تبلغ بالحب مراتب يشعر فيها بدوام الشوق واللفف إلى المحبوب في حالتى حضوره وغيباه ويتمنى أن لو تمكن أن يتحد به فلا ينفصل عنه فيصبح الاثنان واحداً والروحان روحاً .

وهناك حقائق جدرة بالاهتمام في هذا الباب منها ما يقع فيه كثيرون من الخلط بين الشهوة الجنسية^(١) وبين الحب . فالحب عند كثير من الناس لا يزيد على توجيه الدافع الجنسي^(٢) إلى شخص معين وهو إذن لا يعدو أن يكون مظهراً جافاً من مظاهر الغريزة الجنسية ينتهى بإشباعها وتطمينها ولا يمتد إلى أكثر من ذلك . وهذا خلف من القول فعلينا في هذا المقام أن نميز بين أمرين : الدافع الجنسي وهو المظهر الغريزي الذي يبدو في الاشتهااء الجنسي وبين الحب وهو الدافع الجنسي مقرونا بدوافع أخرى مستمدة من غرائز أخرى^(٣) .

فالشهوة حاجة فسيولوجية تشبه الحاجة إلى الطعام تلك التي يعبر عنها بالجوع ويعبر عن الأولى بالجوع الجنسي (Libido)^(٤) .

من علماء النفس من يرى أن الحب عاطفة^(٥) ومنهم من يرى أنه اتفعال مركب^(٦) والفرق بين هذين أن الأولى مجموعة مرتبة من الاتصالات^(٧) تدخل

Lust (١)

Sexual impulse (٢)

Havelock Ellis : Psychology of Sex, p 275. (٣)

S. Freud : Trois Essais sur la Theorie de la Sexualite, p 19. (٤)

Sentiment (٥)

Passion (٦)

Emotions (٧)

فيها عناصر عقلية وتمتاز بالثبات والاستقرار والثاني عقدة أو تركيب انفعالي ذو قوة دائمة فيه حماس وفيه شدة وفيه تركيز الانتباه إلى شيء يعينه وهو إذن مجموعة من الانفعالات مصدرها دوافع غريزية إذا تحللت من تركيبها ظهرت في شكل رغبات شعورية وميول واضحة تثار في وجهات متضاربة^(١).

وليس هذا الاختلاف ضرورياً إذ يبدو أن هاتين مرحلتان في الحب تسلم أحدهما إلى الأخرى وهذا فيما يظهر أدنى إلى الصواب. فالحب في أول ظهوره انفعال معقد مركب من دوافع غريزية أبرزها وأظهرها الدافع الجنسي الذي ينبعث عن الغريزة الحيوية التي ركبها الله في الحيوان لحفظ النوع وكلما تقدم به الزمن انضافت إليه — إلى الانفعال المركب — عناصر من الحياة النفسية بعضها عقلي إرادي تقويه وتثبته في النفس.

فالفرق في أول مراحل الحب يحس به ولا يستطيع أن يعلله أو يفسره فهو لا يشعر بأكثر من انفعال شديد يملك عليه جوارحه ويسيطر على أجزائه نفسه ثم إذا طال عليه العهد استقر وثبت وامتزج بانفعالات شعورية وعناصر عقلية فيستطيع المحب آنئذ أن يعلل الحب تعليلًا لا شأن لنا به من حيث الموضوعية أو الواقعية ولكنه تعليل على كل حال ومنفذ للقوى الشعورية والإرادية تبرر فيه سيطرة هذه العاطفة عليها وامتلاكها إياها.

نخرج من هذا الذي بسطناه بأن الحب عاطفة مكونة من انفعالات بعضها غريزي فسيولوجي وبعضها شعوري عقلي. أما الغريزي الفسيولوجي فذلك الدافع الجنسي الذي يعرف بالشهوة وهو حاجة جسمية تشبه حاجة الجسم إلى الغذاء — كما سبق — وأما العقلي الشعوري فهو الذي يهدف إلى ضبط النفس وتنظيم الدوافع الفسيولوجية لتنسجم مع حاجات الإنسان وما تفرضه عليه البيئة التي يعيش فيها.

ومن العجيب أن الدافع الجنسي — وهو كما سبق أن قلت — حاجة فسيولوجية أصلها أناني^(٢) مبعته حاجة جسمية يصبح في آخر مرحلة من مراحل تطوره عاملاً إيثارياً^(٣) فيه التضحية ونكران الذات. ولا يقف هذا العامل

Boyce Gibson : Love Psychological & Ethical in the (١)
Encyclopaedia of Religion and Ethics.

Altruist. (٢)

Egoist. (٣)

الإيثاري عند حد ، بل قد يسيطر على الأنانية ويكبح جماحها فيمحوها فلا تعود تظهر بجلاء . على أن ذلك لا ينبغي أن يفسينا الارتياح الأناني^(١) الذي يهدف إليه هذا الإيثار^(٢) .

والحب في حقيقة أمره ليس إلا مظهرا من مظاهر التكيف وفقا للمحيط ، فالنفس الإنسانية لا تعدو أن تكون في الأصل مجموعة من الغرائز والدوافع الحيوية إذا أطلق عنايتها أخذت طريقها الطبيعي وسارت فيه إلا أن ذلك لا بد أن يكون داعيا للتصادم والاحتكاك بين الأفراد فاقضى تجنب هذا التصادم أن تنظم هذه الغرائز والدوافع ، وتتكيف بحيث يضمن المحيط للمجموعة البشرية حياة أقرب إلى الهدوء والاطمئنان والنظام .

وهكذا مظاهر السلوك الإنساني فهي ليست إلا غرائز ودوافع طبيعية مكيفة بحيث تفي بحاج الإنسان من غير أن تؤدي إلى اصطدامه بغيره ، على أن قابلية التكيف هي الأخرى طبيعية في الإنسان .

ونعود إلى ماسبق الكلام فيه من تركيب طائفة الحب وتكوينها فنقول : إنها تحتوي على العنصر الإدراكي في الأرجح . ومن العلماء من يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن الغريزة وهي عنصر أولى بسيط من العناصر المكونة للحب تحتوي على العنصر الإدراكي أيضاً . يقول الأستاذ مكدوجل : « وقد سبق أن بينت أن تكوين الغريزة يشمل على العموم اتجاهها إدراكيا واحداً أو أكثر يجعل الفرد قادرا على إدراك الأشياء أو الأوضاع التي تتطلب نشاطا غريزيا . » والغريزة الجنسية التي لا تنضج في الفرد قبل أن تتطور فيه قابلية الإدراك والقدرة على ضبط النفس أخرى بأن يلاحظ فيها ذلك^(٣) .

ولقد حلل هيربرت سبنسر^(٤) طائفة الحب إلى تسعة عناصر : —

(١) الدافع الجنسي Sexual Impulse

(٢) الشعور بالجمال

(٣) الانجذاب Affection

(٤) الإعجاب والاحترام Admiration and Respect

Egoistic gratification. (١)

Havelock Ellis : Psychology of Sex, p 276. (٢)

W. Mc Dougal : Introduction to Social Psychology, (٣)

pp 340—341.

Herbert Spencer : Principles of Psychology (٤)

The Love of Approbation	(٥) حب الاستحسان
Self Esteem	(٦) إكبار النفس
Appropriety Feeling	(٧) الشعور بالملك
Extended Liberty of	(٨) اتساع حرية الفعالية نتيجة تحرر الشخصية
Action from the Absence of Personal Barriers	
Exaltation of Sympathies	(٩) صفاء المودة

ويضيف (هافيلوك إليس) إلى ذلك عنصر الأبوة في حب الرجل وعنصر الأمومة في حب المرأة وهو يلاحظ هذا في سلوك الرجل المحب نحو حبيبته وكيف يحيطها بحنان يشبه حنان الأب ويستشهد لذلك بما ينادي كل منهما الآخر مثل *Mon Petit, O child* الخ وكذلك يفعل الأستاذ مكدوجل إلا أنه يزيد على غريزة الأبوة ^(١) دافع الحماية ^(٢) واتفعال الرحمة ^(٣) .

أما علاقة الحب بالغريزة الجنسية ففي ما اطلعت عليه من أبحاث علماء النفس اتجهان . أحدهما يجعل الحب تطوراً محضاً للغريزة الجنسية أو بعبارة أخرى انحرافاً جنسياً "perversion" وهذا رأى الاستاذ سيجمند فرويد رأس مدرسة التحليل النفسى والاتجاه الآخر يرى — كأسلفت — أن الحب عاطفة أو اتفعال مركب يدخل في تكوينه دوافع غريزية عديدة وينضاف إليها عناصر من الإدراك والتعقل وليس الدافع الجنسى إلا واحداً من دوافع غريزية عديدة . ولا ينكر القائلون بذلك أن الغريزة الجنسية هي نقطة البدء في مرحلة الحب ولكنها تجتمع إليها بعد التطور الجنسى الكامل اتفعالات متحدة مستمدة من العلاقة بالوالدين فيكون حب المرأة ممزوجاً بالحنان والصبر وحب الرجل مشوباً باتفعالى المحافظة والحماية وكل تلك مشتقة من العلاقة الأبوية ^(٤) . يضاف إلى ذلك أن الغريزة الجنسية وهي — كما سبق — نقطة البدء في مرحلة الحب لا تنضج من قبل أن تتطور في الفرد قابلية الإدراك والقدرة على ضبط النفس ^(٥) .

هذه العناصر التي أتينا على طائفة منها تتضافر للعمل على تلطيف الشهوة والحد من عنفها وحدتها ، ولا تزال تفعل ذلك حتى إذا اكتمل نماء الحب

Protective Impulse. (٢)

Ellis, p 276. (٤)

Paternal Instinct. (١)

Tender Emotion. (٣)

Mc Dougal : Introduction.... p 341. (٥)

« واتسع مجاله وتم تركيبه لم تعد الشهوة - وهي التعبير عن الدافع الجنسي - إلا عنصرا ثانويا بين العناصر الأخرى الكثيرة ^(١) » .

أما الأستاذ سيجمند فرويد فيعرف عنه أنه يرجع بكثير من ألوان النشاط الإنساني إلى الغريزة الجنسية ^(٢) .

وهو في دراسته لهذه الغريزة يصطنع اصطلاحين أساسيين هما : الموضوع الجنسي ^(٣) والغاية الجنسية ^(٤) .

وهو يلاحظ أن الاختبار العلمي قد أثبت أن هناك انحرافات تتصل إما بالموضوع الجنسي أو تتعلق بالغاية الجنسية .

أما الانحراف في الموضوع الجنسي فيبدو في طائفة من الأفراد يكون الموضوع الجنسي عندهم فردا من جنسهم لا من الجنس الآخر وهم الذين يقال لهم « Homosexuel » وهم الشواذ « Invertis » ^(٥) ولا شأن لنا بهم .

وأما الغاية الجنسية فهي إشباع الغريزة عن طريق الاتصال الجنسي وهو شبيه بتطمين الجوع . ويلاحظ فرويد في بعض الأحوال الجنسية السوية ميلا إلى التطور تتصل به انحرافات قد تبلغ بالفرد إلى الامتناع الجنسي . ويرجع فرويد بهذا الامتناع وما يقاربه إلى ظاهرة يطلق عليها « إكبار الموضوع الجنسي ^(٦) » أو « المبالغة في قيمته » وذلك بأن يراه الفرد أكثر من أداة لتطمين الغريزة عن طريقها الطبيعية . ويتجلى هذا الإكبار في سيطرة الموضوع الجنسي على نفسه سيطرة يصحبها شيء من الذهول وفقدان للمعيار الذي به يقومه ويتذوقه . وتعمل العقيدة « credulité » فعلها في تمكين هذه الحال وتثبيتها ^(٧) .

وعرض فرويد لحال تتصل بالإكبار الجنسي ويستعاض فيها عن الموضوع الجنسي السوي ^(٨) بأشياء تتصل به وتعود إليه ولكنها ليست على أية حال صالحة لأن تكون موضوعا جنسيا سويا من هذه الأشياء جزء من جسم الموضوع

(١) Ellis, p 278.

(٢) Mc Dougal : Psychoanalysis & Social Psychology, p 62.

(٣) L'objet sexuel.

(٤) Le but sexuel.

(٥) S. Freud : Trois Essais sur la Theorie de la Sexualite, p 20.

(٦) Surestimation de l'objet sexuel.

(٧) Freud : Trois Essais . . . , p 38.

(٨) L'objet sexuel normal.

الجنسى أقل صلاحاً للغاية الجنسية كالشعر والاقدام أو يتصل بجسمه ويلامسه كالملايس وما إليها . وهو يسمى هذه الحالة « Fetichisme » ويلاحظ أن التحول الجنسي الذى يحدث عن طريق الاكبار يشبه أن يكون ضرورة سيكولوجية لذلك تلاحظ هذه الظاهرة فى الحب السوى وبخاصة فى فترة الحب التى لا يمكن فيها الوصول إلى الغاية الجنسية أو لا يمكن بلوغها فى وقت قريب ^(١) وأكثر هذه الأحوال يرجع سببها إلى الاثر القوى لانطباع جنسى عنيف يكون غالباً فى دور الطفولة ، وهذا يذكر بالمثل السائر عن الحب الأول ^(٢) .

مما تقدم يتضح لنا أن فرويد لا يكاد يعتبر فى الحب شيئاً آخر غير الغريزة الجنسية أو الدافع الجنسي الذى إما أن يمهده السبيل وتفتح أمامه الأبواب فيسلك الطريق الطبيعية المعروفة ، وإما أن توصله فى وجهه ويعسر ولوجها عليه فينحرف إلى سبيل أو سبل أخرى هى فى رأى فرويد تحول وانحراف .

ولقد مر بنا أن فرويد حاول أن يفسر أوجه النشاط النفسى فى الإنسان عن طريق الغريزة الجنسية فى نظريته المعروفة باسم « The Theory of the Libido » وتعسف فى رد الفعاليات الإنسانية إليها ولكنه أدرك فيما بعد أن هنالك قوى خارجة عن الغريزة تستطيع أن تكبتها أو تقاومها أو تعلوها ^(٣) .

ومن ثم فقد قرر فى كتابه « محاضرات جديدة فى التحليل النفسى » أن هناك غريزتين أساسيتين فى الإنسان تتصادمان وتتعارضان هما غريزة الجوع وغريزة الحب أولاهما تهدف لحفظ النفس والثانية لحفظ النوع .

وإذا جاز لنا أن نرجح أحد هذين الاتجاهين فليس لنا إلا أن نميل إلى رأى مكدوجل وإليس ومن شا كلهما فهو فيما أظن أقرب إلى طبيعة النفس الإنسانية وما تشتمل عليه من قابليات الإدراك والتفكير بالإضافة إلى الغرائز الحيوية الأخرى .

وإذا كانت النفس الإنسانية وهى مجموعة هذه الغرائز والدوافع تعمل كوحدة وهى كذلك فى الواقع فلا ريب أن مظاهر السلوك الإنسانى وألوان نشاطه ثمرات

Freud : Trois Essais , p 43—46. (١)

On revient toujours a ses premiers amours. (٢)

وهو مثل قول أبى تمام :

قل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

Mc Dougal : Psychoanalysis & Social Psychology, p 62. (٣)

تتضافر هذه القوى في تكوينها والحب كمظهر من مظاهر الحياة الإنسانية وجانب من جوانب السلوك الإنسانى لابد أن تشترك في تكوينه القوى النفسية العديدة التى ذكرناها .

وهناك عنصر أساسى يعتبره بويس جبسون^(١) ضرورة أولية في الحب ، ذلك هو انفعال السرور « Joy » وهو أن يكون لك سرور بالشئ لذاته لا لأنه يطمئن فيك رغبة أو يسد في نفسك حاجة وهو شئ آخر غير الارتياح « Pleasure » وهو الذى يتأتى من سد حاجة أو قضاء وطر .

وأنت إذ تسر بالشئ لذاته يتصل سرورك بالموضوع ولا يتصل بشخصك . وأنت إذ تقوم الشئ لذاته تنعدم فيك الرغبة المنبعثة من دوافع غريزية . وهذا السرور ليس فيه محاولة الحصول على الشئ وإنما هو توجيه النفس إليه وانفرادها به وبقاؤها فيه مع احترامها لفرديته .

وإلى جانب السرور هناك الأسف « Sorrow » وهو يقابل السرور فكما يسرك حضور الحبيب يؤسفك غيابه وأسفك هذا تصحبه تخیلات وتصورات تزيد في قيمة الحبيب وتقف بك على ما يمتاز به مما يثير فيك السرور بقربه حتى إذا ابتعد أخذ الأسف لبعاده يبالغ في قيمه وصفاته ويضاعفها فيزداد سرورك بقربه ويعمق ويقوى .

وهكذا يتعاون السرور والأسف في تمكين الحب من النفس على أن السرور أثبت وأقوى وأدوم بخلاف الأسف فهو وقى يظهر عند اختفاء السرور . أو هو على حد تعبير بويس جبسون باحث دائب عن سرور مفقود ولا كذلك السرور .

٣

وبعد أن عرضنا لألوان من تفسير الحب في الفلسفة القديمة وفي العلم الحديث نريد أن نجول جولة طامة لعلنا نستطيع أن نخرج منها بفكرة طامة . وقد حرصت على أن أعرض للفلسفة واللعلم الحديث من بعدها وكل منهما يصور مرحلة من مراحل التفكير الإنسانى تختلف عن الأخرى في الأساس الذى تقيم قواعدها عليه وفى السبيل الذى تسلكه إلى الحقيقة .

Love : Psychologically and Ethically in the Encyclopaedia (١)
of Religion & Ethics.

فأما الفلسفة فنحن نعلم أنها تمتاز بالنظرة الواسعة الشاملة للكون وتحاول أن تربط بين أجزائه وتكشف عن علاقات بعضها ببعض وهي لا تكاد تؤمن بالجزئية في بحثها . وأما العلم فيقر بعجزه عن مثل ذلك ويعلن بأنه من الوصول إلى الحقيقة عن هذا السبيل فهو يستعين على ذلك بالتجزئة والتقسيم وبغير ذلك يستحيل عليه أن يقرر نتائج ثابتة لأبحاثه أو بعبارة أدق يتعذر عليه أن يضطلع بمهمته التي تقوم على قاعدته المتينة — التجربة والملاحظة .

وقد تبين هذا بشكل واضح فيما سبق أن عرضته من كلامهما في الحب . فرأينا الفلسفة تميل إلى اعتباره ظاهرة عامة في الكون تنتظم كثيراً من أجزائه وتشيع في كثير من ثنائياته . وشاهدنا كيف يتلمس الفلاسفة خاصة إنما يختص به أو صفة مما يمتاز به تصدق على مظاهر الكون كلها أو أكثرها فيجعلونها الصفة الأساسية فيه ليستقيم لهم بحثهم وتسلم لهم طريقهم .

ورأينا كيف تناول العلم هذه المسألة فجاءها من أقرب طريق إليه وأهون سبيل عليه فعدل عن التعميم إلى التخصيص وقصر همه على الحب كظاهرة نفسية إنسانية .

ولعل العهد بكلام أفلاطون غير بعيد فإنه لا يمكن أن يعتبر فلسفة بالمعنى الدقيق للفلسفة بل هو إلى الأدب أقرب وإلا فما قيمة تلك الإفاضة في الحديث عن الآلهة وفي الخرافات التي تدور حول بني آدم في ماضيهم السحيق . على أننا قد وقفنا فيه على لمحة أو لمحات فلسفية قيمة أجدرها بالتنويه ما جاء على لسان أريكسيماخوس من أن إله الحب إله عظيم يسيطر على أجزاء الكون ويؤثر فيها فهو بجمعه بين المختلفين ينتج الخير والخصب والنماء كما هو الأمر في تأليفه بين الجفاف والرطوبة وبين البرد والحرارة . وفيه لمحات تدخل في الفلسفة الخلقية من أوسع الأبواب مثل كلامه عن مكان الحب بين الحكمة والجهل وبين الغنى والفقر وأنه لذلك ينشد الحكمة ويشغف بها ويغرم بالجمال ويتبعه وأنه ضمان من الفناء . ووسيلة إلى الخلود .

وأخيراً هذه الصفة العقلية التي يخلعها على الحب العلوى الذي لا يقوم من الحب غيره . وكيف جعله أداة في يد المحب يربى بها محبوبه ويرفع من شأنه عقلياً وروحياً حتى يصل إلى إدراك الحقيقة الأولى وتذوق الجمال المطلق . وإذا انعطفنا إلى الفلسفة الإسلامية بدا لنا ما سبق أن أشرت إليه من توسيع

ظاهرة الحب وتعميمها على مظاهر الكون ما أمكن ذلك والتماس صفة من صفاتها تصدق في أجزاء الكون فيجعلونها هي الأساس فيه . فقد أخذ إخوان الصفا ما أسموه « شدة الشوق إلى الاتحاد » فجعلوها الصفة الأساسية للحب وسعوا فيها ما استطاعوا حتى طووا تحتها القوى الحيوية وغيرها .
وهكذا فعل ابن سينا فعقد فصلاً لسريان العشق في كل واحد من الهويات وفصلاً آخر لوجود العشق في الجواهر البسيطة غير الحية وآخر لوجوده في الموجودات ذات القوة الحيوانية ... الخ وجعل العنصر الأساسى في العشق هو النزوع إلى الكمال المنبعث عن الخيرية .

ولآراء ابن سينا في الحب الإنسانى قيمة كبيرة وبخاصة ما يتصل منها بالقوى النفسية وتجاورها وما يحدده ذلك من زيادة في نتائجها كمّاً وكيفاً وكيف تؤثر القوة النطقية في القوة الشهوانية فتزيد شرفاً وبهاء وتجعل الأفعال الصادرة عنها أرقى وأفضل وأشرف فتصبح الشهوة — التى مرادها الاتصال الجنسى لغاية التوليد — تعشق اعتدال التركيب وحسن النظم . وهذا الكلام يتفق إلى أبعد مدى مع ما يقرره علم النفس الحديث في تركيب عاطفة الحب ووجود العنصر العقلى فيها وعمله على تلطيف الشهوة .

فإذا وصلنا بعد ذلك إلى علم النفس الحديث نجد أنه سلك في بحثه الحب سبيلاً غير الذى سلكتها الفلسفة فهو قد عدل عن التعميم إلى التخصيص وشغل نفسه بما يقع تحت الحب وما يخضع للملاحظة والتجربة فقصر همه على الحب كما تظهر آثاره في بنى آدم وأعرض عن الكلام الميتافيزيقى الذى مر بنا في الفلسفة من انتظام الحب للقوى النفسية والمظاهر الكونية وشيوعه فيها .

فأما فرويد فقد أغرق في المادية حتى أسف بالحب إلى حضيض الشهوة الجنسية ولم يقم لإنسانية الإنسان كبير وزن ولا اعترف بغير هذه الشهوة قوة تسيير مباشرة أو بالواسطة . ولعل ذلك جاء من إفراطه في التعويل على التجربة المحسوسة وإغفاله لما لا يقع في نطاقها من القوى التى تسيير الإنسان ولا تعرف إلا بنتائجها . على أن هناك فريقاً من علماء النفس أكد التمييز بين الحب والاشتهاء واعترف للحب بأنه عاطفة مركبة من دوافع غريزية وعناصر عقلية فيها ثبات وقوة وضبط للنفس .

وقد اكتشف بويس جبسون عنصراً أساسياً في عاطفة الحب يوسع أفقه ويفسح

تأثيره ذلك هو انفعال السرور بالشيء لذاته . وما اظن ذلك بقاصر على الحب الإنسانى الذى لم يبحث علم النفس فى غيره ، بل لعلنا واجدوه فى حب الإنسان لذوات الحياة ولغير ذوات الحياة أيضاً .

ولعلنى لا أركب شططاً إذا اتخذت هذا السرور بالمحسوب لذاته تسكاة ألوذ بها واستند إليها فى تكوين فكرة عامة عن الحب لا أدعى فيها الدقة ، فأقول إنه ظاهرة إنسانية قوامها الميل والألفة والتعلق ، تأتي نتيجة لتجربة نفسية ملائمة ترتاح لها النفس وأنا إذ أقول النفس أعنى القوى الشعورية والعقلية المختلفة التى تعمل مجتمعة وتنتج السلوك "Behaviour" .

هذه الألفة ميل معقد تعمل فيه الحاج الجسمية والنفسية التى تسكلم عليها علماء النفس أثناء تحليلهم لعاطفة الحب ثم تقوى هذه الألفة وتشتد كلما مرت بتجارب موافقة حتى تبلغ بالإنسان إلى ما نشهده فى العشاق وما نقرؤه عنهم من شديد التعلق بمعشوقهم .

ولعل من المفيد أن نشرح الألفة شرحاً علمياً مبنياً على قاعدة نفسية معروفة ؛ فالألفة ليست إلا استجابة نفسية موافقة تتصل بأولية من أوليات علم النفس تلك هى ما يسمى بقانون المثير والرجع "Stimulus-Response" وهى فى غير حاجة إلى الإيضاح .

والحياة كلها مثيرات تستجيب لها النفس استجابة تتوقف فى كمها وكيفها على حال النفس وحال المثير . ولعلنا فى غنى عن أن نقول إن أشد المثيرات أثراً فى النفس ما صدر عن الأشياء التى للنفس بها حاجة ومن هنا تنشأ الألفة . وعلى سهولة الاستجابة ومرعتها تتوقف الألفة أو النفرة .

ومن هنا يبدو أن الألفة ليست قاصرة على أفراد الإنسان ولكنها عامة فى ما يثير ويستجيب ، وقد لاحظ ذلك بعض علماء النفس فذكرها فيلوك إليس : أن من الطير ما يموت لفقد أليفه ، واعترف بأن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب الغريزة الجنسية بل إنه آت من اشتباكها بمظاهر الحياة إلى درجة نادرة بين كثير من الإنسان المتمدن^(١) .

على أن هذه الألفة أوضح صورة فى بنى آدم وأبين معالم ؛ ذلك لأن تقوسهم قابلية للمشاهدة ، وحركاتها خاضعة للتتبع والملاحظة ، ولنضرب مثلاً على ذلك بما

نعرف وما نشهد من ألفة بين بعض الناس للحيوان وألفة آخرين لأشياء من غير ذوات الحياة، ولعلنا لو رجعنا إلى تفوسنا لوجدنا فيها من ذلك أشياء وأشياء، وصحيح أن هذه الألفة ليست على شيء من القوة بحيث يصح أن تضاف إلى الحب ولكنها على كل حال مرتبة من مراتبه والعنصر الأساسي في تكوينه.

ولعلنا بهذا نستطيع أن أقول إن الحب قوة لها من الشمول حظ أى حظ ولكن أظهر مظاهرها وأوضح صورها هذا الحب الإنسانى الذى تقوم أواصره بين فردين من بنى آدم فتحلوا لهما في ظله الحياة، وتعذب رغم ما فيها من مرار ولولاه لكانت أشبه بعيش البهائم حوائج جسمية ورغبات مادية ليس بعدها شيء وليس فوقها شيء. وللحب في حياة الإنسان مظاهر عديدة لا يمكن أن تخلو منها فمن حب الوالدين وهو أسمى صنوف الحب وأحفظها بالايثار ونكران الذات إلى الصداقة إلى الحب الجنىسى. وهو — بل جزء منه — موضوع البحث في هذا السفر.

وقوام عاطفة الحب كما مر بنا في البحث النفسى أمور ثلاثة :

١ — انصراف المحب إلى محبوب واحد وقصر اهتمامه عليه وانتباهه إليه . وإذن فيؤلا، الذين يدعون الحب وهم يقتفون الجمال والظرف والركة ويتبعونها حيث كانت هؤلاء، ليسوا بمحبين وإنما يصح أن يقال إنهم ذواقون للجمال يتهافتون عليه أين رأوه وأنى لقوه . وينبغى هنا أن نقتبه إلى التمييز بين المعجب بالجمال أو ذلك الذى يظن شيئاً أبلغ في الوفاء بحاجه الجسمية من شيء آخر وبين المحب المنصرف إلى محبوبه لا يتجه إلى غيره ولا يفكر فى سواه .

ولما أبى إلا جماها فؤاده ولم يسل عن لىلى بمال ولا أهل

تسلى بأخرى غيرها فاذا التى تسلى بها تغرى بللى ولا تسلى

٢ — أن يكون شعور المحب نحو المحبوب من سرور بحضوره وأسف لغيابه . يرئاً من الغرض أى أن يسر به لذاته لا لأنه يطمئن فيه رغبة أو يقضى له شهوة . وإذن يخرج من بين المحبين أولئك الذين يمتزح شعورهم نحو من يحبون بالرغبة فى قضاء وطر أو إشباع شهوة . ليس هؤلاء بمحبين ولكنهم يرون فيمن يدعون حبهم موضوعاً جنسياً أبلغ فى إشباع الغريزة .

٣ — وأوضح ما يبدو لنا فى الحب أنه عاطفة ثابتة مستقرة لا تعصف بها التزوات وهو على حد التعبير السيكولوجى « نظام مرتب من الاتفعالات الصادرة عن دوافع حيوية فيه استقرار وفيه ثبات وفيه ضبط للنفس » أما الذى يدعى الحب

ولا يقيم عليه ولا يثبت فيه فأحد اثنين محب لم تكتمل عاطفة الحب في نفسه بعد فهي قلقة كالريشة في مهب الريح أو طائش ليس في نفسه الاستعداد للحب وإنما هي نزوات الغريزة تنزوبه فيحسبها حباً وما هي بالحـب .

هذا ولست أنكر أن هذه قيود ثقيلة قد تسخر منها نفوس القرن العشرين ولكنها ليست لحسن الحظ من صنع المثالية الفلسفية في القرون الأولى وإنما هي نتائج لأبحاث ودراسات علمية معاصرة ولو كانت من عند غير العلم لوجدوا فيها اختلافاً كثيراً .

وهناك سؤال جدير بالتأمل خـلق بالتفكير أطرحه ولا أُلزم تقسي الإجابة عليه فقد جهد الباحثون في الحب في الكشف عنه فما استطاعوا أن يأتوا بما ينفع الغليل . ذلك السؤال هو . لماذا يختص الحب بحبه هذا دون ذاك من الناس ؟ لقد شغل هذا السؤال أفلاطون فماذا فعل . إنه لم يجيء بغير خرافته المشهورة عن شعار الأجسام وتقسيم الأرواح . وحاول الذين كتبوا عن الحب بالعربية أن يردوا الأمر إلى المشاكسة في الطبائع والمناسبة في الخلائق^(١) فما شفوا في النفس غلة ولا بلوا فيها أواماً .

وهو سؤال لا أظن العلم الحديث يملك أن يجيب عليه ذلك العلم الذي لا يزال تشهد تعثره في البحث عن النفس الإنسانية لذا رأينا تعرض عن هذا المشكل ويتجاهله ولا ينبه إليه .

وسلمنا هذا إلى الكلام في الجمال وهل يكون السبب للحب . وقد تعرض له كثير ممن كتبوا في الحب وكادوا يجمعون على أنه ليس السبب الأول ولكنه يمكن أن يكون واحداً من أسباب عديدة تؤدي إلى الحب وتهيء النفس إليه . وقد عقد ستندال في كتابه عن الحب فصلاً جعل عنوانه « الحب ينزل بالجمال عن عرشه »^(٢) وعد فيه أحوالاً كثيرة شهدها أو سمع بها تؤيد ماذهب إليه من أن الحب لا يتعلق بالجمال ولا يتوقف عليه .

ومهما يكن من شيء فالجمال شيء ترتاح إليه النفس وتطمئن وتستسلم وفي غمرة الإعجاب والاستسلام لسلطانه تستولى قوى الحب الأخرى التي تجهل بعضها فتدخل النفس عنوة ، فهو طليعتها يهد لها ويسر أمرها أو هو المثير الذي يوقف في النفس الاستعداد لتلقى الحب .

(١) يراجع في ذلك مثل « مصارع العشاق » و « روضة المحبين » و « تزيين الأسواق » وغيرها .

(٢) Stendhal : On Love, p 44—45 « Beauty is dethroned by love »

الفصل الثاني

أصناف الحب

معلوم أن العواطف الإنسانية تتحد في أصولها وفي مبعثها وفي جوهرها
ولسكنها بعد ذلك تختلف في أشكالها وفي مظاهرها تبعاً لاختلاف النفوس
في الاستعداد وفي غلبة بعض القوى النفسية على بعض .
وعاطفة الحب ككل العواطف إذن يختلف مظهرها باختلاف النفوس . والنفس
تخضع لعاملين طبيعيين : الوراثة والبيئة فباختلاف الوراثة يختلف شكل العاطفة
وبتغير البيئة يتغير مظهرها .

١

X والعربية حافلة بأسماء للعلاقة بين المتحابين حتى لقد بلغ بعضهم بها إلى الستين^(١)
وكلها مراتب لهذه العلاقة أو أصناف أكثر ورودها في الأدب العربي وانبثت
في شعره ونثره وفيها ما هو صفة من صفات الحب أو حال من أحوال المحب .
X وقد عقد أبو منصور الثعالبي في كتابه « فقه اللغة » فصلاً في ترتيب الحب
وتفصيله قال فيه :

« أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب ثم السكف
وهو شدة الحب ثم العشق وهو اسم لما فضل عن القدار الذي اسمه الحب
ثم الشغف وهو إحراق القلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج
ثم الشغف وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه ، ثم التميم وهو أن
يستعبده الحب . . . ومنه رجل متميم ثم التبيل وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل
متبول ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى ومنه رجل مدله ثم الهيوم وهو
أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم^(٢) . »

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية — ط دمشق ص ١٨ .

(٢) فقه اللغة للثعالبي ص ١١٦ .

وقد أفاضوا في الكلام على اشتقاق الحب وأسمائه المختلفة وما تحمل من معان مختلفة إفاضة لا نرى داعياً للخوض فيها^(١). ووضعوا لكل اسم من أسماء الحب حدوداً تحده ومعلم تميزه عن الأسماء الأخرى. وصنف بعضهم المحبة صنفين محبة غرضية وهي التي يبتغى المحب من ورائها ما يسد في نفسه حاجة وهذه لا تنقيد بالمشاكلة والمناسبة بين الروحين، ومحبة روحانية لا بد فيها من المناسبة والاتفاق بين الروحين^(٢).

٢

وقد عرض ستندال Stendhal وهو فرنسي من القرن التاسع عشر لتصنيف الحب فجعله أربعة أصناف :

- | | |
|--------------------------|------------------------------|
| Passion Love | (١) الحب العاطفي . |
| Sympathy Love | (٢) الحب الاستلطافي . |
| Sensual Love | (٣) الحب الحسي . |
| Vaniy Love <i>Vanity</i> | (٤) الحب العايب أو السكالي . |

فأما الصنف الأول فهو الحب الذي يمتاز بالقوة والعنف وشدة التعلق ويقترن بالشوق الشديد الجارف .

وأما الثاني فلا يعدو أن يكون ألفة وصدقة قوامها خفة الظل والقرب من النفس .

والصنف الثالث هو الاشتهاء الجنسي وهو لا يستحق أن يضاف إلى الحب ، إنما هو ضرب من الايثار الجنسي لشخص دون غيره .

والصنف الرابع ضرب من الترف هو كما يقول فيه ستندال ولع الرجل بامرأة جميلة كما يولع بالفرس الجميلة على اعتبارها شيئاً لا بد منه للشباب المترف^(٣).

٣

✕✕ ونحن إذا نظرنا في أدب العصر الإسلامي الأول وجدنا فيه صورتين من صور الحب وصنفين من أصناف المحبين ، أحدهما ذلك الذي يتمثل في بعض شباب المدن

(١) راجع في ذلك كتاب « روضة المحبين » .

(٢) روضة المحبين ص ٨٨ .

(٣) Stendhal : on Love .

في الحجاز ممن أوتوا بسطة في الرزق ورفعة في المكانة الاجتماعية ورقة في الدين . وقسطاً وفيراً من الفراغ ، يعيش في خفض من العيش يغشى مجالس السمر والغناء ، ولا يتخرج عن اللهو الحرام ، وإلى جانبهم شباب البادية القريبة نفوسهم من الفطرة ، النقية قلوبهم من أدران الدنية ، هؤلاء كانوا أدنى إلى التأثر بالإسلام والانضواء تحت لوائه ، وذلك بالإضافة إلى تقاليد القبائل التي تأخذهم بالتزام العفة وتمنعهم من التطلع إلى هتك الحرمات . وفريق من شباب المدن ^(١) اشتغل برواية الحديث ومدارسة القرآن وعلوم الدين فظهرت في بعضهم نزعة في الحب شبيهة بالنزعة البدوية X X

كان على رأس الفئة الأولى عمر بن أبي ربيعة وهو أشهر من أن نجمل ترجمته . أو نعرف به تعريفاً مريعاً . ذلك الفتي القرشي المخزومي الثري الوسيم الذي كان ديدنه السعى وراء النساء ينشدن شعره فيهن ويمارحن ويمازحنه .

وكانت مواسم الحج عنده مواسم لهو وعبث واستهتار تضرب فيها مواعيد اللقاء في البيت الحرام وفي البلد الحرام .

وقد ترك لنا عمر بن أبي ربيعة شعراً كثيراً صور فيه حياته العابثة وقص فيه حوادث غرامه .

ثم خلفه في هذا الصنف من الحب فريق من أبناء مكة والمدينة من قريش والأنصار تغنوا في شعرهم بهذا الحب واشتهر منهم الأحوص بن محمد الأنصاري والعرجي الأموي . أما الطائفة الأخرى فهؤلاء الذين عرفوا بالعفة في الحب وبالغناء فيه والاستغراق في ملكوته . وسنفصل القول فيهم بعد قليل إن شاء الله .

وهكذا نرى أن ابن أبي ربيعة ومن على شاكلة فئة عابثة تغنت في شعرها بالحب الحسى ولم تكن من الحب الحقيقي على شيء .

ولست أول من يخرج عمر بن أبي ربيعة من بين المحبين فقد سبق أن اتهمه في حبه الدكتور زكي مبارك وقال إنه ليس بصديق الحب وعلل ذلك بالأموور الآتية : -

١ - أنه حضري لا بدوي وقلما يصدق للحضرين حب أو تبق لهم صباية ^(٢) .

(١) هذه طائفة من أبناء الصحابة أو أحفادهم وقتت نفسها على حفظ القرآن ورواية الحديث . ووقع بعض أفرادها في الحب .

(٢) حب ابن أبي ربيعة وشعره للدكتور زكي مبارك ص ٤١ .

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعتري تبترد
أكما ينعتني تبصرتني عمر كن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسدا حملته من أجلها وقد نما كان في الناس الحسد

X والحب الصادق يحتاج أيضاً إلى تبادل الإعجاب والاحترام بين المتحابين X
وما أظن أن عمر بن أبي ربيعة كان يحظى من صاحباته بمثل ذلك. يعجب المرأة في
الرجل ثباته واتزانته واحترامه لنفسه ورجل كعمر يودع هذه ليلتي غيرها علناً في
غير إصرار ولا تحفظ ويودع ذلك شعراً تسير به الركبان لا أظن النساء يتخذن
منه أكثر من تسلية يروحن بها عن قوسهن. ليقول من شاء ما شاء في جماله وفي
خفة ظله وفي حلاوة حديثه فإني أقول إنه لم يوهب الرجولة التي تفتن بها النساء
ولم يمنح القلب الكبير الذي يتسع لعاطفة الحب.

وصفوة القول أن عمر بن أبي ربيعة ما كان محباً ولا كان طبعه يقبل الحب،
فمن الخطأ أن يزعم دارس الأدب أن له في الحب مذهباً قائماً بذاته، وفرق بين أن
يكون الرجل غزلاً يحسن أن يفتن النساء بحديثه ويخيلهن بجماله ويعجب هو من
جانبه بهن وتحلو له مجالسهن وبين المحب الذي تدفعه إلى الحب قوة كونية قاهرة
فيو نجم في فلك الحب يدور فيه ويسير وفق نظامه.

أما الشرذمة التي خلقت عمر بن أبي ربيعة فيما يسميه الدكتور طه حسين
« غزل المحققين » فما كانت أقرب منه إلى الحب بل هي أشبه به في بعدها عن الحب
الصادق. تلك شرذمة من الشباب أوتيت سعة من المال ومنحت فضلاً من شباب
وفراغ فراحت تتفنن في اللذة وتفتن في الشهوة ولم يكن يميزها عن غيرها إلا أنها
أوتيت طبعاً شعرياً.

كل هؤلاء قوم كانت اللذة الحسية قوام تعلقهم بمن تغزلوا بهن وما كانت اللذة
الحسية تكون هي الحب.

إلا أن الدكتور طه حسين يرى أن عمر بن أبي ربيعة « لم يكن مغروراً ولا تياهاً
كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكافه، وإنما كان صادق الحب قويه أيضاً ». وهل
أبلغ في الدلالة على غروره وتيهه من زهوه في شعره بأنه فتن فلانة وتيم فلانة.
أما صدق الحب فلعل الدكتور طه يريد به مفهوماً لا يسعنا أن نسلم به،
ذلك أنه لا ينبغي أن يكون الحب الحسي صادقاً وقوياً، ويرى أن عمر كان صادقاً
في حبه الحسي. ومتى كان الحب حسيّاً. إنه حينئذ لا يزيد على الاشتها، ومثل

الرجل فيه كمثل الذي يشتهي لونا من الطعام ويلتذ به ولا تعدو علاقته به حاسة
التذوق والتطعم . كذلك هذا الحب الحسى ، فهو لا يعدو أن يكون علاقة
قوامها الإشتهاء الجنىسى فحسب . وقد عرضنا لمقام الشهوة فى الحب بما فيه الكفاية .
هذا على أننا لا نكاد نعرف بأن ابن أبي ربيعة كان يحب حباً حسياً إذ لا يعقل
أن يكون قد بلغ ممن تحدث عنهن فى شعره ما يبعث فيه الحب الحسى وحتى فى هذه
الحال لا يمكن أن يحب هذا العدد العديد من النساء حباً حسياً .
ثم يقول الدكتور بعد ذلك « كان صمير يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب أبداً
امرأة كما أحبها وأنه لن يسلو عنها مهما تبدل الأحوال وتختلف ظروف الحياة
وكان صادقا فى هذا كله ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هذا حتى يحب امرأة
جديدة حباً ليس له بمثله عهد ^(١) » .

ولست أظن ذلك يصدق على عاطفة الحب المركبة المستقرة الراسخة فى نفس
المحب وقد يصدق على الإعجاب .

ولنتقل بعد ذلك إلى بادية الحجاز حيث يشتهر فيها قوم بكثرة العشاق
وسنسمع هناك بحميل بن عبد الله بن معمر العذرى صاحب بئينة وبعروة
بن حزام العذرى صاحب غفراء وبالمجنون قيس بن الملوح العامرى وليلاه وقيس
ابن ذريح الكنانى ولبناه . هؤلاء فئة عاشت للحب وماتت على الحب ولم يكن
فى حياتها أمر ذو بال غير الحب .

حُبهم هو الحب الذى ينتظم النفس ويستولى على الروح ويخضع لسلطانة العقل
وتذل له الإرادة ؛ ليس من جنس الحب العاثر فما كان هؤلاء بعاثين ولا هو
بالحب الحسى إذن لا التمسوا إخماده بإشباع الشهوة الحسية ولكنه شئ آخر لاهو
هذا ولا ذاك هو صورة صادقة لعاطفة الحب ومثل حال لسموها .

الباب الثاني

الحب العذري

الفصل الأول

ماهيته ومقوماته

١

~~×~~ ~~×~~ الحب العذري ظاهرة اجتماعية جديدة بعض الجدة في حياة العرب ، هو ضرب من الحب الجنسي^(١) تقوم أو امره بين فتى وفتاة يألف أحدهما الآخر في زمن مبكر من عهد الطفولة ، وتبدأ هذه الألفة في البيت ، أو المرعى ، أو الملعب ، أو غير ذلك .

ثم تنمي هذه الألفة كلما تقدمت بهما السن ، حتى إذا بلغ الأليفان الحلم واستيقظ في نفسيهما الليل الجنسي ، وأحسا بحرارة العاطفة تتأجج ، زاد ذلك في ألفة بعضهما لبعض وشعر كل منهما باللذة التي يصيبها من الحديث إلى أليفه والقرب منه .

وهكذا يصبح للنظرة معنى لم يكن لها من قبل ، وللبسمة مدلول ما كانت تدل عليه .

وهنا يدخل في الألفة الأولى عنصر جديد هو إحساس الفتى والفتاة بحاجة كل منهما إلى أليفه ، تلك الحاجة التي يحس بها إحساساً مبهما لا يهتدي إلى اكتناهاه فيتحول الاستلطاف الأول تعلقاً فيه شيء من القوة غير قليل .

(١) أريد بالحب الجنسي الحب الذي تتصل أسبابه بين الذكر والأنثى وهو الذي يعرف في علم النفس باسم « Sexual Love » تمييزاً له عن الحب الشاذ الذي يكون بين أبناء الجنس الواحد ويسمى : « Homosexual Love »

وكما التقى الأليفان وأخذوا بأطراف الأحاديث وتبادلا النظر والابتسام أحسا
بارتياع وشعرا بسرور تشتد به الألفة وتقوى به العلاقة حتى إذا افترقا تذكر
لذة القرب وتخيلوا متعة الحديث والنظر والابتسام فأحس كل منهما بالشوق إلى
أليفه فإذا اجتمعا أقبل كل على صاحبه إقبال الملّهوف يريد أن ينعم بقربه ويأنس
بالنظر إليه ويستمتع بحديثه .

هكذا يولد الحب وهكذا ينشأ ألفة واستلطاف أشبه ما يكون بالصدقة
ثم تجتمع إليه الحاج النفسية فتزيد أو اصره قوة وكما تقدم الأليفان في مدارج
النضج النفسى قوى الإحساس بحاجة كل منهما إلى أليفه وشعوره بالافتقار إليه
فهو لا يطيق بعده ولا يرتاح إلا بقربه .

ثم يبلغ الفتى مبلغ الرجال فتضطرم في نفسه الحاجة إلى المرأة وتنضج وتبين
وتبلغ الفتاة مبلغ النساء فتثور في نفسها الحاجة إلى الرجل وفي نفس كل منهما
صورة صاحبه لا ينفك يتخيلها ويضفى عليها ما شاء من أسباب الكمال ويتصور
فيها المثل الذى يطمح إليه في حياته التى يسعى إليها فيبدأ التفكير في وسيلة تجمع
بينهما فلا يفرقان وتوحدما فلا ينفصلان ثم لا يلبثان أن يجدا في الصلة الأزلية
المشروعة التى نسميها « الزواج » حلما باسماء يداعب خيالهما ، وأملا حلوا
يطمحان إليه .

٢

بعد هذا أريد أن اخط صورة عامة للحب للعدري ، فلنتبين معالمه ،
ونتأمل خصائصه .

وأول هذه المعالم أنه حب ليس له غاية يسعى إليها حتى إذا بلغها خمد سعيه
وانطلقت جذوته . هو ضرب من ضروب الصداقة البريئة والاستلطاف البعيد
عن الغرض فى مبدأ أمره ~~سيقال~~ وهل للاستلطاف غاية أو غرض . وأجيب
بأنى أزعّم أن ليس للاستلطاف غاية وليس له غرض . اللهم إلا عند أولئك
الذين لا يؤمنون فى الوجود بغير المادة . وهؤلاء لا شأن لنا بهم وبتفسيرهم
الضيق لمظاهر الكون .

ولا تحسبن أنى سأهدم ما بنيت فأوافقهم على ذلك إذا اعترضوا بالزواج ولماذا
يسعى إليه الحبيبان فالزواج ليس فى نظرها محض وسيلة لما يفكر فيه الماديون من

قضاء الحاجة الجسمية وإنما هو قبل ذلك وفوق ذلك الوسيلة الشرعية لاجتماع حبيبين لا طاقة لهما بالافتراق ولا صبر لأحدهما عن الآخر .

ولست أريد أن أقول إن هذا الحب يقطع الحاجة الجسمية فلا يكون له فيها شأن وإنما أزعّم أنها ليست هي كل شيء فيه ، وإنما هي كما قرر علماء النفس عنصر ثانوى فى تكوين العاطفة ، ليس هو الأساس الذى يقوم عليه تركيبها ، ولكنه يدخل فيها بعد تمكن الألفة . ومن هنا وجه امتياز هذا الحب على ما يعرف بالحب الحسى ذلك الذى يبدأ من الشهوة ثم تنضاف إليه بعد ذلك عناصر من الحياة النفسية للإنسان .

ولست أظن أنى أغلو فى دعواى هذه أو اشتط فيها فلقد مر بنا فى الفصل الأول أن بويس جيبسون Boyce Gibson قد أفاض حين تحدث عن عاطفة الحب فى عنصر السرور وميزه بأنه سرور المحب بالمحبيب لذاته لا لأنه يسد فيه حاجة أو يشبع فيه شهوة^(١) .

وقد تحدث عن ذلك من قبله بقرون الإمام أبو حامد الغزالي فقال فى كلامه على أسباب الحب :

« والسبب الثالث أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال من وراء ذاته بل تكون ذاته عين حفظه وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه^(٢) » .

ولعل من نافلة القول أن أخوض فى الكلام على العفة فى الحب العذرى فقد رأينا أنها من ضروراته الأولى بشهادة العلم الحديث وما أظن أن بنا حاجة لتفسير سرور المحب بالمحبيب لذاته لا لغرض يرمى المحب للوصول إليه أو حاجة فى نفسه يروم تطمينها وإشباعها — بأنه العفة .

ومن هنا كان اشتهار الحب العذرى بالعفة وعدم احتفاله باللذة أو تعلقه بالجسد وامتياز المحب العذرى بأنه مثالى لا غاية له فى المحبوب ولا غرض يسعى إليه .

ومن خصائص الحب العذرى أنه توحيد لا إشراك فيه فهو يملأ على المحب نفسه وينتظم أجزائها فلا تلتفت إلا إلى الواحد المشغولة به . وليس الحب الصادق

(١) Love : Psychologically & Ethically in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي — كتاب المحبة — ج ٤ ص ٢٣١ .

لهواً من اللهو أو عبثاً من العبث حتى تسهل فيه النقلة ويطيّب فيه التغير والتحول
وإنما هو عاطفة قوية جبارة تصرف المحب إلى محبوبه وتشغله به عما سواه ~~✗~~
وما أردت بما مر أن أحدد الحب العذري فهو صعب على التحديد صعوبة
الحياة عليه — كما يقول كرولى — ولكنها صورة عامة ابتغيت بها أن أميزه
عما اشتهر بين الناس عادة باسم الحب .

٣

~~✗~~ وقد ظهرت صورة هذا الحب في الأدب العربي أواسط القرن الأول الهجري .
وإذا أردنا أن نكشف عن تاريخه وجدناه وليد التطور الاجتماعي الجديد الذي
أحدثه الإسلام في الحياة العربية ~~✗~~ على أننا لو نظرنا في الأدب الجاهلي لوجدنا
في بعض ثناياه بدوراً لعاطفة الحب وصورة بسيطة من صورته فيها سذاجة وليس
فيها السعة التي نشهداها في الحب العذري ، ولا الأغوار البعيدة التي ينفذ إليها
في النفس والآفاق الواسعة التي ينبسط فيها . وآية ذلك أن عاطفة الحب في الشعر
الجاهلي يعوزها الاستمرار والانسياب . فلا يكاد الشاعر يلم بها حتى يستطرد منها
إلى وصف الناقة التي توصله إلى الحبيبة أو المفازة التي يقطعها من أجل لقائها .
ولعل هذا بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية التي سنفصلها فيما بعد يبيح لنا
أن نرجح ظهور هذا الحب بعد انبثاق فجر الإسلام وتمكنه في قوس العرب .
~~✗~~ نشأ هذا الحب في البادية وما كان خليقاً به أن ينشأ في المدن والحواضر فلقد
كانت المدن والحواضر في إحدى حالين . حال الانشغال بالحكم والسياسة وأمور
الدولة سواء في ذلك تأييد الحكم القائم وتمضيده والامتنال لما يأمر به كما كان
الامر في الشام أو المعارضة له والترصص به والثورة عليه كما كانت الحال في العراق ؛
وحال أخرى اقتضتها السياسة الأموية في الحجاز فقد جهدت أن تقصيه عن
مجال السياسة وأتاحت لأبناء أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من بناء الدين الجديد
والامبراطورية الجديدة حياة من اللهو والعبث بما أغدقت عليهم من طائل
الأموال وما شحنت به بيئاتهم من وسائل اللهو .

~~✗~~ لقد نشأ الحب العذري إذن في البادية وفيها ترعرع وعرفت به قبيلة معينة
وعرف بها ، تلك هي قبيلة عذرة إحدى القبائل التي كانت تقيم في بادية الحجاز ~~✗~~
وعذرة فرع من قضاة نخجدا الذي تنسب إليه عذرة بن سعد هذيم بن زيد
ابن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاة . ثم يختلف النسابون في قضاة أمن

الجنوب هي أم من الشمال وبعبارة أخرى أمن عدنان هي أم من قحطان .
فبعضهم ينسبها في حمير ويزعم أن قضاة هو ابن مالك بن مرة بن زيد بن مالك
ابن حمير بن سبأ . ويروى هؤلاء أن أم قضاة وهي امرأة من سبأ اسمها عكبرة
كانت تحت مالك بن مرة فمات عنها وهي حامل تخلفه عليها معد بن عدنان فولد
قضاة على فراشه .

وهم يستشهدون على هذا بقول الراجز :

يا أيها الداعي ادعنا وأبشر وكن قضاة ولا تنز
قضاة الأثرون خير معشر قضاة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر^(١)

وهم يستشهدون لذلك أيضاً بحديث يرويه عقبة بن عامر الجهني أن قضاة قال :
« يا رسول الله لمن نحن ؟ » قال : « أتم بنو مالك بن حمير » . وقال عمرو بن مرة
وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا أيها الداعي ادعنا وأبشر وكن قضاة ولا تنز
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاة بن مالك بن حمير^(٢)
ومن يذهب هذا للذهب ابن قتيبة^(٣) وابن دريد^(٤) وياقوت^(٥) .

وآخرون يقولون إن قضاة هو ابن معد بن عدنان أخو نزار بن معد لأبيه
وأمه . ويزعمون أن نسبهم إلى حمير (قول أحدثوه بعد وصنعوا شعراً الصقوه
به ليصححوا هذا القول وهو : يا أيها الداعي ... الخ وهذا شيء قيل في آخر أيام
بنو أمية^(٦)) . وهذا مذهب الزبيريين وابن هشام روى من طريق هشام بن
عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قضاة فقال : « هو
ابن معد وكان بكروه » . قال أبو عمرو السهيلي : « وليس دون هشام من يحتج به
في هذا الحديث^(٧) » .

ويشد أزر هذه الفئة نصوص شعرية عديدة منها قول زهير :

قضاة أو أختها مضرية يحرق في حافاتها الخطب الجزل
تجعل قضاة ومضر أخوين^(٨) .

(١) الأغاني — الجزء السابع ص ٧٧ .
(٢) الروض الأثف للسهيلي ص ١٥ .
(٣) كتاب المعارف ص ٣٤ .
(٤) كتاب الاشتقاق ص ٣١٣ .
(٥) معجم البلدان — ج ٣ ص ٣٦٨ .
(٦) أغاني — ج ٧ ص ٧٧ .
(٧) (٨٤٧) الروض الأثف للسهيلي ص ١٥ .

ورجز جميل بن عبد الله بن معمر بالوليد بن عبد الملك فقال :
 أنا جميل في السنام من معد في الأسرة الحصداء والعيص الأشد
 والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغي الأعداء مني ولقد
 أضري بالشم لسانى ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد^(١)
 فهو كما ترى يفخر بانتسابه إلى معد . وهو قد فعل ذلك حين قال :

نحن منعنا يوم أرل نساءنا ويوم أقي والأسنة ترعف
 ويوم ركابا ذى الحداة ووقعة بتينان كانت بعض ما قد تسلفوا
 يحب الغواني البيض ظل لوائنا إذا ما اتانا الصارخ المتلهف
 نسير أمام الناس والناس خلفنا فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
 فأى معد كان فى رماحهم كما قد أفأنا والتفاخر منصف
 وهو يصف حبيبته بثينة فيقول :

ربت فى الروابي من معد وفضلت على المحصنات البيض وهى وليد
 ويبدو أن هذا الخلاف بين النساين كان مرده أن فريقا من قضاة انتسب فى
 حمير بدليل قول السكيت يعاتبهم على ذلك :

علام نزلتم من غير فقر ولا ضراء منزلة الجميل^(٢)

ولعل ذلك كان بعدما جرى بين بنى قضاة من خطلوب وما اشتبكوا فيه
 بينهم من حروب سيأتى القول فيها بعد قليل .

وهكذا يبدو أن نسبتهم إلى معد بن عدنان أرجح وأدنى إلى الصواب^٤
 وكان بنو عذرة يقيمون فى شمال الحجاز مع بطون قضاة بلى وكاب ونهد
 وجبينة وكانت ديارهم وادى القرى وتبوك ممتدة إلى أيلة على البحر الأحمر^(٣) .
 ويذكر أبو عبيد البكرى أن أبناء معد بن عدنان وهم نزار وإياد وعمر
 (قضاة) اقتسموا الأرض أرض شمالى الجزيرة على سبعة أقسام فصار لعمر
 ابن معد بن عدنان وهو قضاة لمساكنهم ومراعى أنعامهم جدة من شاطئ البحر
 وما دونها إلى منتهى ذات عرق إلى حيز الحرم من السهل والجميل^(٤) ثم (سارت

(١) الأغاني — ج ٧ من ٩٣ .

(٢) الروض الأنف من ١٩ .

(٣) مادة عذرة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى من ١٧ .

أسلم بن الحاف وهي عذرة ونهد وحوثكة وجهينة والحارث بن سعد حتى نزلوا الحجر إلى وادي القرى^(١).

وكانوا يجاورون غطفان ويحالفونهم ، فحين أراد النعمان أن يغزو بني حن^(٢) وهم بطن من بني عذرة ، كان النابغة الذبياني عنده فناء من لقائهم ، فلما أباي النعمان ذلك بعث النابغة إلى قومه بني ذبيان — وهم قبيلة من غطفان — يخبرهم بعزم النعمان ويأمرهم أن يقفوا في صف بني حن فلما التقى الجمعان انضم قوم النابغة إلى بني حن فهزموا جيش النعمان . وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان حين لقيته يريد بني حن بيرقة صادر
تجنب بني حن فإن لقاءهم كربه وإن لم تلق إلا بصابر
عظام الليلى أولاد عذرة إنهم لهاميم يستلبونها بالحناجر
هم منعوا وادي القرى من عدوهم بجمع مبير للعدو للكائر
من الطالبات الماء بالقاع تستقي بأعجازها قبل استقاء الحناجر^(٣)

ويبدو أن منازل قضاة ضاقت بها بعد أن تكاثرت فخرج فريق منهم إلى نجد ، وكان أول من فعل ذلك فأصح في صحراء نجد جهينة ونهد وسعد هذيم بنو زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة وكان يقال لهم صحار وفي ذلك يقول زهير بن جناب الكلبي مفتخراً :

فما أبلى بمقتدر عليها ولا حلمي الأصيل بمستعار
ستمنعها الفوارس من بلى وتمنعها فوارس من صحار^(٤)

ولم يطلب لهم المقام في نجد فرجع بنو سعد هذيم وبنو نهد إلى حيث كانوا ، فترلوا وادي القرى والجناد وما ولاهن ثم لحق بهم بنو حوثكة بن سود ابن أسلم بن الحاف بن قضاة وأقاموا بها فكثر عديدهم وانتشروا ، ثم لم يلبثوا أن وقعت بينهم حرب عقد الظفر فيها لبني سعد هذيم بن زيد ، وكان فيهم العدد والقوة والمال ، فأخرجوا نهداً وحوثكة ويطون جرم من ديارهم . وكان على

(١) معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري ص ٢٣ .

(٢) في الأصل جن بالميم المعجمة وهو غلط والصحيح ما أثبتناه ذلك لأن في عذرة بطننا يقال لهم بنو حن وهم رهط جميل وبثنيه — الروض الأنف ص ١٦ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني ضمن مجموعة مطبوعة في بيروت بعنوان خمسة دواوين العرب ص ٤٥ وورد البيتان الأولان في كتاب الاشتقاق ص ٣٢٠ .

(٤) معجم ما استعجم للبكري ص ٣٠ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٦٨ .

رأس بنى ساعد بن زيد رزاح بن ربيعة بن حرام فقال زهير بن جناب السكبي
يعاتبه على فعله ذلك بينى عمومته :

ألا من مبلغ عنى رزاحا فانى قد لحيتك فى اثنتين
لحيتك فى بنى نهد بن زيد كما فرقت بينهم — وبنى
أحوتكة بن أسلم إن قوما عنوكم بالمساء قد عنونى^(١)

ويذكر الهمداني^(٢) أن فريقاً من بنى عذرة كان يقيم فى جنوبى الجزيرة . وما
ندرى أكان يريد بذلك عذرة التى نحن بصدد الحديث عنها أو قبيلة أخرى بهذا
الاسم فقد ذكر أبو جعفر محمد بن حبيب أربع قبائل بهذا الاسم (فى كلب
عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب وفى قضاة أيضاً عذرة بن سعد
ابن زيد بن ليث^(٣) بن أسلم بن الحافى بن قضاة وفى جرم عذرة بن هداد
ابن زيد مناة بن الحجر^(٤)) .

ويذكر القبيلة الأولى أبو بكر بن دريد فيقول : « ومنهم — من قضاة —
بنو زيد اللات قبيل عظيم ومن قبائلهم عذرة بن زيد اللات^(٥) » .

ويذكر ابن السكبي فى جمهرة الأنساب خمس قبائل بهذا الاسم أيضاً^(٦) ولعل
الهمداني يريد بعذرة التى ذكر أنها تقيم فى الجنوب عذرة بن هداد بن زيد مناة
ابن الحجر وهى من الأزد والأزد قبيلة يمانية لاخلاف فى يمانيتها .

واشتهر من رجال عذرة فى الجاهلية هوذة بن عمرو وكان رجلاً شريفاً يقال
له رب الحجاز وقد مدحه النابغة الذبياني^(٧) وكان سيد بنى عذرة وبقيت رئاستها
فى ذريته بعد الإسلام .

وكان لعذرة إلى جانب تحالفها مع غطفان صلات بالقبائل الأخرى المقيمة
بالحجاز كقريش والأوس والخزرج . فقد كان قصي بن كلاب بن مرة جد الرسول
عليه الصلاة والسلام عذرى الخؤولة وكانت أمه عذرية^(٨) وقد ولد فى بنى عذرة

- (١) معجم ما استعجم للبكري ص ٣٠ . (٢) فى كتابه صفح جزيرة العرب .
(٣) هو ليث بن سود بن أسلم . (٤) مختلف القبائل ومؤلفها ص ٣٧ .
(٥) الاشتقاق ص ٣١٥ . (٦) دائرة المعارف الإسلامية .
(٧) كتاب الاشتقاق ص ٣٢٠ .
(٨) كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد — ج ١ ص ٣٣ .

ف قيل له قصي وكان اسمه زيدا^(١) ذلك أن أمه تزوجت بعد موت أبيه كلاب بن مرة بربيعه بن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة فأولدها رزاحا . وكان رزاح مريا من سراة قضاة وأحد اثنين اجتمعت عليهما قضاة . ونشأ قصي في قضاة وترى في بيت ربيعة بن حرام وهو لا يعلم له أبا غيره ، ولما كبر ارتحل إلى قومه فكانت له الرئاسة عليهم فيما بعد^(٢) .

ولما قامت الحرب بين قريش وخزاعة استنجد قصي بأخيه رزاح بن ربيعة فأنجده وأعطاه على طرد خزاعة من مكة فخلقها قريش في سداثة السكبة^(٣) وبذلك يفخر جميل بن عبد الله بن معمر إذ يقول :

ونحن حينما يوم مكة بالقنصا قصيا وأطراف القنصا تنقصف

خططنا بها أكناف مكة بعدما أرادت بهما قد أنى الله خندف^(٤)

وقد نبه شأنهم بعد الإسلام إذ بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام بكتاب في السنة الثانية للهجرة يدعوهم فيه إلى الإسلام^(٥) ولا نعرف عن موقفهم منه ومن دينه شيئا حتى العام الهجري السابع حيث ورد إلى الرسول حمزة بن النعمان بن هوزة سيد بني عذرة بصدقة قومه وكان أول من قدم إليه من أهل الحجاز فاقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رمية سوطه من وادي القرى^(٦) . وفي العام الذي يليه كان بنو عذرة يقاتلون الروم في مؤتة وكان أحد سرااتهم على ميمنة جيش المسلمين في إحدى المواقع (قال ابن إسحق « ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة^(٧)) .

وفي ذلك دليل واضح على أن بني عذرة سبقوا إلى الدخول في الإسلام وسارعوا إلى نصرته واطمأنت قلوبهم إليه وصغت قلوبهم له ، أضف إلى ذلك

(١) الروض الأنف ص ٦ .

(٢) » » ص ٨٤ وهو يذكر تفصيل الخبر .

(٣) » » ص ٨٤ .

(٤) ديوان جميل جمعه فرانتشيسكو جبرائيل ص ٥٠ .

(٥) طبقات ابن سعد — ج ٢ ص ٣٣ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥ .

(٧) سيرة ابن هشام — ط وستفيلد المجلد الثاني ص ٧٩٤ .

علاقتهم بالرسول وبقریش وبالأوس والخزرج^(١) الذين آووا الإسلام ونصروه وجاهدوا في سبيله أصدق الجهاد .

على أن Della vida يقول برغم ذلك إن عذرة لم تدخل الإسلام إلا بعد وفاة الرسول^(٢) عليه الصلاة والسلام ودليله على ذلك أنه لم يجد لها ذكراً في القبائل التي وفد وفودها على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى العام الهجري التاسع .
ألم يكفه أن يتوجه إليه سيدها حمزة بن النعمان بن هوزة بصدقتهما في العام السابع؟ أو لم يكفه أن تحارب الروم في جيش المسلمين ويتولى أحد ساداتها قيادة اليمنة في وقعة مؤتة؟

وضربت عذرة بسهمها في الفتوح الإسلامية فاشتركت في الحملة التي كان يقودها عمرو بن العاص لفتح سورية . وبرز من رجالها خالد بن عرفة حليف بني زهرة فقد ولاه سعد بن أبي وقاص الناس يوم القادسية^(٣) .

وحين فاضت قبائل العرب من جزيرتها وساحت في البلاد المفتوحة أقام فريق من بني عذرة في سورية^(٤) وفي الكوفة^(٥) واستقر فريق منهم في صعيد مصر^(٦) فلم نعد نسمع عن أثرهم في الحياة السياسية الإسلامية شيئاً يذكر .

٤

وفي هذا العصر — عصر الاستقرار السياسي في الإسلام — يشتهر بنو عذرة بشيء لم يعرفوا به من قبل بل لم يعرف به أحد من قبلهم . يشتهرون بالحب القوي الصادق العفيف الذي يملك الروح وينتظم النفس ويسمو على شهوات الجسد ويشيع هذا الحب فيهم ويعرف به حتى يقال للعاشق الثابت على حبه المخلص في وده المتزهد حبه عن شهوة الحس ولذة الجسد إنه « محب عذري » وظل ذلك في الأدب العربي عنوان العفة في الحب والإخلاص له والفناء فيه حتى لقد

(١) كانت أم الأوس والخزرج عذرية وهي قبيلة بنت كاهل التي ينسبون إليها (دائرة المعارف الإسلامية) .

(٢) مادة « عذرة » في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٢٠ .

(٤) الطبري تاريخ الأمم والملوك — ج ٢ ص ١٧٩٢ — ١٨١٨ .

(٥) الأغاني — ج ١٦ ص ٧ و ٣٧ .

(٦) صفة جزيرة العرب للبهمداني ص ١٣٠ وفي مديرية أسيوط الآن بلدة تعرف باسم الحوانكة وحوتكة هو ابن أسلم بن الحاف بن قضاة .

عبر به الصوفية عن حبهم للذات الإلهية دلالة على نقاء هذا الحب وصفائه وسموه عن التعلق بالمادة . وفي ذلك يقول البوصيري وهو من الصوفية المتأخرين :

يلائي في الهوى العذرى معذرة منى إليك ولو أنصفت لم تلم ~~ألم~~
وتخفل كتب الأدب بأخبار بني عذرة وعشاقها وما كانوا يلقون في حبهم
من أهوال وما كان يفعل بهم الحب من مأس . يروي أبو جعفر السراج بسنده
عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه سمع رجلاً من بني عذرة عند عروة بن الزبير
يحدثه فقال عروة : « يا هذا بحق أقول إنكم أرق الناس قلوباً » فقال : « نعم والله
لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم النسل وما بهم داء إلا الحب ^(١) » .

وتكاد كتب الأدب والأخبار تجمع على اشتهاار بني عذرة بالرفقة والدمانة
والجمال ^(٢) وهذه إذا اجتمعت إليها الحصانة التي حاطهم بها الإسلام والعفة التي
تقتضيها تقاليد القبائل العربية نتجت حباً كهذا الحب القوي العفيف ، الذي يسمو
عن التعلق بالجسد ، ويعلو عن أن يكون مظهرًا من مظاهر الاشتهااء الجفسي . ولقد
كانت تلك حجتهم على من كان يعيب عليهم هذا الاندفاع في الحب وهذا
الاستسلام لسلطانته ~~السلطان~~ .

يقول ابن خلكان : « قيل لأعرابي من العذريين ما بال قلوبكم كأنها قلوب
طير تنيمات كما ينيمات الملح في الماء أما تتجلدون . فقال إننا ننظر إلى محاجر أعين
لا ننظرون إليها ^(٣) » . وقيل لآخر : « ممن أنت ؟ » فقال : « أنا من قوم إذا أحبوا
ماتوا » فقالت جارية سمعته : « هذا عذري ورب السكبة ^(٤) » .

هذا بعض ما في كتب الأدب مما يدل على اشتهاار عذرة بالرفقة وبكثرة
الجمال فيها ؛ والجمال من جانبها يهذب الذوق ويشقف الشاعر ويسمو بالعواطف
وهو كما أسلفت في نهاية الفصل الأول طليعة الحب يمهد له ويفتح أبواب النفس
قدامه فيدخلها عنوة ويستقر فيها بلا مقاومة من جانبها ودون عناء من جانبها .

ولقد أشرت في الكلام على تاريخ عذرة إلى أنها سبقت للدخول في الإسلام
وكان سيدها حمزة بن النعمان بن هوزة أول من ورد على الرسول صلى الله عليه

(١) مصارع العشاق لأبي جعفر السراج ص ٢٠ .

(٢) راجع الشعر والشعراء ص ١٠٠ وابن خلكان ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٣ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٠٣ .

وسلم من أهل الحجاز ودل تاريخها فيما بعد على أنها استجابت للدعوة الإسلامية واطمأنت بها نفساً وتلك حقيقة كان لها أكبر الأثر فيما اشتهرت به من الحب العفيف كما سيأتى تفصيل ذلك فى الفصل الآتى إن شاء الله .

ولم يقتصر هذا الحب العذرى على قبيلة عذرة بل لقد وجد فى قبائل أخرى غيرها عشاق من هذا الطراز منهم المجنون قيس بن الملوح العامرى وهو من بنى عامر بن صعصعة وقيس بن ذريح صاحب لبنى وهو من كنانة بن خزيمة . وعرف بمثل ذلك كثير بن عبد الرحمن الخزاعى صاحب عزة وتوبة بن الحمير الخفاجى صاحب ليلي الأخيلية .

وشاء بعض رواة الأخبار أن يجعل هذا الحب القوى الجارف مقصوراً على اليمانية دون غيرها وحاول أن يبرىء منه النزارية . يروى أبو الفرج الأصبهاني بسنده عن ابن دأب قال : « قلت لرجل من بنى عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ » قال : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار اليمانيين لأنهم لكثير . فقلت ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق . فقال هيئات ! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذلك إنما يكون هذا فى اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها الصلعة رؤوسها فأما نزار فلا^(١) .

ومهما تكن قيمة هذا الكلام من الوجهة الموضوعية فهو كذلك لا قيمة له من الوجهة التاريخية إذ لو جاز له أن ينقو وجود المجنون كما فعل من بعده الدكتور طه حسين^(٢) فبولا يستطيع أن يشك فى وجود قيس بن ذريح السكناني أو غيره ممن اشتهر بالعشق من غير بنى عذرة .

على أن فى قالة هذا العامرى تلميحاً إلى أن بنى عذرة قوم يمانون وهو ما لم يرجح .

(١) الأغاني ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) فى كتابه حديث الأربعة ج ١ ص ٢١٩ .

الفصل الثاني

الحب العذري

كيف نشأ ولماذا؟

قلت فيما سبق إن الحب العذري نبت في الحجاز حيث كان يقيم بنو عذرة الذين عرفوا به وعرف بهم ، والراجح أنه نشأ بعد الاسلام حيث تهيأت له أسباب النشوء بعد أن استقر المسلمون في امبراطوريتهم التي فتحوها فيما يزيد على نصف قرن بقليل . فانصرفوا إلى حياة الهدوء والاستقرار وانتظمت حياتهم بعد أن كان الفتح وإقرار النظام الجديد شغلبها الشاغل .

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر وانقسم الناس فئات انصرف بعضها إلى السياسة يمكن للحكم القائم ويشد ازره وأخرى تناوئه وتعارضه وتتربص به الدوائر كما كانت الحال في الشام والعراق . وفريق انقطعت به أسباب الحياة السياسية فقبع في الحجاز يشتغل بلبوه ولعبه أو ينطوى على نفسه وينحصر في محيطه الضيق حيث ينقطع في صحرائه إلى عيشة قوامها التأمل والانكباب على النفس لا هو فيها لأن اللهو الحرام لا يمكن أن يلج أبوابها ولا قيان ولا خمور .

١

أما سبب نشأته فالأستاذ لوبي ماسينيون يرى أنه مقتبس من الحب الافلاطوني عند اليونان ومشتق منه^(١) .

ونحن إذا علمنا أن هذا الحب ظهر في منتصف القرن الأول للهجرة على وجه التقريب أدركنا أن العرب لم يكونوا آثمد على علم بفلسفة اليونان وأدبهم بله أن يتمنوا ذلك فتتأثر به حياتهم العاطفية .

ولو فرضنا أنهم عرفوا شيئاً من ذلك — في هذا العصر — وهذا فرض لا يجوز من الوجهة التاريخية — لكان لنا من ظهور هذا الحب في البادية ونشأته

(١) مادة « عذري » في دائرة المعارف الإسلامية .

فيها ما يجعلنا نستبعد مثل هذا الرأي . ذلك لأن البادية يبعد أن تتأثر بالحياة العقلية التي تسود في الحواضر ولا يتأتى لها أن تتابعها في مضمار العلم والمعرفة بسهولة ويسر .

على أن العواطف الإنسانية أعسر على التطور والتأثر بالجديد من العقل فهي أبطأ منه وأصعب على التبدل .

ونحن اذا علمنا أن العواطف تكوين نفسي معقد ينطبع بطابع الجنس والوراثة والبيئة أدركنا أنها أصدق ما يميز قوما عن قوم ، وتفترق به بعض الأمم عن بعض .

والحب العذري بعد ذلك ظاهرة اجتماعية عبر عنها الشعر العربي تعبيراً أدبياً ~~والشعر لا~~ لا يحتمل الأفكار الفلسفية ولا يسهل عليه أن يحتويها وبخاصة الشعر العربي في هذا العصر الذي نحن بصددده . على أنه قد لا يضيق بالتأملات العابرة التي يخرج منها الشاعر بفكرة تشبه أن تكون فلسفية ولكنها على أية حال ليست من الفلسفة في شيء فللفلسفة أداتها من الفكر والتعقل والتأمل العميق . والشعر لا يخضع لذلك ولا يلزم به نفسه ولا يناسب ذلك طبيعته ؛ فهو وحي الخاطر واستجابة الوجدان لما يستثيره .

وقد يقع الباحث في شعر العذريين على مثل هذه الأبيات التي تنسب لجميل بثينة :
تعلق روحى روحيا قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتمقض العهد
ولكنه باق على كل حالة وزاثرنا في ظلمة القبر واللحد
وفيها إشارة الى الفكرة الأفلاطونية في الحب ، تلك التي تقول بأن الحب أداة للجمع بين روحين من جوهر واحد^(١) كانا كذلك من قبل أن يهبطا الى عالم الأجساد .

(٢) ولو صحت نسبة هذه الأبيات لجميل^(١) — وفي نسبتها اليه شك أى شك — فليس يبعد على الشاعر أن يصل في تأمله واستغراقه الى مثل ذلك ، فقائل الأبيات عاشق متميم ملك الحب عليه نفسه فهو يتأمل في هذه القوة القوية ويحار كيف تغلبه على أمره ، ويحاول أن يفسر ذلك فيدركه العجز ، ويخذه الواقع فيفر الى الغيب وما وراء الطبيعة ؛ فيوحى اليه بمثل هذه الفكرة .

(١) هذه هي الفكرة الأفلاطونية في الحب كما يعبر عنها أهل الفلسفة من المسلمين .

(٢) تروى هذه الأبيات لقيس بن ذريح في الأغاني ج ٨ بين ص ١٠٧ — ١٢٤ وتروى لغيره .

على أن التشابه في الأفكار والظواهر الأدبية والفكرية لا يجوز أن يكون هو الفيصل في اقتباس بعضها من بعض إلا بعد أن يتأكد لدى الباحث طريق وصول السابقة إلى القائل باللاحقة ، وإلا فليس ببعيد على الآخر أن يصل إلى ما وصل إليه الأول مادام لديه الاستعداد الطبيعي الذي يؤهله لأن يفكر كما فكر من قبله ، ويتأمل مثل تأمله ، ويشعر بما حوله كما شعر سلفه بما حوله .

وكل هذه فروض لا يؤيدها الواقع ولا تتعلق منه بسبب الحب العذري ^(١) فكرة شعرية — إذا صح هذا التعبير — تصدر عن عاطفة عميقة قوية ، ففيها الألم من برحاء الوجد واللذة بالوصل ، والقلق للبعد ، والسرور بالقرب ، وما إلى ذلك . أما الحب الأفلاطوني ففكرة فلسفية تقوم على أساس من خرافات اليونان وأساطير آلهتهم التي لا يجمعها بالنفس الإسلامية جامع ، ولا يسيغها ذوق الموحد الذي اتخذ الإسلام ديناً الذي اتخذ الإسلام ديناً

والواقع أن الحب الأفلاطوني حب شاذ Homosexual وليس هو بالحب الجنسي ، إذ أن مما يمتاز به الحب السماوي عند أفلاطون أن لا تكون المرأة موضوعه ولا غاية ، وإنما هو حب الذكور للذكور .

وقد كان القوم في عهد أفلاطون ينظرون إلى علاقة الرجل بالمرأة نظرة مادية صرفاً لا تزيد على قضاء الحاجة الجسمية ، ولا تفرق عن غيرها من حاج الجسم كالطعام والشراب ^(٢) .

وينحصر التشابه بين الفكرتين فكرة الحب العذري والحب الأفلاطوني في سمو العاطفة وتعلقها بالروح دون الجسد ، وتعالها عن الشهوة الوضيعة ، وهذا فيما أظن أمر لا يحتاج العرب فيه إلى الأخذ عن اليونان أو التأثر بفلسفتهم ، بل لقد أحدث ذلك فيهم مؤثرات داخلية دينية واجتماعية ، سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

ونحن إذا احتكنا إلى التاريخ وجدنا أن العرب لم يعرفوا فلسفة اليونان وأدبهم إلا في العصر العباسي أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع حيث قامت حركة الترجمة في ظل الخليفة المأمون وبريائه وتشجيعه أي بعد أن عرف هذا الحب في الأدب العربي واشتهر أمره بقرنين أوزيريد ، وكتاب أفلاطون في الحب وهو المعروف بكتاب الوليمة أو المائدة « Symposium » أو « Banquet » لم يعرف

(١) Greek Love in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

إن كان قد عرف إلا في هذا العصر^(١) وهو حري أن يلتبس أثره في إقرار فكرة الحب وتلوينها باللون الفلسفي عند من كتب فيها كأبي بكر محمد بن داود الظاهري صاحب كتاب الزهرة وكأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم صاحب الرسالة المعروفة بطوق الحمامة في الألفة والألاف.

٢

وأما الأستاذ الدكتور طه حسين فيعزو نشأته إلى عوامل اجتماعية جديدة طرأت على المجتمع الاسلامي في الحجاز. وتفصيل ذلك أن أهل الحجاز قد حيل بينهم وبين جد الأمور وصرفهم بنو أمية عن الاشتغال بالسياسة. وكان أهل الحجاز فريقين : — أهل المدن من أبناء الصحابة الذين قام على أكتافهم البنيان الجديد للدولة الاسلامية، وكان اشتغالهم بالسياسة خطراً على الدولة يعرفه الأمويون حق المعرفة. فقد كان كثير منهم يمتنى النفس باسترجاع السلطان واسترداد الحق الذي غصبه بنو أمية وهم ليسوا أسبق منهم إلى الاسلام ولا أولى منهم بميراث الرسول وخلفائه. فجهد بنو أمية أن يصرفوهم عن التفكير في السياسة والتطلع إلى الحكم؛ فأغدقوا عليهم من الأموال ماشاءوا وشحنوا مكة والمدينة بطائفة كبيرة من المغنين والمخنثين والقيان ودور اللهو والشراب فانصرف القوم أو كثير منهم إلى اللهو حيث تيسرت لهم أسبابه من اليأس والفراغ والسعة فأخرج لنا ذلك مثل صهر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي، أزيار نساء لا يبالون بالدين ولا يرعون الحرمات، ينشدون اللذة والمتعة ويتفرغون لها. والفريق الآخر أهل البادية الذين اجتمع لهم مع اليأس الفقر وضيق ذات اليد فانصرفوا إلى التفكير في المثل الأعلى ونشأت فيهم نزعة شبيهة بالتصوف والانصراف إلى المثل الأعلى في الحياة الخلقية. يقول الدكتور طه حسين :

« كان أهل مكة والمدينة يأسين ولسكنهم كانوا أغنياء فلهوا كما يلهو كل يأس، وكان أهل البادية الحجازية يأسين ولسكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة فنشأ في

(١) يظن أن هذا الكتاب هو الذي عناه ابن النديم — في كلامه على كتب الكندي النفسية برسلته في خبر اجتماع الفلاسفة على رموز عشقية (التهرست من ٢٥٩ ط فلوجل) وقد أشار إلى ذلك الأستاذ ماسينيون في كتابه مجموعة نصوص لم تنشر عن التصوف الإسلامي :

تقومهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص وليس بالبدوي الخالص ولكن فيه سداجة بدوية وفيه رقة إسلامية . وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب هوم الجاهلي كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ولكنها نعمة زهد وتصوف ، وأنا أعلم أن لفظ التصوف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية .

« وظهر هذا الزهد وهذا الميل إلى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافا شديدا أحدهما الزهد الديني الخالص . . . والثاني هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى^(١) . »

وليس من اليسير على الباحث أن يوافق على أن الفقر واليأس يصرفان إلى التفكير بالمثل الأعلى وينتجان مثل هذا الحب الذي عبر عنه القوم في غزلهم العفيف ولعل الأولى بالفقير المحتاج أن يثور على المجتمع الذي حرمه ما أباح للآخرين وأن يفكر في مخرج يلوذ به من فقره ومن حاجته .

وإذا قال قائل إن الثورة على المجتمع لجوره في توزيع الثروة لا تصدر إلا ممن يدرك ذلك إدراكا واضحاً وإدراك ذلك عن هؤلاء الأعراب بعيد فالجواب على ذلك أن إدراك ذلك أيسر عليهم من إدراك المثل الأعلى في الحياة الخلقية إذ إن حاجة الجسم إلى الطعام والشراب والملبس أبلغ بلا ريب من حاجة الروح إلى المثل الأعلى .

وقد كان الجاحظ على حق حين قال :

« ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب . أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن في الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر ونفاذ النهي وملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل في الحب والاحترق في العشق^(٢) . »

وأما أن أهل البادية قد حيل بينهم وبين هوم الجاهلي فصرفهم ذلك إلى هذا الحب العفيف فينتفيه أنا لا نعرف من الذي حال بينهم وبين هوم الجاهلي . أهى

(١) حديث الأربعاء — الجزء الأول ص : ٢٣٧ .

(٢) رسائل الجاحظ — الرسالة السابعة « في العشق والنساء » — ص : ١٦٦ .

السلطة الحاكمة . إذن فكيف يجوز لها أن تفعل ذلك حين أباحت لأهل الحرمين وغيرهم من أهل المدن ما أباحت من صنوف اللهو بل يسرت لهم سبيل العكوف عليه وأتاحت لهم الانصراف إليه .

ولست أظن أن السلطة الحاكمة تفعل ذلك في الأعراب وهم مصدر من مصادر الشغب وإثارة الفتنة لا يسمها أن تتناساه أو تغفل عن خطره .

على أن في حديث الدكتور لمحة قيمة مر بها مرأً سريعاً فلم يفض فيها ، تلك هي أثر الإسلام في نفوس هؤلاء القوم وأثر القرآن بصفة خاصة وما أحدثه في الحياة الاجتماعية عند العرب من تبدل .

ويبدو أن دراسة العواطف في الأدب أصبحت في حاجة بالغة إلى الاستعانة على فهمها بما كشفه العلم الحديث من الحقائق التي تتصل بدراسة الحياة النفسية للإنسان ، ومنها الاتصالات والمشاعر والعواطف التي تضطرم في نفس الأديب فيعبر عنها في شعره أوثره وما وصل إليه هذا العلم مما يعين على فهم الظواهر الاجتماعية التي يرن صداها في الأدب وتتجلى صورتها فيه .

٣

X والحب العذري مثل طال لعاطفة الحب ، وصورة من صور تساميا وعاطفة الحب تحتاج في تكوينها إلى نظام اجتماعي يصون المجتمع من الفوضى ، ويحيط الفرد بما يحفظ عليه إنسانيته ، والحب لذلك لا وجود له في المجتمع البدائي . وهناك كثير من اللغات ليس للحب فيها لفظ يدل عليه ^(١) . وتطور الحب عن الشهوة يحتاج إلى مراحل لم يقطع منها البدائيون إلا شوطاً يسيراً ^(٢) ، فالحب إذن لا يمكن أن ينشأ إلا مستنداً بظل من المدينة التي تنظم فيها الفرائز وتهذب الدوافع ^(٣) ولا شك أن المجتمع العربي حتى قبل ظهور الإسلام لم يكن مجتمعاً بدائياً ولا قريباً من البدائي ، بل المظنون أنه وارث حضارة غابرة لا نكاد نعرف عنها وعن طبيعتها ما يشفي الغليل ، وليست الجاهلية المعروفة - في الراجع - إلا فترة خمود وتفسخ ، سبقها عصر حضارة كانت تدفع العرب بقوة الاستمرار في الحياة المدنية .

Have lock Ellis : Psychology of sex, p:277. (١)

نفس المرجع - p:276 (٢)

Impulses. (٣)

ومن الحق أن نلاحظ أن علاقة الرجل الجاهلي بالمرأة لم تكن علاقة مادية (فسيولوجية) محضاً ، بل لقد كانت المرأة عند العرب في الجاهلية مصدر إلهام شعري يدل على أن عاطفة الحب قد قطعت في تطورها شوطاً غير قليل ، وما نسيب زهير وعنترة وليبد وغزل امرئ القيس عنا ببعيد .

كما أن من العسير على الباحث أن يقول إن المجتمع الجاهلي قد كان فيه من القيود التي تحول دون الفوضى الجنسية شيء كثير ، اللهم إلا تقاليد القبائل المعروفة من اعتزازهم بالأنساب ، الذي جعلهم يغارون على النساء ويفخرون بحمايتهن والحفاظ عليهن .

يستطيع الباحث إذن أن يطمئن إلى وجود عاطفة الحب عند العرب قبل الإسلام ، وأن بذورها نبتت في المجتمع العربي ، ولكنها كانت في انتظار النظام الاجتماعي الذي يعينها على النماء ويدفعها إلى التكامل ، وقد وجدت ذلك في النظام الاجتماعي الجديد الذي جاء به الإسلام .

لقد جاء الإسلام بدستور اجتماعي وضع للعلائق بين الرجل والمرأة نظاماً محكم الأطراف ، متين القواعد ، فلم يعترف إلا بالعلاقة المشروعة التي تسمى الزواج وحرّم الزنا وفرض على مرتكبه عقوبة رادعة ، فأوصد بذلك طرق التنفيس غير المشروعة عن الغريزة ، وصان المجتمع من التخبط في الفوضى الجنسية التي تهبط بأفراده إلى حضيض البهائم .

وما إخالني في حاجة إلى الاستشهاد بالنصوص القرآنية المتعلقة بذلك ، فهي أشهر من أن تحتاج إلى إيرادها .

وتنظيم العلاقات الجنسية يؤدي من غير شك إلى إعلاء الغريزة ويدفع إلى تسامحها ويعين على تسكون عاطفة الحب .

ويفعل هذا التنظيم للعلاقات الجنسية فعلاً آخر في نفس الرجل وهو الجانب الإيجابي في هذه العلاقات فيشعره بأن المرأة شيء ذو قيمة لا بد له أن يسعى إليه ليحظى به ، وأن يحمل نفسه بما يجذبها إليه . ولم يقف عمل الإسلام لإعلاء العاطفة عند هذا الحد ، بل لقد أعان على ذلك بأن أقام المرأة في المجتمع مقاماً محموداً ، فأقر لها بمكانها اللائق بها في المجتمع وجعلها شريكة الرجل في حياته لها حقوق وعليها الواجبات ، وممكن لتبادل الشعور ونجاب العواطف بين الرجل والمرأة « وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها » ، « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

ليست المرأة إذن متاعاً يستمتع به الرجل ، وليست هذه الغريزة إلا وسيلة لحفظ النوع يستودعها الرجل في المرأة « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » .

وقد أقام الإسلام للعلاقة بين الرجل والمرأة نظاماً فصل فيه الحقوق والواجبات ، وشواهد ذلك كثيرة مبثوثة في ثنايا القرآن وبخاصة في سورتي البقرة والنساء .

وصفوة القول أن الإسلام قد استحدث بنظامه الاجتماعى الجديد أمرين : أولهما أنه نظم العلاقات الجنسية فأطان بذلك على إعلاء الغريزة . والثانى أنه رفع مكانة المرأة في المجتمع فما عادت أداة لإشباع الشهوة وتطمين الغريزة .

وهذان هما القاعدة الاجتماعية الأولى التى يقوم عليها الحب . ولعل من المفيد فى هذا المقام أن نذكر ما قال به فرويد من أن الحب فى رأيه انحراف perversion عن الغاية الجنسية يفرضه عمر الوصول إلى الموضوع الجنسى ^(١) وذلك لا يكون إلا بالقيود الاجتماعية التى تحول دون وقوع المجتمع فى الفوضى . وهو قد أشار إلى ضرورة أخرى لا بد منها لعاطفة الحب تلك هى ما يسميه إكبار الموضوع الجنسى ^(٢) .

وفى مثل ذلك يفيض الأستاذ مكندوجل فيتحدث عن تقويم المرأة وإكبارها واحترامها كضرورة اجتماعية لقيام العلاقة بين الجنسين على أساس الحب ^(٣) أضف إلى ذلك أن الإسلام قد أمر بالعفة و« غرض البصر عن المحارم » قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله عليم بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن... الخ الآية . « وليدتعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » . وندب إلى الحياء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمالة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » ^(٤) .

Trois Essais sur la Theorie de la sexualite — objet sexuel. (١)

Surestimation de l'objet sexuel. (٢)

Introduction to Social Psychology, pp 365 — 366. (٣)

(٤) رواه البخارى ومسلم . وروى أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : « الحياء خير كله » . الحياء لا يأتي إلا بخير » وغير ذلك .

ونحن إذا رجعنا إلى البيئة التي نشأ فيها هذا الحب وجدنا قوماً سبقوا إلى الدخول في الإسلام وأبلوا في نصرته بلاء حسناً فالتحذت العقيدة الجديدة في نفوسهم مكاناً مكيناً، ومعقلاً حصيناً، ولا غرو أن يكون تأثيرهم بالنظام الاجتماعي الذي جاء به وندب إليه رهنًا باستجابتهم للعقيدة ومساعدتهم إلى الإيمان بها.

تلك أمور يشاركون فيها كثير ممن آمن بالإسلام واطمأنت به نفسه وصفى صفاتها له قلبه، ولكنهم كانوا يمتازون باستعداد لنشوء هذه العاطفة بينهم وشيوعها فيهم ذلك ما يكاد يجمع عليه المؤرخون من اشتهاً بنى عذرة بالرفقة والدمائة وكثرة الجمال، وتلك ظروف تهىء للحب وتيسر سبيله.

وثمة أوضاع اجتماعية تمتاز بها القبائل وما يشاكلها من المجتمعات المحصورة في نطاق ضيق منها حرص أفراد القبيلة على شرفها واعتزازهم بتقاليدها هذا الحرص وذلك الاعتزاز يدعوان الأفراد إلى التزام العفة وصون المحارم، فإذا فرط أحدهم في ذلك فاستباح مصوناً أو هتك حرمة، عاد على نفسه بالعار والشنار كما عاد بذلك على من هتك حرمة.

أما إيمانهم في الحب وبلوغهم فيه مبلغاً تقاصرت عنه صور الحب في الأدب العربي في مختلف عصوره فراجع من الوجهة العامة إلى اشتهاً بالرفقة والدمائة وشيوع الجمال فيهم وإلى فراغ شبابهم من مشاغل الحياة والشقاء في كسب العيش والسكد في الحصول على القوت. فيروى المؤرخون أن بنى سعد بن زيد—وعذرة فرع منهم— كانوا في حال من اليسر وخفض من العيش^(١) وبذلك يفتخر شاعرهم جميل بن عبد الله بن معمر صاحب بئنة إذ يقول:

أنا جميل في السنام من معد في الأسرة الحصداء والعيص الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغى الأعداء منى ولقد
الخ

وهو يصف بئنة وأترابها فيقول:

وقالت لأتراب لها لا زعانف قصار ولا كس الثنايا ولا ثعل
إذا حميت شمس النهار اتقيناها باكسية الديباح والخز ذى الخجل
 واجتماع الفراغ والغنى إلى الرفقة والدمائة وشيوع الجمال لا بد أن ينتج حباً
 كهذا الحب الذي اشتهر عن بنى عذرة.

(١) معجم ما استعجم للبكري ص ٣٠.

ومن الناس من يظن أن هذا الحب العذرى حديث خرافة لا سبيل إلى وجودها في الواقع وكثيراً ما يلقي إلى الباحث فيه مثل هذا السؤال . أوجد الحب العذرى وهل يمكن أن يوجد ؟ . وهل تطفئ إلى صورته التي ترونها كتب الأدب ؟

وهؤلاء لو شاءوا أن يستدلوا على الماضى بالحاضر فينظروا في الأحوال الاجتماعية لكثير من القبائل العربية التي تعيش الآن بين أظهرهم لشهدوا فيها صورة قريبة من هذا الحب العذرى .

ذلك حيث ينشأ أبناؤها وبناتها في المراعى أو الحقول فيشاطر الفتيان أعمالهم ويزاملهم فيها ، ثم لا يلبث الشبان أن يألف كل منهم زميلة يستلطفها ويعجب بها ويرتاح إلى صحبتها ويلذ له حديثها ومجلسها فتقوم بينهما علاقة أشبه بالصدقة بين أفراد الجنس الواحد فتراه يؤثرها بالالتفات ويحمل عنها بعض ما يوكل إليها من الأعمال ويغشى بيتها ويصل نفسه بأهلها .

حتى إذا بلغ الفتى مبلغ الرجال أو كاد وبلغت الفتاة مبلغ النساء توثقت بينهما الألفة وقويت بينهما العلاقة فاستحالت حباً تقياً بريئاً يهدف إلى الزواج^(١) ، ولا يدور بخاطر الحبيبين أن يمتكحرا أو يكشفوا ستراً ، ذلك لأن تقاليد القبائل تحكم على الحبيبين اللذين لا يصبران على العفة ويأبيان إلا أن يذنسا الحب ويعبثا بقدميته بالقتل . زد على ذلك أنهما يكونان في كثير من الأحيان قريبين يجمع بينهما النسب الدانى أو البعيد ، والقبيلة بأسرها تحمل وزر الجريمة التي يقترفانها وتوصم بالعار الذي يلحقانه بها . وهكذا يشمر كلاهما أنه مسئول عن سمعة الأسرة وبالتالي عن سمعة القبيلة التي تهون حياة أفرادها بالإضافة إليها .

ويقيمان على هذه الحال لا يصدحان عن الخلوة والحديث والاجتماع مانع من أهل أو عشيرة ، ويغشى الشاب بيت حبيبته فتستقبله أمها بكل اشتياق وتخصه بما لذ من الطعام والمشرب وتخفف له جناح الحنان لا تخشى عيباً ولا تخاف ذماً . ثم إذا تيسر الزواج كان ذلك مسك الختام ، وإلا فما تقرأ في أخبار العشاق من المرض والسهد والوجد والهيام في البرارى ، وكثيراً ما يصاب العاشق بمرض عضال يحار فيه الطبيب ويلتبس أمره على العراف ، وقد يؤدي إلى الموت إن لم يؤدي إلى اجتماع الشمل بين الحبيبين بالزواج .

(١) يعبر عن هذه الحالة عند العرب في العراق فيقال فلان يخطب فلانة .

هذه صورة مجملة لم أصدر فيها عن الخيال ولم أتنبكب فيها عن الواقع وإنما هي وقائع شهدت منها كثرة كثيرة في الريف العراقي ولا أكاد أشك في وجودها بين القبائل العربية في الأقطار الأخرى .

وبعد فالحب العذري ظاهرة اجتماعية جديدة نتجت عن التطور الذي أحدثته الإسلام في تقوس العرب وهي نقطة البدء في تاريخ العواطف في المجتمع الإسلامي. ومهما يكن من أمر هذا التطور وشموله واتساعه فهو برغم ذلك لم يكن له قبل بتبديل الطبع البشري أو تغيير فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأعني أن هذا الانقلاب الاجتماعي شأن غيره من الانقلابات الاجتماعية قد كان أثره رهناً باستجابة الناس للدين الذي أحدثه وبذر بذوره .

وليس هذا الذي ذهبت إليه من أثر الإسلام في نشأة الحب العذري بدءاً من الرأي فقد وقع بيدي بعد كتابة هذا الفصل كتاب في دراسة الحب عند الأفرنج^(١) .

يتحدث المؤلف عن نشأة الحب الرومانسي^(٢) فيستعرض تاريخ الحب في أوروبا ويعترف أن الحب كعاطفة لم يوجد عند اليونان ولا تغنى به شعراؤهم وهو يدل على ذلك بشعر هوميروس وخلوه من عاطفة الحب ومثل هذا كان عند الرومان فقد كانت عواطفهم كما تظهر في شعر فرجيل^(٣) وكاتول^(٤) وتبل^(٥) وبروبرس^(٦) عواطف بدائية ليس فيها ما نسميه فن الحب^(٧) .

وهو يعزو نشأة الحب الرومانسي إلى المسيحية إذ أقامت المرأة في منزلة غير التي كانت لها من قبل . فقد نذبت إلى الحياء واصطنعت دون الوصول إلى المرأة حوائل خلقية . وجعلت للعلاقة بين الرجل والمرأة نظاماً تسيّر عليه وفرضت على الزوجين احترام الزواج والتزام الإخلاص فيه وتبادل الثقة بين الزوجين^(٨) .

(١) Andre Maurois : Sept Visages de l'Amour. (Jeune Parque).

(٢) Naissance de l'Amour Romanesque.

(٣) Virgile ... (٤) Catulle.

(٥) Tibulle ... (٦) Properce.

(٧) فن الحب هو ما يسه الأستاذ أندريه موروا بال : L'Art d'Aimer, p 8

(٨) Sept. Vis. de l'Amour, p: 9.

على أنه يعترف بأن هناك مؤثرات أخرى طونت المسيحية على إظهار هذا الحب الرومانسى وهى تيارات اجتماعية وأدبية دخلت إلى أوروبا عن طريق جنوبي فرنسا أرض محاكم الحب^(١) حيث وضع داتى وبترارك تقاليد الحب الطريف^(٢). ومن الطريف أن تأخذ أوروبا هذا الحب الرومانى عن العرب عن طريق التروبادور والتروفير^(٣).

(١) محاكم الحب وقد تحدث عنها ستندال فى كتابه On Love وذكر أن لها قوانين ولوائح كانت تحاكم بها المحبين .
(٢) L'Amour Courtois.
(٣) Troubadours et Trouveres. وهم شعراء جوالون .

الفصل الثالث

الحب العذري

صورته الأولى في الأدب العربي

تمهيد

أسلفت أن الحب العذري ظاهرة اجتماعية إسلامية لم نعرف لها أصلا في العصر الجاهلي وقلت إن ضياع كثير من شعر ذلك العصر أحد الأسباب التي تجعلنا نرجح ذلك . على أني مع ترددي في أن أقطع برأى في هذا الأمر أكاد أفتنع بأن هذا الحب العذري ظاهرة إسلامية كان للدين الجديد والنظام الاجتماعي الذي جاء به الأثر الأول في خلقها وفي إخراجها على هذه الصورة .

وقد بسطت القول في الفصل السابق — ما استطعت — حول نشأته وأسبابها وأريد في هذا الفصل أن أطوف بأخبار من يعرف في الأدب العربي بالعشاق العذريين ، وهم فئة من المحبين اشتهرت بحب عفيف تزيه بعيد عن الشهوة لا يتعلق بالجسد ولا يحفل باللذة الحسية وامتازت بالإخلاص لمن تحب والوفاء له والثبات على حبه حتى لقي بعضها من جراء ذلك حتفه .

وأشهر هؤلاء فيما نعلم عروة بن حزام وجميل بن عبد الله بن معمر العذريان وقيس بن ذريح الكنتاني والمجنون قيس بن الملوح العامري وهم طائفة من الشعراء تغنوا في شعرهم بهذا الحب وصوروا فيه نفوسا اكتوت بناره وثبتت عليه وأخلصت فيه ولم يكن رائدها فيه قضاء شهوة أو ظفر بلذة وإنما كانت تكتفي فيه بالوصل البري .

شغلت هذه الطائفة أهل الأدب ورواة الأخبار فجمعوا ما اشتهر عنها من حوادث الحب وأحاديثه ، وألفوا فيه الكتب وجمعوا فيها ما سمعوه وما نقلوه من أخبارها .

والباحث في تاريخ هؤلاء يضرب في طريق غير واضحة المسالك ولا بينة للعالم

فقد كان للخيال في وضع أخبارهم نصيب ، وتزيد الناس فيها حتى إن كثيراً منها ليعسر على المنطق السليم به ولو وقف الأمر عند هذا لكان العقل هو الفيصل في الحكم على صحيح هذه الأخبار من مفتعلها ولكن هناك أمراً يزيد في حرج الباحث وفي عسر مهمته ذلك هو ما يلاحظ أحياناً من تداخل أخبار بعضهم في أخبار الآخرين حتى ليجد الباحث غمماً في تمييز أشخاصهم وتبع ذلك تداخل شعرهم ، فالقصيدة تروى آناً لجميل وتروى لكثير آناً آخر والآيات تنسب إلى قيس بن ذريح تارة ولقيس بن الملوح تارة أخرى .

قد يقال : وههنا تبدأ وظيفة الناقد فهو يستطيع أن يحكم على الأسلوب ونفس الشاعر . وقد كان الأمر يكون كذلك لولا أن القوم يصدرون عن عاطفة واحدة تتشابه في الجوهر وفي الشكل حتى تكاد تتماثل ، وهذا يجعل وظيفة الناقد عسيرة أشد العسر .

ويزيد في هذا العسر أن الباحث يكاد يسلك سبيلاً وعرة لم يتصد لتحميدها أحد من أساتذة الأدب المعاصرين ولم يوفها حقها من الدراسة العلمية الشاملة . وقد عرض الأستاذ الدكتور طه حسين بك لهذه الطائفة في كتابه حديث الأربعماء فتشكك في ما ترويه عنها كتب الأدب من القصص ورجح أن يكون ذلك من وضع الرواة وقال إن معشوقاتهم نساء خرافيات يصورن المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقّة ، يقول : —

« والحقيقة التي ما أحسب أنها تتعرض للشك هي أن ليلي ولبنى وعزة وبثينة وغفراء وهندا ودعدا وسعاد كل هذه أسماء ما أظن أنها تعين مسميات ممتازات وإنما هي أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذي كانوا يلتمسونه ويلتمحون إليه حين كانوا يتغنون بالحب سواء منهم في ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلي ولبنى وبثينة بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه هيلانة بالقياس إلى القصص من شعراء اليونان للتقدمين لسنا ندرى أوجدت حقاً ، بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقّة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغناها الغزالون ^(١) » .

وجملة الأمر أن الدكتور يرجح أن ما يروى عن هؤلاء القوم من أحاديث الحب وحوادثه أشياء بعيدة عن أن تكون قد حدثت حقاً .

وما أظن أن بين الحياة اليونانية والحياة العربية ما يسمح لباحث أن يستهدى بالأولى لفهم الثانية أو فهم بعض أجزائها والحكم عليها ، وبخاصة الحياة الأدبية والعاطفية ، إذ من المعروف أن الأسطورة تشغل جانباً كبيراً هاماً من أدب اليونان ، وإذن فاختراع الأشخاص امر ليس بغريب ولا بعيد في الأدب اليوناني بل هو لازم في أدب الأسطورة .

أما الأدب العربي وبخاصة بعد الإسلام ^(١) فلا تعرف الأسطورة مكاناً بين فنونه ، ومع ذلك فإن الأدب العربي بعد الإسلام قد تأثر بالقرآن ، وقد ندد القرآن بأساطير الأولين أيما تنديد .

والواقع أن أخبار هؤلاء القوم وأشعارهم قد زيد فيها واختلط بعضها ببعض وتداخلت سيرهم وأشعارهم بعضها في بعض تداخلاً يجعل مهمة الباحث شاقة عسيرة . ولست أحسب هذا التزيد والتحوير والتداخل آتياً من عبث الرواة فحسب بل لست أذهت إلى أن ذلك أم الأسباب فهناك أمور أخرى أجدر أن ينسب ذلك إليها . فهذه الأخبار كانت تتناقل شفاهاً من غير تدوين — في أول الأمر — وذلك يجعل الدقة في الرواية أمراً بعيد للنال . وأمر آخر موضوعي وهو أن مادة الأخبار شيء فيه غرابة وفيه طرافة وقل أن يسلم الخبير الطريف من فعل الخيال ومن تزيده .

وهنا أمر آخر خطير ذلك أن كثيراً من الباحثين يتمكنون في مثل هذا الموضوع إلى المنطق السائد في عصرهم ، فهم يستبعدون أن يموت عاشق من الحب أو أن يحزن ويختلط عقله ، وهم ينسون أن لكل عصر منطقاً ولكل بيئة اجتماعية منطقها الذي يسود فيها وقد يسخر منه الناس في غيرها . ونحن إذ نحتمك إلى منطق هذا القرن الذي نميش فيه ، في الحال التي كان عليها أسلافنا في القرون الوسطى نظلمهم ونظلم الحقيقة . وماذا على هؤلاء الباحثين لو نظروا في الأحوال الاجتماعية عند القبائل العربية في هذا العصر — وهي قد ورثت كثيراً من المظاهر الاجتماعية من أسلافها — إذن لشهدوا شباباً يحزن من الحب أو يصيبه السل أو يختلط عقله فيهم على وجهه في البراري ويجري على لسانه الشعر ويولع بالغناء إلى غير ذلك من أحوال جد شبيهة بما نقرأ في كتب الأدب عن أحوال هؤلاء العشاق . أعود فأقول إن دراسة الأدب العربي القديم لا يمكن أن تستقيم مسبقاً

(١) هناك أساطير رويت في شرح الأمثال وفيما يشبه ذلك وأغلب الظن أنها جاهلية .

ويتحقق الغرض منها ما لم تسبقها دراسة للحال الاجتماعية التي كان عليها العرب في باديتهم، وذلك أمر يعين عليه البحث في حال القبائل العربية في هذا العصر إلى مدى بعيد.

ونرجع إلى ما نحن بصدد من الكلام على الصورة الأولى للحب العذري وهي التي تبدو في سير هؤلاء العشاق الشعراء وفي أشعارهم.



١

أقدم هؤلاء — فيما أعلم — عروة بن حزام بن مالك بن حزام بن ضبة بن عبد ابن عذرة، أحب ابنة عمه عفراء بنت عقال. كانا تربان عاشا في بيت واحد وكانا يلعبان معا، ولا يكاد أحدهما يفارق الآخر، فالف كل منهما صاحبه وظهر تعلق عروة بعفراء وحبه لها حتى أحس بذلك عمه أبوها فكان يقول له: أبشر فإن عفراء أمتك إن شاء الله^(١).

وما زالت ألفتهم تقوى وتشتد، وجهما ينمى ويزيد حتى لحق عروة بالرجال ولحقت عفراء بالنساء، فأثى عروة عمه له يقال لها هند فشكا لها ما يلقي من حب عفراء، وسألها أن تسعى له لدى عمه ليزوجه بعفراء، فذهبت إليه وحدثته بمحدث عروة وسألته أن يزوجه عفراء فوعدها خيراً وقال لها فيما يرويه أبو الفرج: «ما عنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب عنه ولا بنا عنه رغبة ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عجلة»^(٢).

فاطمأنت نفس عروة وسكنت هواجسه وأقام عند عمه يخدمه ويمجد في اكتساب رضاه، وكان عمه يمنيّه عفراء ويماطله حتى شاع ذلك وذاع وأقام عروة يرجو أن يبر عمه بوعده:

فيا عم لا أسقيت من ذى قرابة زلالا فقد زلت بك القدمان
ومنيّتي عفراء حتى رجوتها وشاع الذي منيت كل مكان
فوالله لولا حب عفراء ما التقي على رواق بيتك الخلقان
ولم أتبع الاظلمان في رونق الضحى ورحلى على نهضة الحديدان
لعفراء إذ في الدهر والناس غرة وإذ خلقنا بالصبا يسران
حتى إذا سار عروة يوما في غير لاهله إلى الشام جاء ابن عم لعفراء من البلقاء

نخطبها من أبيها فزوجه إياها . ولما حملها إلى بلده أقبل عروة من سفره فأبصر رفقة مقبلة من ناحية المدينة وفيهم امرأة على جبل أحمر فقال لأصحابه والله لكانها عفراء فقالوا له: ويحك ما ترك ذكر عفراء! ولما دنا منها عرفها فبهت ووقف لا يطيق حراكا ولا يحير كلاما فلما سار ركبها وفقدها قال :

وإني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام ديب
فما هو إلا أن أراها خفاء فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصرف عن رأي الذي كنت أرتقي وأنسى الذي أزمعت حين تغيب
وقد علمت نفسي مكان شفاها قريبا وهل ما لا ينال قريب
لئن كان برد الماء أبيض صافيا إلى حبيباً إنها لحبيب^(١)
أما لما إذا حال همه بينه وبين عفراء فظاهر مما أسلفنا أنه فعل ذلك لقلّة مال
عروة واضيق ذات يده وهو يشير إلى ذلك في قصيدته النونية المعروفة فيقول :
يكافئني صمي ثمانين ناقة وما لي والرحمن غير ثمان
ويروى أبو الفرج أن أم عفراء كانت سيئة الرأي في عروة فما زالت بزوجها
حتى أفنعتته بأن يزوج عفراء من ابن صمها المومر وقد فعل ذلك حين رحل عروة
يلتمس شيئاً من المال فلما رجع تمايلوا عليه وأخبروه أنها ماتت ولكنه عرف
من بعض نساءهم الخبر اليقين^(٢) .

وليس لهذه الرواية سند في شعور عروة وليس فيه ذكر أم عفراء وجله
حديث عن غدر صم :

فيا عم ياذا الغدر لا زلت مبتلى حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية وأورثت عيني دائم الهملان
فلا زلت إذا شوق إلى من هو يته وقلبك مقسوما بكل مكان
وتروى الأخبار أنه أصابه الهلاس^(٣) وأخذته الهذيان والقلق ، فقال بعض
أهله إنه مسحور وقال آخرون هو مجنون . فحملوه إلى عراف باليمامة ليداويه
فما أفلح في شفاها ، ثم أخذوه إلى عراف آخر بحجر^(٤) فلم ينفعه دواؤه . وهو
يقص ذلك في نونيته بأسلوب يفيض رقة ويقطر حزنا فيقول :

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٥ .

(٢) الأغاني - ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) الشعر والشعراء ص ١٤٥ .

(٤) يروى ابن قتيبة أن العراف الثاني كان بحجر ويروى البيت هكذا « وعراف حجر » .

وهذه رواية الأمل ج ٣ ص ١٥٧ .

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شقيان
 فقالا : نعم نشفى من الداء كله وقاما مع الع——واد يبتدران
 نعم وبلى قالا متى كنت هكذا ؟ ليستخبران قلت : منذ زمان
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقياني
 وما شفيا الداء الذى بى كله ولا ادخرا نصحا ولا ألوانى
 فقالا : شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان
 فرحت من العراف تسقط عمتى عن الرأس ما ألتائها بينان
 معى صاحبها صدق إذا ملت ميلة وكانا بحبى ساعة عدلانى
 ولم يتمل عروة المقام بعيداً عن عفراء ، فارتحل إلى البلقاء ، حيث ارتحل بها
 زوجها ، وأقام قريباً من بيتها ، تأتية فيشكو إليها ويأنس بحديثها ، وكان زوجها
 يعلم ذلك ولا ينكره ، ولا يمنع عفراء منه ، فقد كان عروة يحتل بها دون أن يقرب
 منها أو ينال منها نيلاً^(١) . وأقام على هذه الحال زماناً وطادت إليه العافية ولاكنه
 آثر بعد لأى أن يرحل إكراماً لابن عمه ، واعترافاً بفضله ، فلما رحل انتكس وطادت
 إليه علته ، وأصابه الخفقان ، فكان إذا أغمى عليه ألقوا على وجهه خمراً لعفراء
 زودته إياه فيفيق^(٢) .

وكان عروة من فرط حبه لعفراء وشوقه إليها يأتى حياض الماء التى كانت
 تردها إبل عفراء فيلصق صدره بها^(٣) .
 ورجع عروة إلى منازل أهله ، وقد غلبته علته ، فلم يلبث أن وافته المنية^(٤) .
 ويروى قصة وفاته أبو على القالى بسنده عن النعمان بن بشير أنه قال : استعملنى
 معاوية رضى الله عنه على صدقات بلى وعذرة فأتى لى بعض مياهم إذ أنا ببيت
 منجرد ناحية وإذا بفنائى رجل مستلق وعنده امرأة وهو يقول : أويتفنى بهذه
 الأبيات :

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شقيان
 فقالا : نعم نشفى من الداء كله وقاما مع الع——واد يبتدران
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقياني
 فقالا : شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

(١) الأغاني — ج ٢ : ص ١٥٤ . (٢) الأغاني — ج ٢ : ص ١٥٤ .

(٣) نفس المرجع ص ١٥٦ . (٤) تزيين الأسواق — ج ١ : ص ٨٥ .

فقلت لها : ما قصته ؟ فقالت : هو مريض ؛ ماتكم بكامة ولا أن أنه منذ وقت
كذا وكذا إلى الساعة ، ثم فتح عينيه وأنشأ يقول :
من كان من أخواني يا كيا أبدا فاليوم إني أراي اليوم مقبوضا
يسمعني فاني غير سامعه إذا حملت على الأعناق معروضا
ثم خفت فمات فغمضته وغسلته وصليت عليه ودفنته وقلت للمرأة : من هذا ؟
فقالت : هذا قتيل الحب ! هذا عروة بن حزام^(١) .

٢

ومنهم قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر
ابن ليث بن بكر بن عبد مناة وهو علي بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس
ابن مضر بن نزار^(٢) ، ويزعم بعضهم أنه قيس بن ذريح بن الحباب بن سنة
مستدلا بقوله :

فإن يك تهيمى بلبني غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت
أحب لبني بنت الحباب الكعبية من بني كعب بن خزاعة .
وفي ذلك يروي أبو الفرج أن قيساً خرج في بعض أسفاره فر لبعض حاجته
يخيام بني كعب بن خزاعة فوقف على خيمة لبني واستسقى ماء فخرجت لبني إليه
بالماء وسقته وعرضت عليه أن ينزل ويستريح فتزل ثم جاء أبوها فنحزله وأكرمه
فانصرف وفي قلبه حب لبني^(٣) .

وما زال يزورها ويشكو إليها وجده حتى ظهر له منها مثل ما عنده فطلب
إلى أبيه أن يخطبها له فأبى عليه ذلك وكان موسراً فخشي أن يذهب ماله في
بني كعب ، وعرض على قيس أن يزوجه من إحدى بنات عمه . ثم أتى قيس أمه
فشكا إليها وجده بلبني فلم ترق له .

ولما أيس من والديه أقبل على الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما
وكان أخاه من الرضاعة أرضعته أم قيس^(٤) فشكا إليه ما يلقى في حب لبني وحدثه
بما فعل به أبوه وأمه فسار به الحسين إلى قوم لبني . فلما رأوا الحسين أعظموه
ووعدوه خيراً وسألوه أن يأتي بأبي قيس إليهم خاطباً ففعل .

(١) الأملاني لأبي علي القالي ج : ٢ كتاب النوادر ص : ١٥٧ .

(٢) الأغاني — ج : ٨ ص : ١٠٧ .

(٣، ٤) الأغاني — ج : ٨ ص : ١٠٨ .

ولما تزوج قيس بلبني صرفته عن أمه وكان باراً بها قبل زواجه فكانت تشكو ذلك إلى أبيه . وحدث بعد ذلك أن مرض قيس مرضاً شديداً فلما شفى أرادت أمه أن يتزوج بأخرى لعله يعقب من يرث مال أبيه وحرضت أباه على ذلك فكلّمه فيه : فأبى ، فعرض عليه أن يتسرى فأبى : فأقسم عليه ليطلقنها وألح عليه وحلف ليطرحن نفسه في الرمضاء لا يكرهه سقوف حتى يفعل ذلك قيس فاجتمع الناس على قيس ولا موه فيما يفعل بأبيه وما زالوا به حتى طلق لبني^(١) . وهو يحكي ذلك في شعره فيقول :

فصرت وشيخي كالذي عثرت به غداة الوغى بين العداة كمت
فقامت ولم تضرر هناك سوية وفارسها بين السنايك ميت
فإن يك تهيأى بلبني غواية فقد يا ذريح بن الحباب غويت
فلا أنت ما أملت في رأيت ولا أنا لبني والحياة حويت
فوطن هلكي منك نفساً فأتى كأنك بي قد يا ذريح قضيت
ولما طلقها اشتد به الوجد (فلم يلبث أن استغير عقله ، وذهب به ولحقه مثل الجنون^(٢)) وندم بأشد الندم . وهذه فيما أظن نقطة التحول في حبه حيث أنضج حرماته منها فتكاملت العاطفة واستقرت وامتسكت نفسه . ونحن لانعرف له قبل طلاقها شعراً له فيها إلا أبياتاً قليلة منها قوله :

صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فيم فالتأم الفطور
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور^(٣)
وكل ما بقي من شعره ، أو على الأصح ما وصلنا منه ، يدل على أنه قبل بعد الطلاق : —

يقولون لبني فتنه كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلق
فطاوعت أعدائي وطاصيت ناصحي وأقررت عين الشامت المتعلق^(٤)

(١) الأغاني — ج : ٨ : ص ١٠٩ والأمالى — ج : ٢ : ص ٧٥ وتزوين الأسواق ج : ١ : ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) الأغاني — ج : ٨ : ص ١١٠ .

(٣) يرويان لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وقبلها :

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير

(ديوان الحماسة لأبي تمام) .

(٤) رواية الأغاني « المتخلق » ولعل ما أثبتناه أصح .

وددت وبيت الله أنى عصيتهم وحملت فى رضوانها كل موثق
وكلفت خوض البحر والبحر زآخر أبيت على أبحاج موج مغرق
كأنى أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الخنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره معنى بعدها كل منطق
وكانت حياته بعدها سلسلة متصلة من الحنين إليها والأسف على فراقها ولوم
نفسه على التفريط فيها وقد عبر عن ذلك فى شعر صادق العاطفة شديد التأثير
فى النفس : —

تكداد بلاد الله يا أم معمر بما رحبت يوما على تضيق
تكذبى بالود لبنى وليتها تكلف منى مثله فتذوق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أنى لكم والهدايا للشعرات صديق
تمتوق إليك النفس ثم أردتها حياء ومثلى بالحياء حقيق
أزود سوام النفس عنك وما لها على أحسد إلا عليك طريق

وحدثتني يا قلب أنك صابر على البين من لبنى فسوف تذوق
فت كمدأ أو عش سقيا فأتى بها مغرم صب الفؤاد مشوق
بلبنى أنادى عند أول غشية ويثنى بها الداعى لها فأفريق

وقد وصف حاله من بعدها فهو تارة يتمنى النوم فى غير حينه لعله يلقى
طيفها فيه :

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام أنى أراكم فباليت أحلام المنام يقين
وهو فى نهاره إنسان سوى كمثل الناس يقضيه بالحديث عنها ويتمنى أن
لو تعود إليه ، حتى إذا جن ليله جن جنونه واجتمعت عليه الهموم وأحاطت به
الفواجع ، وهو بين هذا وذاك نهب لتبرج الوجد ، قد صدع هجرها قلبه يبكى
لما وقع وهو يدرى أن ذلك لا يجدى عليه ولا يزيل عثاره .

أتبكى على لبنى وأنت تركتها وكنت كآت حثفه وهو طائع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهارى الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع
لقد رسخت فى القلب منك مودة كما رسخت فى راحتين الأصابع

أحال على الهم من كل جانب ودامت فلم تبرح على الفواجع
 ألا إنما أبكى لما هو واقع فحل جزعى من وشك ذلك نافع
 ويكاد الرواة يتفقون على هذا القدر من سيرته ثم يذهبون في خاتمته مذاهب
 شتى فيها شيء غير قليل من فعل الخيال الروائي ، فمنهم من يزعم أنه قد كتب له
 الخروج من هذه المحنة والرجوع إلى لبني فعاش معها باقى حياته فى صفاء وهناء ،
 وآخرون يزعمون أنه مات على هذه الحال بعد أن أهدر السلطان دمه من أجلها
 فساح فى البرارى وتزوج غيرها إلى غير ذلك من تخيلات الرواة .
 ولسنا فى مقام الحديث عن حياته والإفاضة فى تاريخها وكل ما يهمنى منها أنه
 أحب لبني وتزوجها ثم طلقها فاشتد به الوجد وأكل الندم قلبه .
 وابن ذريح بعد هذا صورة طريفة من صور الحب العذرى يمتاز بأن أعراض
 الحب ظهرت عليه بعد الزواج واشتدت به بعد الطلاق وهو حجة على الطاعنين فى
 الحب العذرى والشاكين فيه بل للنكسين وجوده أولئك الذين لا يدركون
 غير الحب الحسى ولا يشعرون بسواه ، فلو كان الأمر كما يزعمون لفتر حب قيس
 للبني بعد زواجه منها ولم يعد للهفه عليها وتعلقه بها من سبب ولوجد بعد طلاقها فى
 غيرها عوضا وسوى ، ولكن الأمر كما أسلفت تعلق نفسه وعاطفة مركبة تمتلك
 الجوارح ، مبدؤها ألفة تنمى وتزيد حتى تبلغ بالحب هذا المبلغ .
 ثم زاد الزواج فى الألفة واشتد به التعلق حتى إذا انفصمت بينهما عراه ضاقت
 بذلك نفسه وخلت مما كان يملأ جوانبها فظهر على قيس ما ظهر من لوعة وأسى
 يلسمهما قارى شعره فتستثير فى نفسه أنبل الشاعر وأسمى العواطف .
 وحسبى دليلا على ما أذهب إليه أن قيسا لم يصف لبني - فيما روت كتب
 الأدب من شعره - وصفا حسيا إلا فى القليل النادر وهو لا يلبث أن يتخطى
 ذلك إلى الحديث عن صفاتها النفسية والخلقية وما فعله به حبها . مثال ذلك قوله :

شهدت على نفسي بأنك غادة رداح وأن الوجه منك عتيق
 وأنك لن تجزئني بصحابة ولا أنا للهجران منك مطيق
 وأنك قسمت الفؤاد فنصفه رهين ونصف فى الحبال وثيق
 وقوله :

أتبكي على لبني وأنت تركتها وكنت عليها بالملأ أنت أقدر
 فإن تكن الدنيا بلبنى تقلبت على فللدنيا بطون وأظهير
 لقد كان فيها للأمانة موضع وللكف مرتاد وللعين منظر
 وللحائم العطشان رى بريقها وللمرح المختال خمر ومسكر

هذا يدل — إن دل على شيء — على أن حب قيس للبنى كان علاقة نفسية أكدها الزواج وأحكم أو أصرها وزاد في قواها . وأنا إذ أقول علاقة نفسية إنما أعني ما يريد علماء السيكولوجيا بالنفس وهي مجموع القوى الشعورية والعقلية في الإنسان ، وهي تعمل كوحدة ، وأريد أن يتأكد أنه حب بعيد عن أن يكون حباً حسياً . ولعل فيما أسلفت الدليل الذي يؤيد ذلك . وبهذا يكون قيس ابن ذريح صورة صادقة طريفة للحب العذري .

٣

ومنهم مجنون بنى عامر قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة ابن كعب^(١) . واختلف في اسمه فقال بعضهم هو مهدي بن الملوح أو غير ذلك والصحيح أنه قيس بدليل قول ليلى فيه :

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع^(٢)
وهو الذي يعرف بمجنون ليلى وهي ليلى بنت سعد بن مهدي بن ربيعة ابن الجريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة^(٣) .

ويروى أن قيساً كان جميل الوجه أبيض اللون وكان كافياً بمحادثة النساء صبا بهن وكانت ليلى من أجمل النساء وأظرفهن جسماً وعقلاً وأفضلهن أدباً وأملحن شكلاً^(٤) وكانت تكنى أم مالك .

وألف كل منهما الآخر وهما صبيان يرعيان مواشى أهلهما ثم نمت الألفة وتعلق كل منهما بصاحبه ولم يزاك ذلك حتى كبرا فحجبت عنه . وفي ذلك يقول قيس :

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من نديها حجم صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم^(٥)
ثم خطبها ومهرها خمسين ناقة حمراء ثم خطبها ورد بن محمد العقيلي فأكرهها أهلها على اختيار ورد ذلك لأن العرب كانت تسكره أن تزوج طاشقين فشا أمرها واشتهر بين الناس عشقهما^(٦) .

(١) ونسبه أبو العباس المبرد في بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة في السكامل ج : ١ : ص : ٢٥٠ . وهكذا رواية أبي الفرج عن المدائني ج : ١ : ص : ١٦١ من الأغاني .
(٢) الأغاني ج : ١ : ص : ١٦١ . (٣) الأغاني ج : ١ : ص : ١٦٤ .
(٤) المرجع السابق ص : ١٧٣ . (٥) الأغاني ج : ١ : ص : ١٦٤ .
(٦) يرى الدكتور طه حسين أن هذه بدعة من بدع الرواة (حديث الأربعة ج : ١ : ص : ٢٢٤) =

وصفوة القول أن قيساً خطب ليلي فرد عنها ولم يتيسر له الزواج منها بل لقد تزوجت غيره على كره منها فاشتد وجده ؛ وزاد هيامه بها حتى أصابه الجنون (فكان لا يلبس ثوباً إلا خرقه ولا يمشي إلا حافياً ويلعب بالتراب ويجمع العظام حوله ، فإذا ذكرت له ليلي أنشأ يحدث عنها طافلاً ولا يخطئ حرفاً ، وترك الصلاة فإذا قيل له مالك لا تصلي لم يرد حرفاً) قال أخوه : « فكنا نحبسه وتقيده فيعض لسانه وشفته حتى خشينا عليه نخلينا سبيله فهو بهم^(١) » . وليست إصابته بالجنون بعيدة أو مستغربة إذ يروي أبو العباس البرد عن عبد الصمد بن العذل أنه سمع الأصمعي يقول : إنه كانت به لوثة كلوثه أبي حية النخري^(٢) » واللوثة في لغة هذا العصر ضعف الأعصاب أو ما يشبهه ويقرب منه ، وهذا إذا اجتمع إليه الوجد الشديد واليأس في الحب لا يبعد أن يستحيل جنوناً .

وحين تزوجت ليلي ويئس منها عظم ذلك عليه واشتد وجده وزاد لهفه ففج به أبوه إلى مكة ، فلما صار بمنى سمع منادياً ينادى « يا ليلي » فصاح صيحة ظنوا أنه مات منها ثم وقع مغشياً عليه وبقي كذلك حتى أصبح فأصبح حائل اللون ذاهلاً ، ثم أنشد :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فيسج أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلي ضلل الله سعيه ويلي بأرض عنه نازحة قفر
ومما يدل على تمكن حبها من نفسه وتغلغله في قلبه ، واستقراره فيه ، وإخلاصه لها ، وثباته على الهيام بها ؛ ما يروي من أن أباه سأله أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه من حب ليلي ، فتعلق بأستار الكعبة وقال « اللهم زدني ليلي حبا ، وبها كففا ، ولا تنسني ذكرها أبداً^(٣) » .

ونسب إليه في ليلي شعر على جانب عظيم من صدق العاطفة والابتكار في معاني الحب حتى يكاد قارئه لا يشك بأن قائله عاشق تيمم الحب وولمه وبلغ به مبلغاً غير مألوف ؛ فمن ذلك قوله وقد بلغه أن ليلي سترتحل مع زوجها عما قريب : —

== ولم يذكر دليلاً على هذا وإن كنت أرجح أنه على حق فليس بين العرب المعاصرين من يفعل ذلك وإنما هم يغالون في مهر البنت إذا خطبها عاشق راغب فيها .

(١) الأغاني ج ١ : ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) كتاب الكامل ج ١ : ص ٢٥٢ والأغاني ج ١ : ص ١٦١ .

(٣) الأغاني — ج ١ : ص ١٦٦ .

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلي العاصرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد غلق الجناح
لها فرخان قد علقا بوكر فعشهما تصفقه الرياح
وهو يتحدث في شعره عن أحوال تشبه أحوال المجانين فهو يخرج من
المجلس ليحدث نفسه بمحدثها أو يتكاف النعاس لعله يرى طيفها في نومه إلى غير
ذلك من غريب الأحوال :

وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا
وإني لأستغشى وما بي نعمة لعل خيالا منك يلتقي خيالها
أشوقا ولما تمض لي غير ليلة رويد الهوى حتى يغيب لياليا

وقد سبق لي أن قلت في أول الفصل إن أخبار القوم أصابها شيء غير قليل
من عبث الرواة وتزيدهم ، واختلط بعضها ببعض وتداخل شعرهم بعضها في بعض
حتى أصبح البحث فيهم على جانب كبير من العسر والمشقة . ولقد ذهب بعض
أساتذة الأدب المعاصرين إلى الشك في وجودهم ، وأنكره بعضهم فذهب إلى أن
فلانا وفلانا من الشعراء والعشاق ليسوا أشخاصا تاريخيين ولكنهم أبطال قصص
مخترع ، وضعه الرواة وصنعوا أشعاره .

وأوفر هؤلاء حظا من تلاعب الرواة وتزيدهم المجنون العامري الذي نحن
بصدد الكلام فيه . فالشك فيه وإنكار وجوده أمر قديم لم يكن الدكتور طه
حسين أول قائل به ، وإنما كان الدكتور طه أول من وسعه وأمعن فيه فصار
يشمل غير المجنون من العشاق^(١) . فيروي أبو الفرج عن أيوب بن عباية أنه قال :
« سألت بني عامر بطنا بطنا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدا يعرفه » . وعن
الأصمعي أنه قال : « رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم مجنون بني عامر وابن
القرية فإنهما وضعهما الرواة » . وعن ابن السكبي قال : « حدثت أن حديث
المجنون وشعره وضعه قتي من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن
يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون
ونسبها إليه^(٢) .

واتسكا الدكتور طه حسين على هذه الأقوال فاستخلص منها أن المجنون وغيره

(١) حديث الأربعاء — ج : ١ : ص : ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) الأغاني — ج : ١ : ص : ١٦١ .

لا يمثلون أشخاصاً تاريخيين^(١) وأبعد فقال إن ليلي ولبنى وبثينة وعزة نساء خرافيات شأن هيلانة في الشعر اليوناني^(٢).

ولعل في تهافت الرواة وتضارب أقوالهم في الذي يذهبون إليه ما يدعو الباحث إلى إعادة النظر فيما زعمه بعضهم من إنكار وجود المجنون. فهم يروون تارة أن قد كان في بني عامر حيلة عشاق مجانين يشبهون بليلي. ويروى أبو الفرج عن الأصمعي أنه قال: سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال: عن أيهم تسألني فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون فعن أيهم تسأل؟ فقلت: عن الذي كان يشب بليلي، فقال: كلهم كان يشب بليلي قلت: فأشددني لبعضهم فأشددني لمزاحم بن الحرث المجنون:

ألا أيها القلب الذي لج هائماً وليداً بليلي لم تقطع تمامه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى لك اليوم أن تلقى طبيباً تلامه
أجسدك لا تنسيك ليلي مامة تلم ولا عهد يطول تقادمه
قلت: فأشددني لغيره منهم فأشددني لمعاذ بن كليب المجنون:

ألا طالما لاعتبت ليلي وقادني إلى اللهو قلب للحسان تبوع
وطال امتراء الشوق عني كلما نزفت دموا تستجد دموع
فقد طال إمساكي على الكبد التي بها من هوى ليلي الغداة صدوع
قلت: فأشددني لغير هذين ممن ذكرت فأشددني لمهدي بن الملوح:

لو أن لك الدنيا وما عدلت به سواها وليلي حائن عنك بينها
لكنت إلى ليلي فقيراً وإنما يقود إليها ود تقسك حينها
قلت له: فأشددني لمن بقي من هؤلاء. فقال حسبك فوالله إن في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم^(٣).

ويروون تارة أخرى أن لم يكن في بني عامر من يقع في العشق بل ليس ذلك إلا شأن اليمانية الضعاف القلوب. يروى أبو الفرج عن ابن دأب أنه قال لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون وتروى من شعرة شيئاً؟ قال أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين، إنهم لكثير. فقلت: ليس هؤلاء، أعني إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق. فقال: هيهات! بنو عامر أغلظ

(١) حديث الأربعة ج: ١ ص: ٢٢٤.

(٢) نفس المرجع ص: ٢٧٦.

(٣) الأغاني ج: ١ ص: ١٦٢ — ١٦٣.

أكبداً من ذلك إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصلعة رؤوسها ، فأما نزار فلا^(١) .

ولعل التضارب الواضح بين هذه الأقوال يزهدنا فيها فلا نقيم لها كبير وزن .
فأما قول الأصمعي : « رجالان ماعرفا في الدنيا قط إلا بالاسم مجنون بنى عامر الخ »
فلا يوافق أوله آخره ، ولا يستقيم معه . وأما ابن السكبي فطعمون فيه غير مقبول الرواية .

وأما رواية ابن دأب عن هذا العامري فهي تبين عن عنجبية فيه فهو يربأ بقومه عن العشق وينكر أن يكون ذلك فيهم ويزعم أنهم أغلظ أكباداً من أن يصابوا به ، ومثل هذا لا يؤخذ بقوله ولا يطمأن إليه لأنه قال في العصبية لقومه شديد الغيرة عليهم . وكيف نصدق أن بنى عامر أو أية قبيلة أغلظ أكباداً من أن يعبت بهم العشق ؟

والحق الذي لا شك فيه أن المجنون قد زيد في أخباره وفي أشعاره واختلط الأمر على هؤلاء الرواة فأثبتته بعضهم . يروى أبو العباس البرد عن عبد الصمد ابن اللعذل أنه قال سمعت الأصمعي يثبته ويقول : لم يكن مجنوناً وإنما كانت به لوثة كالوثة أبي حية النمرى^(٢) .

وقد نبه بعض رواة الأدب على ذلك فذكروا التزيد في أخباره وفي شعره . فابن قتيبة يذكر أن الناس نحلوه شعراً كثيراً رقيقاً يشبه شعره ، وضرب لذلك أمثلة^(٣) .

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن الأصمعي أنه قال : الذي ألقى على المجنون من الشعر وأضيف إليه أكثر مما قاله هو . وعن الجاحظ أنه قال : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه للمجنون ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح^(٤) .

وهكذا يبدو لنا مجنون بنى عامر من بين ما حاطه الرواة به من تزيد في أخباره وما نحلوه من الشعر أشبه بالشبح منه بالشخص . وكل ما تستطيع أن نطمئن إليه من سيرته أنه أحب ليلي منذ كانا صبيين يرعيان اللواشى :

(١) الأغاني ج : ١ : ص : ١٦١ .

(٢) كتاب الكامل ج : ١ : ص : ٢٥٢ .

(٣) الشعر والشعراء ص : ٢٢٠ .

(٤) الأغاني — ج : ١ : ص : ١٦٣ .

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة ولم يبدل للآتراب من نديها حجم
 صغيرين نزعى البهم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم
 وهذا أمر كثير الحدوث بين فتیان البدو وفتياتهم إلى اليوم ، وما زال حبها
 يكبر في نفسه ويتمكن منها حتى كبرا ، فحجبت عنه ، وقال فيها الشعر واشتهر أمرها
 وشاع ، فخطبها فرد عنها . وكانت خبيته في حبه سبباً في أن يصيبه الجنون فيهم في
 البراري ويألف الوحش ، وذلك أمر غير بعيد إذا ذكرنا قول بعض الرواة إنه
 كانت به لومة ، وكان إذا ذكر بليلى وحدث عنها يثوب إلى رشده ، ويرجع إلى صوابه
 فيحدث عنها حاقلاً ، وينشد فيها الشعر .

ونحن نستطيع أن نستدل على صحیح الشعر المنسوب إليه من التهاب طاقته
 وتدفق شعوره وشدة أسرهِ وقوة أثره في النفس فهو يكاد يوحى بالجنون من
 الحب في نفس قارئه ، وفيه معان مبتكرة غريبة لا تصدر إلا عن شاعر صادق العاطفة
 قد بلغت به مبلغ الجنون أو ما يقرب منه . مثال ذلك قوله :

أظن هواها تاركى بمضلة من الأرض لا مال لدى ولا أهل
 ولا أحد أفضى إليه وصيتي ولا صاحب إلا المطية والرحل
 وقوله :

ولم أر ليلي بعد موقف ساعة يبطن مني ترمي جمار المحصب
 ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
 فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
 ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب
 وقوله :

وإني لأستغشى وما بي نعة لعل خيالا منك يلقى خاليا
 وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا
 أشوقا ولما يمض لي غير ليلة رويد الهوى حتى يغيب لياليا

وجملة الأمر أني لا أكاد أتخيل أن يقول الرواة شعراً كهذا الشعر ثم ينحلوه
 قيس بن اللوح أو غيره من العشاق الشعراء ، فذلك يعجز عنه من لم يبلغ به الحب
 مبلغ الجنون والذهول أو ما هو منهما بسبب .

وأكاد أطمئن إلى أن هذا الشعر لعاشق وله الحب ونحوض نفسه حتى أخرج
 زبدتها شعراً كهذا الشعر ، لا أبالي أهو قيس بن اللوح أم غيره .

كان الذين تحدثنا عنهم فيما سبق فريقاً من العشاق شقوا في حياتهم وعسدت عليهم العوادي بعد مماتهم فقد ضاع كثير من شعرهم وتقسم الباقي بين كتب الأدب ولم يسعدوا بمن يلم أطرافه من بعدهم ويجمع شتاته^(١) فيحفظ بذلك ذكرهم ويعين الباحث فيهم على تصورهم في صورة قريبة من الواقع ، ويبدو أن حظهم من الشعر ما كان عظيماً ولا وافراً ، فزهد رواة الأدب في شعرهم ولم يهتموا به ويجمعوه . وهذا أوان الحديث عن جميل بثينة إمام المحبين كما يدعوه القدماء ، ونموذج المحب العذري كما يبدو لي أن أدعوه . وهو أوضح من أصحابه سيرة وأبين معالم ، فقد أسعده الحظ بمن يجمع ديوان شعره ويضم فيه شتات أفكاره ، وإن لم يسعدنا الحظ بالاطلاع عليه على وجه التمام^(٢) .

وهو جميل بن عبد الله بن معمر بن صباح بن ظبيان بن حن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبد بن كبير بن عذرة . وأمه من جذام ولد في البادية بالحجاز في الموضع المعروف بوادي القرى وهناك نشأ ، وكانت ولادته في أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجري لا وقضى أكثر حياته في الحجاز وارتحل إلى اليمن ثم رجع إلى الحجاز حتى غادره إل مصر قبيل وفاته فمات فيها سنة اثنتين وثمانين هجرية^(٣) .

أحب بثينة بنت الحباب من بنى الأحب وهم فرع من بنى حن بن ربيعة تعلقها وهو صغير بدليل قوله :

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وفي ابتداء حبه يروي أهل الأدب والأخبار أنه كان يرعى إبله لأهله فأقبل بها ذات يوم على واد يسمى وادي بغيض فأرسلها واضعاج وأهل بثينة بذنب الوادي ، فأقبلت هي وجارية لها تردان للماء فترتا على فصال له بروك ، فنفرتهن بثينة فسيها جميل وسبته وكان ذلك أول علاقته بها وفي ذلك يقول :

(١) لم أعتز على ديوان لعروة بن حزام ولا لقيس بن خريح وللمجنون ديوان طبع أكثر من مرة والاختلاط في شعره واضح .

(٢) ديوان جميل لا يزال مخطوطاً محفوظاً في مكتبة برلين (دائرة المعارف الإسلامية مادة « جميل ») وطبعت مجموعة من شعره في بيروت وجمع جبرائيل جزءاً من شعره وطبعه في روما .

(٣) ابن حلسكان .

وأول ما قاد للودة بيننا بوادي بغيض يابئين سباب
فقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يابئين جواب^(١)
ولعله حين ملح لديه سبابها، واتصلت بقلبه أسبابها، ألف التردد على حينها فكان
يلقاها وتلقاه، ويتحدثان ويتناجيان، فألفها وألفته، ولا يعلم أحد بذلك حتى خرج
جميل في يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزينن ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال
في كل عيد، وأن جميلاً وقف على بئينة وأختها أم الحسين في نساء من بنى الأحب
فرأى منهن منظراً وأعجبته، وقعد معهن ثم راح، وكان معه فتيان من بنى
الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بئينة ووجدوا عليه، فراح
وهو يقول^(٢):

عجل الفراق وليته لم يعجل وجرت بوادر دمعتك المتهلل
طرباً وشاقك ما لقيت ولم تحف بين الحبيب غداة برقة محول
وعرفت أنك حين رحلت ولم يكن بعد اليقين وليس ذاك بمشكل
لن تستطيع إلى بئينة رجعة بعد التفرق دون عام مقبل^(٣)
واشتهر أمرها وشاع حبهما فكان يأتيها ويتحدث إليها ولا يصبر أحدهما
عن الآخر حتى لقد حلفت بئينة بالله لا يأتيها جميل على خلا، إلا خرجت إليه
وكثر ذلك منه واشتهر، فبلغ قومها، وكانوا (أصلاً غيارى) فتوعدوه، ولما
بلغه وعيدهم أقبل على ناقته الصهباء، والقوم يرصدونه، حتى وقف على بئينة
وأم الحسين وأنشدهما:

حلفت رب الراقصات إلى منى هوى القفا يجترن بطن دفين
لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقيا سليمي ولا أم الحسين لحين^(٤)
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يابئين لقوني
فوثب عليه القوم فنجا بناقته.

ثم خطبها جميل من أهلها فأبوها عليه، وزوجوها من نبيه بن الأسود العذري
الذي يقول فيه جميل:

(٢٤١) الأغاني — ج: ٧ ص: ٧٦.

(٣) هذه رواية الأغاني والأبيات بادية التكلف بينة التصنع حتى لا يكاد الناقد يشك في أنها
مصنوعة منقولة وبخاصة البيت الثالث فهو مضطرب المعنى مهلهل النسيج، ومثل ذلك فيما ينسب إلى
جميل غير قليل.

(٤) ها هو ذا لا يصرح باسمها بل يكتم عنها بسليبي وذلك حال من أحوال الحب في أول حبه.
ويروي الأستاذ العقاد (أم الجسير) في كتابه جميل بئينة.

لقد أنكحوا جهلاً نبيهاً ظمينةً لطيفة طلى الكشح ذات شوى خدل
ولم يمنع هذا الزواج من أن يزورها في بيت زوجها سرّاً، أو يواعدها مكاناً
يلتقيان فيه، فيتحدثان ويتشاكيان الوجد، لا يبالي تهديداً ولا يخاف وعيداً:
[ولو أن ألفاً دون بثنة كاهم غيارى وكل حارب مزعم قتلى
لحاولتها إما نهراً مجاهراً وإما سرى ليل ولو قطعت رجلى
ويبدو أن أهلها كانوا أقل شأناً من أن يقرنوا القول في تهديده بالعمل، فقد
كان أشد منهم قوة وأكثر جمعا:]

فليت رجلاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلى يابئين لقوني
إذا ما رأوني طالماً من ثنية يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني
يقولون لي: أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي خالياً قتلوني
وكيف؟ ولا توفي دماؤهم دمي ولا مالم ذو ندهة فيدوني
فاذا جاءها زائراً تعرض لها زوجها فأغضى عنه، كأنه لا يراه واجتني عليها
الذنوب فيصرمها خوفاً عليها:

إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويفضي عن هواي ويحتمى عليها ذنوباً إنه لعنود
فأسرمها خوفاً كأنني بجانب ويغفل عنها مرة فنعود
ونمادى جميل في ذلك حتى خشي أهل بثينة أن يلحقهم العار من تردده عليها
فيروى أنهم شكوه إلى الوالي واستعدوه عليه، فتوعده وأهدر لهم دمه إن هو
ألم ييوتهم: فكان يصعد على قور رمل يتنسم ريح بثينة ويقول:
أياريح الشمال أما تريني أهيم وأنتى بادي النحول
هي لي نسمة من ريح بثن ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولي يا بثينة حسب نفسي قليلك أو أقل من القليل^(١)
ثم ضاق به الأمر فهرب من وجه السلطان وأوى إلى جذام أخواله. وهو
يقول في ذلك:

أتاني عن مروان بالغيب أنه مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي الأرض منجاة وفي العيس مهرب إذا نحن رفعنا هن المثنيا
وكان طاقبة أمره أن رحل إلى مصر^(٢) ليقضى فيها نحبه غريباً لا يبكيه حبيب

(١) الأغاني — ج: ٧: ص: ٨٦.

(٢) لعل له في مصر أهلاً وعشيرة فقد رحل إليها بعد الفتح فريق من بني عذرة كما أسلفنا.

ولا يألم لفقده حميم . ولعل سبب هذه الرحلة أنه ضاق بمطاردة السلطان إياه ذرماً
وما عاد يستطيع أن يقيم في أرضه ، أو مل العيش خائفاً أو على رحل .
أجذك لا ألقى بثينة مرة من الدهر إلا خائفاً أو على رحل
فأثر أن يهجر ديار قومه وهو كاره ، ثم لم يلبث أن توفاه الله سنة اثنتين
وثمانين هجرية .

وفي حديث وداعه لبثينة يروي ابن قتيبة وأبو الفرج الأصبهاني بسنديهما
عن عجزوز تحدثت بنجر جميل وبثينة فقالت : « والله إنا لعلى ماء بالجناب وقد تنكبنا
الجادة لجيوش كانت تأتينا من قبل الشام تريد الحجاز^(١) وقد خرج رجالنا لسفر
وخلفوا معنا أحداً فأنحدروا ذات عشية إلى صرم قريب يتحدثون إلى جوار
منهم فلم يبق غيري وغير بثينة إذ انحدر علينا منحدر من هضبة فسلم ونحن
مستوحشون وجالون ، فتأملتني ورددت السلام فإذا جميل فقلت : أجميل ؟ فقال : إى والله
وإذا به لا يتماسك جوعاً ، فقممت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن
ورب فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت : أصب من هذا فأصاب منه ، وقت
إلى سقاء فيه لبن فصبيت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه فقلت له : لقد
جهدت فما أمرك ؟ قال : أنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاث ما أرى بها أنتظر
أن أرى فرجة فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا حامد إلى مصر ثم
ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه^(٢) . »

وهو يحدثنا بهذا الموقف الوداعي المؤثر في شعره فيقول :

وما أنس ملاءمات لا أنس قولها وقد قربت نضوى : أمصر تريد ؟

ولا قولها : لولا العيون التي ترى أتيتك فأعذرتني فدتك جدود

وهو يعنى هذا الموقف حين يقول :

فمن كان في حبي بثينة يمتري فبرقاء ذى ضال على شهيد

وأقام في مصر والشوق ملء فؤاده ، والحنين إليها لا يزال يعاوده فيذكرها

بالبرق إذا أومض نحو أرضها ، وبالريح إذا هبت من نحو بلادها :

تذكرت من أضحت قرى اللددونه وهضب لتيما والهضاب وعور

فظلت لعينيك اللجوجين عبرة يهيجها برح الهوى فتمور

(١) لعل ذلك كان لحرب ابن الزبير .

(٢) الشعر والشعراء ، والأغاني — ج : ٧ ص : ١٠٣ .

على أتى بالبرق من نحو أرضها وإن قصرت عنه العيون بصير
وأنى إذا ما الريح يوم تنسمت شامية عاد العظام فتسور

ولقد بدأ حب جميل بثينة ألفة توثقت عراها حين كانا يرعيان الإبل ، فثرت به
بثينة فنفرت فصالة البروك التي كان يرد بها الماء فسبها وسبته ، وملح لديه سبابها :
وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب
فقلنا لها قولاً خجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب
وهو يذكر أنه أحبها ولیدا وما زال حبها ينمى في نفسه ويزيد :
علقت الهوى منها ولیدا فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
حتى أنحل ذلك الحب جسمه بعد صحة ، وأضعفه بعد قوة وزلزل كيانه حتى
أنكر من نفسه ما كان يعرف :

تعلقتهما والجسم منى مصحح فما زال ينمى حب جميل وأضعف
إلى اليوم حتى سل جسمي وشفني وأنكرت من نفسي الذي كنت أعرف
وقد ملأ حب بثينة نفسه حتى فاض على أهلها ومنازلها :
وقالوا : يا جميل أتى أخوها فقلت : أتى الحبيب أخو الحبيب
أحبك أن نزلت جبال جسمي وأن ناسبت بثينة من قريب
وهو حب قديم متجدد متصل لا يبلى ولا يحول ، ولا يفلح فيه لوم العذال
أو زجر الزاجرين :
(وقد كان حبكم طريفاً وتالداً وما الحب إلا طارف وتليد)

ألا أيها الحب البرح هل ترى أخاكف يغرى بحب كما أغرى
أجذك لا تبلى وقد بلى الهوى ولا ينتهى حبي بثينة للزجر
ويعجب الناس لهذا الحب ويتعجبون لامتلاكه إياه فيظنون أن به جنسة
أو سحراً وهو يقسم لهم ما به شيء من ذلك :
يقولون : مسحور يحسن بذكرها وأقسم ما بي من جنون ولا سحر^(١)
وقد تغفل هذا الحب في قلبه حتى بلغ سويداءه وتمكن فيه حتى امتنع
على الزوال :

(١) هذا يشير — ولو من بعيد — إلى العنصر العقلي في عاطفة الحب كما قرر علماء النفس .

لها في سواد القلب بالحلب منعة هي الموت أو كادت على الموت تشرف
فهو يرواها مادام حيا ، ويسأل الله أن يجاور بينهما في الموت ، خشية أن يكون
الموت مفرقا للشمل :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى بثينة في أدنى حياتي ولا حشري
وجاور إذا ماتت بيني وبينها فياحبذا موتي إذا جاورت قبري
ولعل من معاد القول أن نذكر أن جيلا كان في حبه موحدا لا يشرك فيه
مع بثينة أحدا ، فقد اشتهر هذا عنه كما اشتهر عن أمثاله ممن ذكرنا ، ونحن واجدون
في شعره وفي أخباره شيئا كثيرا يدل على انصرافه إليها واشتغال نفسه بها
عن غيرها .

فمن ذلك ما يروى أن جيلا نزل في بيت شيخ من عشيرته ، فأراد هذا أن
يغري بناته به ، لعله يصبو إلى إحداهن فينسى بثينة ويذهب مابه من حبهما ففعلن ،
فما وجدن فيه ثنية يطلعن إلى نفسه منها حتى يؤسن منه . فقال هو في ذلك :

حلفت لكما تعلموني صادقا وللصدق خير في الأمور وأنجح
لتكليم يوم واحد من بثينة ألد من الدنيا لدى وأملح
من الدهر لو أخلو بكن وإنما أطالجب قلبا طامحا حيث يطمح^(١)
وهو يروى في شعره أن نساء كن يتعرضن له حين يزور بثينة ، فكان يسوى
بينهن في طرفه حتى لا يبدو عليه الانصراف إلى بثينة ، لقد كان يفعل ذلك
وقلبه مملوء من حبهما ليس فيه لغيرها فضل :

ويحسب نسوان من الجهل أنني إذا جئت إياهن كنت أريد
فأقسم طرفي بينهن فيستوي وفي الصدر بون بينهن بعيد
وكن ياعنه على تمسكه بها ويعرضن عليه الوصل ويزهدهن في بثينة فما كان
يرعوى قلبه أو تنثنى عنها نفسه :

فلرب عارضة علينا وصليا بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر : حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر فلامه فضل وصالك أو أتمك رسائي
ويقلن : إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اجتناب الباطل
وللباطل ممن أحب حديثه أشهى إلى من البغيض الباذل

ويرى جميل أن هذا الحب رابطة مقدسة أحكم الله عقدها وجعل بينهما موثقا
ألا يزول أحدهما عن حب صاحبه ولا يحول :

لقد لج ميثاق من الله بيننا وليس لمن لم يوف لله من عهده
ويتجلى ثباته على الحب ووفائه لهذا الميثاق في أمرين : أولهما عصيانه الوشاة
وإعراضه عن اللاتمين ، بل إن عذل العذال ووشاية الواشين تزيد مودتها عنده
وتعظم مقامها في نفسه وتزيده تماديا في التعلق بها والحفاظ على حبها :

وما زادها الواشون إلا كرامة على وما زالت مودتها عندي

ولا زادني الواشون إلا صباية ولا كثرة الناهين إلا تماديا
فهو لا يطيع فيها أحدا أبدا ، ولا يسمع فيها مقالة ناصح أو لوم لائم ، ولو كان
أخا حميا أو ذا قرابة يهوى له الرشد ويريد به الخير :

لقد لآمني فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه في ملامته رشدي
وقال : أفق حتى متى أنت هائم بيثنة فيها قد تعبد وقد تبدى
فقلت له فيها : قضى الله ما ترى على وهل فيما قضى الله من رد
فإن يك رشدا حبها أو غواية فقد جئته ما كان مني على عهد^(١)

على أنه يخشى عليها أن تستجيب للوشاة وتطيع الكاشحين ، فتذهل عنه
أو تستبدل به غيره :

ألا لا أبالي جفوة الناس ما بدا لنا منك رأيا يا بشين جميل
وما لم تطيعي كاشحا أو تبدلي بنا بدلا أو كان منك ذهول
والأمر الثاني الذي يتجلى فيه ثباته على الحب ووفائه فيه رضاه بحبها وسكونه
إليه : وقناعته فيه بالقليل :

رفعت عن الدنيا المني غير ودها فلا أسأل الدنيا ولا أستزيدها
لا يسأل على ذلك جزاء إلا أن تقارضه ودا بود ووفاء بوفاء :

فهل تجزيني أم عمرو بودها فإن الذي أخنى بها فوق ما أبدى
وهو يقنع منها بما تقر به عين الواشي من وعد لا تعقبه بوفاء ، أو نظرة عجلى
لا تشفى أوام المحب ، أو أمل يخيب فلا يتحقق :

(١) هذا ينبغي بهطل إرادته على حد تعبير الأستاذ العقاد (جميل بيثنة) ويكشف عن ضعف
يعين عليه أن العذول أخ ذو قرابة حبيب إليه الرشد .

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلا به
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لانتقى وأوائله
على أنه يعود في بعض مواضع من شعره فيسألها الوفاء بوعد طال الأمد
بعطاله وهو يبههم فلا يفصح به :

إني إليك بما وعدت لتأظرن نظر الفقير إلى الغنى للكثير
يعد الديون وليس ينجز موعدا هذا الغنى لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذي تعدينني إلا كبرق سحابة لم تظن
وهو يصرح بذلك حيناً آخر فيقول :

هل الحائم العطشان مسقى بشربة من المزن أتروى مابه فتريح
فقلت فنخشى إن سقيناك شربة تخبر أعدائي بها فتبوح
إذن فأباحتنى النايأ وقادنى إلى أجلي غضب السلاح ضبوح
لبئس إذن مأوى الكريمة سرها وإني إذن من حبيكم لصحيح
ولم يخل شعره في بعض مواضعه من البرم بحبها والضيق بما يلاق فيه ، فهو آناً
يلوم نفسه على تماديها في الكلف ببثينة وما أعقبه ذلك من هوان وذل اختارها
على العز والمكان الرفيع :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طالبيها لما فات من عقلى
فيا ويح نفسى حسب نفسى الذى بها ويا ويح أهلى ما أصيب به أهلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله مثلى
أبيت مع الهلاك ضعيفاً لأهلها وأهلى قريب موسعون ذوو فضل

وهو يعنف قلبه آناً آخر ليفيق من حب بثينة ، ويطلب إليه أن يتسلى عنها
ويدع ذكرها ، فهى تبخل عليه بالوصل وتؤيسه من النيل ، وهى قد بعدت
وحيل دونها فما بقى فيها مطمع :

ألا من لقلب لا يعمل فيذهل أفق فالتعزى عن بثينة أجمل
سلا كل ذى ود علمت مكانه وأنت بها حتى المات موكل
فيا قلب دع ذكرى بثينة إنها وإن كنت تمواها تضن وتبخل
وقد أياست من نيلها وتجهمت ولليأس إن لم يقدر النيل أمثل
وإلا فسلمها نائلاً قبل بينها وأبخل بها مسئولة حين تسأل
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها وقد جذ حبل الوصل ممن تؤمل

وإن التي أحبت قد حيل دونها فكن حازما والحازم المتحول
وهذا التناقض إن دل على شيء فإنما يدل على أمانته في تصوير نفسه وما كان
يضطرب فيها من النوازع؛ فهو قبل كل شيء عاشق يغريه الوصل — أيا كان —
بالثبات على الحب والازدياد منه والفناء فيه وفي المحبوب والهجر إن طال واستمر
يؤيسه ويسلمه إلى مثل هذا الصراع في نفسه، وقلب العاشق كالمرآة يجلوها الوصل
وزيد في روتها فيصفو ماؤها ويتلأأ رواؤها، ويرين عليها الهجر فينكسف
شعاعها ويغيض لآلؤها.

والحب كالنبت في القلب منه ما يستقي من الخارج فيرويه وصل الحبيب
وينعشه ويبعث فيه الحياة والنماء، ومنه ما يستمد الرى من أرضه التي ينبت
فيها وأرضه القلب، ولا عجب إن ظهر على النبات شيء من الجفاف واحتاج إلى
شيء من الرى.

وجملة القول في الصورة الأولى لهذا الحب العذرى أنه مظهر صادق لعاطفة
الحب يستولى على النفس يحملها فتخضع له وتمتلى به حتى لا يبقى لغيره فيها مجال.
وهو كما شهدنا في أخبار هؤلاء القوم وأشعارهم يتميز بالمعالم الآتية:

١ — أنه ينشأ من قبل أن تستفيق في النفس الدوافع الجنسية — في الغالب —
ألفة مثل الصداقة بين اثنين في بيت واحد كمروة وغفراء أو حى واحد كجميل
وبثينة وكقيس وليلى وكقيس ولبنى ثم ينمى ويزيد حتى يبلغ بالمحبين مبلغ
التقيم والوله.

٢ — أن عنصر الشهوة فيه لا يكاد يبين والاحتفال بالجسد ضئيل لا يكاد
يذكر وقد مر بنا في أشعار القوم ما يؤيد ذلك وما يظهرنا على أن الصفات
النفسية في هذا الحب للمقام الأول.

٣ — انصراف المحب فيه إلى محبوبة واحدة تملك عليه شعوره وتستأثر
بعواطفه وتملأ عليه نفسه فلا يكاد يلتفت إلى غيرها.

الكتاب الثاني
الحُبُّ العُذْرِي
تَطَوُّرُهُ

تمهيد

فرغنا من الكلام على نشأة الحب العذرى وعن صورته الأولى في الأدب العربي، ونحن الآن بسبيل الحديث عن تطوره. وأعني بتطور الحب العذرى انتقاله من عاطفة يتغنى بها فريق من الشعراء — قلت فيهم وفي بيئتهم ما استطعت — حتى أصبح فكرة يتداولها بعض الكتاب فيحددونها ويحللونها ويشرحونها ويستعينون على ذلك بما تسمعونهم به ثقافتهم في ذلك الحين حتى لقد كتبوا فيها الكتب ووضعوا فيها الرسائل. فمن ذلك كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري، وكتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فقيه الأندلس المشهور ووزيرها الخطير وإمام أهل الظاهر فيها.

ومن طريف أمر هذا الحب أن الباحث فيه يفتقده في الشعراء بعد أولئك الذين ذكرنا في الفصول السابقة فيجده قد حل في بيئة جديدة ما كان يتصور أن يوجد فيها لانشغال أربابها بجد الأمور وبعدهم عما يهيء للأنهار في عبابه. تلك هي بيئة الفقهاء والقراء ممن عرفوا بالتقوى والورع والبعد عن الشهوات. على أن وراثته الفقهاء والنسك للحب العذرى ليست فيما أظن وليدة الصدفة أو الاعتباط بل إن الأمر فيها يكاد يكون طبيعياً لا مرأ فيه ذلك أن الغريزة التي ركبت في الإنسان لحفظ النوع — وسلطانها على النفوس غير منكر — لا بد أن يخضع لها الإنسان^(١) بشكل من الأشكال فإما استهتار وسمي في إشباعها وتطمينها من غير ما ورع ولا تحفظ، أو كبت يجنى منه شذوذاً تقسياً وانحرافاً جنسياً أو تسام يحيلها عاطفة قوية ثابتة مستقرة وقد أطلقنا على مظهر من مظاهر تسامها اسم الحب العذرى.

ومر بنا في حديث الأستاذ مكيدوجل (في الفصل الأول) أن الدين وما يبيت في نفوس المتمسكين به من الشعور بالخطيئة^(٢) يعمل على إعلاء الغريزة الجنسية

(١) أريد بذلك طبعاً وقت أن لا يتيسر له تطمينها بالطريق المشروع وما يشبهه.

(٢) Introduction to Social Psychology, p 363 "Consciousness of Sin".

ويلعين على تسامها ومن ظن أن التقوى والورع يمتتان الغرائز أو يكبتان الدوافع الطبيعية فقد ضل سواء السبيل وإنما تستعلى بهما الغرائز وتسمو بهما العواطف . ونحن نشهد في العصر الإسلامي عصر الراشدين وعصر بني أمية مثلين من هذه الطائفة أولهما عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حفيد أخى عبد الله ابن مسعود الصحابي المعروف برواية الحديث وقراءة القرآن .

١

وكان عبيد الله هذا كعم أبيه من وجوه الفقهاء وكبار رواة الحديث . وهو أحد سبعة من أهل المدينة كانوا في القدمين من أهل الفقه والنسك والعبادة وهم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر عبد الرحمن ابن الحرث بن هشام ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار^(١) . وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة كابن عباس وكنهه عبد الله بن مسعود وأبي هريرة وروى عنه ابن شهاب الزهري وغيره .

وحسبه منزلة في العلم والفقه أن كان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره وأن ابن شهاب الزهري قال فيه : « أدركت أربعة بحور عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحدهم^(٢) » .

وكانت له منزلة اجتماعية مرموقة فكان يجله الأئمة ويتمنون صحبته ومجالسته فكان عمر بن عبد العزيز يقول : « ليت لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بديهة^(٣) » .

وكان يعرف لنفسه قدرها ويعتد بمكانه في الفقه والعلم وبمنزلته في المجتمع فقد دخل عليه محمد بن شهاب الزهري يوماً منزله فوجده ينفخ وهو مغتاط فسأله عن السبب فقال له : « جئت أميركم آتفاً يعني عمر بن عبد العزيز فسألت عليه وعلى عبد الله بن عمرو بن عثمان فلم ير دأ » فقلت :

فسا تراب الأرض منها خلقتا ومنها للعاد والمصير إلى الحشر
ولا تأتفا أن تسألاً وتسألما فما خشى الإنسان شراً من السكر

(٢) الأغاني — ج : ٨ : ص : ٨٨ .

(١) الأغاني — ج : ٨ : ص : ٨٨ .

(٣) الأغاني — ج : ٨ : ص : ٨٨ .

فلو شئت أن ألتى عدوا وطاعنا لألفيته أو قال عندي في السر
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج ويستشري^(١)
وكان عبيد الله فيما يبدو من سيرته مرهف الإحساس مشوب العاطفة فكان
ينفس عن ذلك بقول الشعر وسئل في ذلك فقيل له : « أتقول الشعر في فضلك
ونسكك » فأجاب : « إن المصدور إذا تفت برأ^(٢) » .

وقد وقع هذا الفقيه الناسك في الحب فتعلق بامرأة جميلة أقبلت إلى المدينة
من ناحية مكة من هذيل فخطبها الناس وكادت تذهب بعقول أكثرهم وكان ممن
فتنت من أفاضل أهل المدينة صاحبنا الفقيه فقال فيها :

أحبك حباً لو علمت بمثله لجدت ولم يصعب عليك شديد^(٣)
وحبك يا أم الصبي مدلهي شهيدى أبو بكر وأنت شهيد^(٤)
ويلعلم وجدى القاسم بن محمد وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويلعلم ما أخفى سليمان علمه وخارجة يبدى لنا ويعيد
متى تسأل عما أقول فتخبرى فللحب عندي طارف وتليد^(٥)
ولعله خطبها وتزوجها رغم أن الرواة لا يفصحون عن ذلك إلا أنهم يروون
أنه طلق امرأة له كانت تسمى عثمة عاتبا عليها في بعض الأمر ثم ندم على طلاقها
أشد الندم وكان يقول فيها الأشعار ، فمن ذلك قوله :

لعمري لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح
أروح بهم ثم أغدو بمثله ويحسب أنى في الثياب صحيح
غراب وظبي أعضب القرن ناديا بصرم وصردان العشي تصيح
وهو في ندبه على فراقها ولطفته عليها يذكرنا بقیس بن ذريح وما لاقى بعد
طلاق لبنى من أهوال .

ومن رقيق شعره فيها وهو يفيض باللوعة والأسى :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم ولا مك أقوام ولومهم ظلم
ألا من لنفس لا تموت فينقضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم
أأترك إتيان الحبيب تأثما ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرها قد كنت تحسب أنه رشاد ألا ياربما كذب الزعم

(٢، ١) الأغاني — ج : ٨ : ص : ٩١ — ٩٢ .

(٣) رواية الأغاني : « لجدت ولم يصعب عليك شهيد » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) في الأغاني : « شهيدى أبو بكر وإنى شهيد » وبما صححناه يستقيم الوزن .

(٥) الأغاني — ج : ٨ : ص : ٩٣ .

وأية عاطفة أقوى من العاطفة التي تغلب الفقيه على فقيه فيلوم نفسه على هجران مطلقته وهو يعلم أن زيارتها له في الشرع إثم ، ثم لا يملك إلا أن ينقاد لحبه فيقول : « ألا إن هجران الحبيب هو الإثم » .
ومن شعره فيها وهو يمتاز بصدق العاطفة وحرارة اللوعة وشدة التأثير في نفس القارىء .

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فيم فالتأم الفطور
وأثقت جارحاك سواد قلبي فأنت على ما عشنا أمير^(١)
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيرو لو أن إنسانا يطير
وقد ليم على شدة وجده وقوله الشعر في ذلك فقال : « في اللدود راحة النفود »
ويظهر أن حب عثمة قد بلغ به مبلغا عظيما وبرح به تبريحا شديدا حتى قضى عليه . فقال فيه ابن عباس : « هذا قاتل الهوى لا عقل ولا قود^(٢) » .

٢

والمثل الثاني على ما نحن بصده فقيه قارىء ناسك من أهل مكة عرف بالورع واشتهر بالعبادة والنسك ، ذلك هو عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي الملقب بالقس فقد شغف بسلامة المغنية المعروفة في العصر الأموي وهام بها فاشتهر أمرها حتى عرفت بقلبه ، فقبل لها « سلامة القس » . وكانت سلامة قينة من قيان سهيل ابن عبد الرحمن . وقد سمع القس غناءها على غير تعمد منه فأعجب به وبلغ من نفسه أعظم مبلغ فراه مولاهما وعرض عليه أن يخرجها إليه فأبى أو يدخل إليها فيسمع غناءها فأبى فلم يزل به حتى خرجت إليه وغنت بين يديه فتعلق بها وتعلقت به ، ثم إن المحبة توكدت بينهما واشتهر أمرها حتى شاع في أهل مكة . وكان عبد الرحمن يلم بها فيسمع غناءها ويتحدث إليها فيبذل بذلك أوامره ويطفي هيامه^(٣) .

(١) هذا البيت في رواية الأغاني يأتي بعد الذي يليه . وهو أوثق صلة بقوله : صدعت القلب ... الخ فلذلك جعلناه بعده .

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم — ط دمشق ص ٥ .

(٣) الأغاني — ج : ٨ ص : ٦ .

ويروى أنه خلا بها ذات مرة فأخذها بأطراف الأحاديث فقالت له فيما قالت :
« أنا والله أحبك » فقال لها : « وأنا والله أحبك » قالت : « وأحب أن أضع فمي
على فمك » قال : « وأنا والله أحب ذلك » قالت : « فما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لخال »
قال : « إني سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا
المتقين » وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة » . ثم قام
وانصرف وطاد إلى ما كان عليه من النسك ^(١) .

ولهذا الخبر عندي دالتان الأولى هذا السلطان القاهر لعاطفة الحب يغالبه
العابد الناسك ثم لا يلبث أن يستسلم له طوعا أو كرها ويعترف بقوته وهيمته
عليه اعتراف من لا حيلة له في دفعه ولا حول له في الاتقالات من ربقة .

قد كنت أعذل في السفاهة أهليها فاعجب لما تأتى ^(٢) به الأيام
فالיום أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام
والدلالة الثانية هي تأييد ما قدمت من أثر الدين في نشأة هذا النوع من الحب
وأثره البعيد في إعلاء الغرائز وسمو العواطف بما يوحى في نفس المتمسك به من
الشعور بالخطيئة ، وذلك يتجلى على أحسن وجه وأتم صورة في قول عبد الرحمن
لسلامة بعد استشهاد بالآية الكريمة : « وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك
تؤول إلى عداوة » هو إذن يعرض عن طاعتها فيما دعت إليه خوفا من الله وإبقاء
على حبها وحرصا عليها .

ولعبد الرحمن القس في سلامة شعر رقيق ينم عن نفس دمثة رقيقة الحاشية
وشعور مرهف شديد الحساسية ، فمن ذلك قوله :

إن التي طرفتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعلمنا وتحبب أنما في ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الضياء لناظر فإذا ذلك بيننا أحلام
ومنه قوله :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألا ليت أني حيث صار بها النوى جليس لسلمى حينما عيج مزهر
وأني إذا ما اللوت زال بنفسها يزال بنفسى قبلها حين تقبر

(١) الأغاني — ج : ٨ من : ٦ .

(٢) في رواية الأغاني « تؤتى » ولعل ما أثبتناه أصح .

وقوله :

أهابك أن أقول بذلت نفسي ولو أنى أطيع القلب قال
حياء منك حتى سل جسمي وشق على كتمانى وطالا

قلت في أول هذا التمهيد إن الحب العذرى بعد نشأته في الحجاز ودروجه بين شعراء باديتها قد التمس له منزلا آخر أقام فيه على الرحب والسعة فوجد في بيئة الفقهاء والقراء والعباد . وكان ظهوره أول الأمر في الحجاز أيضاً وهذا أمر يتقبله الباحث بلا دهشة ولا عجب فقد عرف عن فقهاء الحجاز وعلمائه أنهم على جانب عظيم من سعة الصدر لئلا ذلك . فكانوا يستمعون إلى الغناء ويطربون له ويعجبون به ويروون الشعر الغزلي العفيف وغير العفيف ولا يتخرجون من روايته في مجالسهم . وحسبنا دليلاً على ذلك خبر الأمة عبد الله بن عباس وما يروى عنه من الأخبار في هذا الصدد .

أما الذي يندعش له الباحث ويتعجب منه فهو ظهور هذا الحب في بيئة عرف فقهاؤها بالترمت وضيق الصدر بمثل هذه الأمور ، حتى إنهم كانوا يأخذون على فقهاء الحجاز تساهلهم وتسامحهم في سماع الغناء وما هو منه بسبيل ، أولئك هم فقهاء العراق وتلك بيئتهم . ويزيد في دهشة الباحث أن يكون إمام هذا المذهب في الحب إمام لمذهب في الفقه لا يحكم قياساً ، ولا يؤول نصاً ، وإنما يأخذ بالظاهر ، ذلك هو أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصمباني الظاهري .

ولم يقتصر أمر هذا الحب على أخبار تحكي ، وأشعار تقال وتروى ، بل لقد كتبت فيه الكتب ووضعت فيه الرسائل . فكتب أبو بكر بن داود كتاب الزهرة لحبيبه محمد بن جامع الصيدلاني البغدادي . واقتنى أثره من بعده الفقيه الظاهري الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فكتب رسالة طوق الحمامة في الألفة والألاف .

ويحسن قبل الحديث عن محمد بن داود وكتابه وابن حزم ورسائله أن نعرض لمن سبقهما إلى الكتابة في الحب ومن حاول أن يجعل منه فكرة يخضعها للبحث .

١

وأول بارقة نلمحها في تاريخ الأدب العربي حديث جماعة من المتكلمين والنظار في مجلس يحيى بن خالد بن برمك يرويه المسمودي . وجلة ما فيه أنه كان ليحيى ابن خالد بن برمك مجلس ينتظم فيه جماعة من أهل البحث والنظر وعلماء الكلام من المسلمين وغيرهم من أهل النحل والآراء . فطلب إليهم يحيى ذات يوم أن يتكلموا في العشق فيقول كل منهم ما يسبح له فيه وما يخطر عنه بباله .

فابتدأ الكلام متكلم من الإمامية اسمه علي بن الهيثم فقال : « أيها الوزير العشق ثمرة المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين وهو من بحر اللطافة ورقة الصنمية وصفاء الجوهر ، وليس يحد لسعته ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

فقال الثاني وهو أبو مالك الحضرمي من الخوارج : « أيها الوزير : العشق ثقت السحر وهو أخفى وأحر من الجمر ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشككين وله تقول في القلب كتقول صبيب المزن في خلل الرمل وهو ملك على الخصال تنقاد له العقول وتسكن له الآراء » .

وقال محمد بن الهذيل العلاف المعتزلي : « أيها الوزير : العشق يختم على النواظر ويطلع على الأفئدة يرتقي في الأجساد مسرعة في الأكباد وصاحبه متصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ولا يسلم له موعود تسرع إليه النواذب وهو جرعة من نقيع اللوت ونفبة من حياض الشكل غير أن العشق من أريحمة تكون في الطبع وطلاوة توجد في الشماثل ، وصاحبه جواد لا يصفى إلى داعية المنع ولا يسبح لنازعة العذل » .

وقال هشام بن الحكم شيخ الإمامية في عصره : « أيها الوزير العشق حباله نصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص في النواذب فاذا علق المحب في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وتكافؤ في الطريقة وملاءمة في الهمة له مقتل في صميم الكبد ومهجة القلب يعقد اللسان الفصيح ، ويترك المالك مملوكا ، والسيد خولا ، حتى يخضع لعبد عبده » .

وقال إبراهيم بن سيار النضام : « أيها الوزير : العشق أرق من السراب ، وأدب من الشراب ، وهو من طينة عطرة عجنت في إناء الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد فاذا

فرط عاد خبلا قاتلا، وفسادا معطلا، لا يطعم العلاج في صلاحه ، له سحابة غزيرة
تهمى على القلوب فتعشب شغفاً وتثمر كلفاً ، وصريعه دائم اللوعة ضيق التنفس
شارف للزمن ، طويل الفكر إذا أجنه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه
البلى وإفطاره الشكوى .

وقال علي بن منصور من نظار الشيعة الامامية : « العشق — أيها الوزير —
داء لطيف الربى ، يمتزج بالنفس ويخامرها ويمشي في الآراء فيفيض فيها لا يصحو
شاربه ولا يفيق نزيغه ، وهو من ناحية المطابقة والمجانسة في التركيب والصنعة » .

وقال معتمر بن سليمان من شيوخ المعتزلة : « العشق — أيها الوزير — نتيجة المشاكلة
وغرس المشابهة . له ديب كديب النمل أسيره شديد الوثاق وصريعه قلما يقام
وهو تعارف الطبائع واتصال الأرواح وتداعى الضمائر وتجاوز الضرائب والتمتع
به لا يتم سروره توقعا للفراق وعند التلاقى نوقيا للوشاة سمته الفلاسفة هاذم المسكة
وهادم البنية » .

وقال بشر بن المعتمر المعتزلى شيخ البغداديين : « العشق — أيها الوزير — منفاة
للهجوع ، مدعاة للخضوع ، صاحبه أذل من النقد وإن كان في شدة الأسد يهش
لكل عبد ويؤسر بكل طبع يتفوه بالأمانى ويتعلل بالأطاع » .

وقال ثمامة بن أشرس : « العشق — أيها الوزير — هو إذا تفاوحت جواهر
النفوس بوصول المشاكلة والمناسبة والساكنة انبعث لمخ نور ساطع تستضيء به
نواظر العقل وتهتز لإشراقه طبائع الحياة فتصير من ذلك الملح نورا خالصا لا صقا
بالنفس متصلا بجوهرها يسمى عشقا » .

وقال السكال الإمامي : « أيها الوزير : العشق وليد السامحة وعقيب المناسبة
وهو دليل على روح المحبة وشاهد على رحم التجانس فهو يسور في البنية سوران
الشراب وصاحبه نير القريحة ، مشرق الطبيعة ، فائق الشماثل ، وفي حركات حسه
شواهد للأبصار ، فإذا أراد إعزاز أحد ابتدأه بذلة » .

وقال الصباح بن الوليد من المرجئة : « العشق — أيها الوزير — يعدى خبره دون
أنره ولا يشنؤه قلب امرئ ، موسوم بالبراءة ولطف الصورة ولا يعلو إلا عن
نسب التشاكل وإلى غاية الرقة يضاف صاحبه » .

وقال إبراهيم بن ملك : « العشق — أيها الوزير — سوانح تسنح للمرء تعجزه تارة وتوسئه ^(١) أخرى وهي التي تضرم أحشاه بوجد قلبه » .

وقال الموبذ : « العشق — أيها الوزير — نار تاجح في تأمور القلب يتوهج ضرامها بين الجوانح واللب فتوجد بوجود الأشخاص والتحام الأجرام لأن منشأها عن حركات حيوانية وعلل هيولانية وهو ربحان التصابي وبستان التحابي ومستراح الروح ومنزهته الاسطغسات تولده والنجوم تنتجه والأرايح تلحجه وعلل الأسرار العلوية تصوره ثم العشق من سنخ الجواهر وكرم العناصر وتداعى الضمائر واتفاق الأهواء وتمازج الأرواح وتراوح الأنشباح ونخالص القلوب وتعارف الأفئدة ، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وذكاء الفطنة وشحوذ الحاسة وصفاء المزاج واستواء التركيب والتأليف ، لأن علله علوية تنبعث بحركات فلكية وتنسق فروعه بحواس جسدانية ^(٢) » اهـ .

هذا المجلس وما قيل فيه يذكرنا بالمجلس الذي انتظم عقده في بيت أجاثون بمد الوليمة التي أقامها لأصحابه وكان فيهم سقراط وكيف اقترح عليهم أريكسيماخوس أن يتكلموا في الحب ويتناقشوا فيه فيدلى كل من الحاضرين برأيه في الحب وكيف يحدث ولماذا ينشأ ؟ ذلك المجلس الذي روى خبره وما دار فيه من الحوار أفلاطون في كتابه المعروف باسم المائدة أو الوليمة الإفلاطونية " Symposium " ^(٣) أما الأفكار الأساسية والمعاني العامة التي حام حولها المتحدثون في مجلس يحيى بن خالد بن برمك فتكاد تنحصر في الكلام على طبيعة الحب ومنشئه وما يفعله بالحب . وتفصيل ذلك أن جل المتحدثين رجع بالحب إلى المشاكاة والموافقة بين النفوس (على بن الهيثم) والمطابقة والمجانسة في التركيب (على ابن منصور) وتعارف الطبائع واتصال الأرواح وتداعى الضمائر وتجاور الضرائب (معتز بن سليمان) وجعلوه وليد المسامحة وعقيب المناسبة وشاهدًا على رحم التجانس (السكال) . وبعضهم أشار إلى أنه ينشأ من أريمية في الطبع وطلاوة في الشمائل (محمد بن الهذيل العلاف) ومن اعتدال في الصورة وتكافؤ في الطريقة (هشام بن الحكم) .

(١) لم أجد لها في المعجم معنى ولا ذكرًا ولعلها توشه أو تويسه .

(٢) مروج الذهب للمسعودي — ط : باريس ج ٦ ص : ٣٦٨ — ٣٧٦ .

(٣) من تفصيل الكلام عليه في الفصل الأول من الكتاب الأول .

وحديثهم عن المشاكلة والموافقة والتآلف بين النفوس يذهب بالفكر مذهبين ويذكره لهذه الفكرة بمصدرين أحدهما الحديث المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» والمصدر الآخر هو ما جاء في المائدة الأفلاطونية عن النفوس في أصل خلقها وكيف قسمت كل واحدة منها جزئين^(١) لا يزال يحن أحدهما إلى الآخر حتى يصل بينهما الحب .

والقوم فقهاء متكلمون ونظار متفلسفون لا يبعد أن يطلعوا على المصدرين ويتأثروا بهما في آن واحد^(٢) .

فأما حديثهم عن اعتدال الصورة وأريحية الطبع وطلاوة الشئائل فجعل لما فصله من بعدهم الشيخ الرئيس ابن سينا في الفصل الذي جعل عنوانه : «عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان»^(٣) .

وفيه من حديث القوم أنهم ينظرون إلى العشق كقوة تفعل فعلها في النفوس فتصل بينها وفي الأرواح فتجتمع شملها إلا الموبذ قاضي المجوس فهو يشعرنا بأنه يعتبر العشق اتصال الأشخاص والتحام الأجرام ويعمل ذلك بأن منشأه عن حركات حيوانية وعلل هيولانية على أنه لا يلبث أن ينقض ما أبرم فيزعم أن علله علوية تنبعث خواطره بحركات فلسفية .

وكلامهم في طبيعة الحب وما يفعله بالحب يجعله أن الحب ملك الخصال تنقاد له العقول وتسكن له الآراء وأن له تفولا في القلب كتفول صبيب الزن في خلل الرمل وأنه يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة وأنه حلو المجتنى ما اقتصد وأن صاحبه نير القريحة مشرق الطبيعة فأفق الشئائل ، إلى غير ذلك من المظاهر التي تبدو على العشاق .

٢

وفي رسائل الجاحظ رسالة صغيرة عنوانها «رسالة في العشق والنساء» يبدوها بأن يقول : إنه لم يطنب في الكلام على العشق المعروف بالصباية وما فيه من

(١) حديث ارستوقانس في كتاب المائدة : — Symposium, p 135—147 —

(٢) اطلاعهم على كتاب المائدة مشكوك فيه لأنها ترجمت — إن كانت ترجمت — في القرن الثالث وهذا المجلس يسبق هذا التاريخ .

(٣) رسالة العشق لابن سينا في كتاب جامع البدائع ص : ٧٠ وما بعدها .

إدخال الضيم على مروءة العاشق واستشعاره الذلة لمن أطاف بعشيقته وذلك اتقاء الطعن على الكتاب وسخف الرأي الذي دعا إلى تأليفه .

ثم يضع للعشق تحديداً يقول فيه : « العشق اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه حب كما أن السرف اسم لما زاد عن الجود . وقد يكون العشق لغير المرأة يكنون به عن شدة التعلق . قال عروة بن الزبير : إني لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسنة » .

ثم يذكر أن الحب من أكبر أسباب الخير والبغض من أكبر أسباب الشر ، ويقول : « وتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطليبه ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فإن موقع الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج ^(١) » .

وباب آخر من أبواب الرسالة يذكر في فصل منه أنه لم يجد أحداً عشق والديه ولا ولده ولا من عشق مركبه ومنزله وإنما يكون العشق للنساء الحرام . قال الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » .

ثم يوازن بين الطرب بالغناء وبين لقاء الحبيب ويتساءل لم لا يطرب المحب للقاء حبيبه كما يطرب لسماع الغناء (فيشق حبيبه وينقض حبوته ويفدى غيره . الخ) ؟ ويجيب عن ذلك بأن المحب يشغله الرشف والشم والعناق عن ذلك ثم إن الطرب للغناء مجتاز لا يدوم ولذة المتعاشقين دائمة .

ثم يستطرد كعهدها به فيوازن بين غناء النساء وغناء الرجال ويفاضل بينهما فيفضل غناء النساء ويعقب على ذلك بأن الغناء بالشعر الغزل من حق النساء وليس للرجال أن يشر كوهن فيه .

وفصل آخر يقول فيه إن المرأة أرفع حالا من الرجل في أمور منها أنها هي التي تخطب وتعشق .

وهي فصول قصيرة يستطرد فيها إلى أشتات من المعاني لا يلم شملها جامع ، يقول في فصل منه في ذكر العشق : « رجلان لا يعشقان عشق الأعراب أحدهما الفقير المدقع فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن في الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر وتقاذم النهي وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل

(١) رسائل الجاحظ الرسالة السابعة في العشق والنساء — ط مطبعة التقدم ص : ١٦٢ .

شطر قوى العقل عن التوغل في الحب والاحتراق في العشق^(١) .
وفصل آخر يتكلم فيه عن السلو العارض يطرأ على العاشق لغضبة أو خلاف
فيفارق معشوقه ويظن أن قد سلاه ، ثم إذا تطاول العهد عاوده الحنين وملكه
الشوق فيندم ولا ينفعه الندم .
ويستطرد بعد ذلك إلى أمور من الحياة الاجتماعية في عصره ليس فيها جليل
فائدة وليس لها كبير قيمة^(٢) .

٣

ويذكر أبو بكر بن داود أنه سبق إلى التأليف في الحب ولا يسمى أحداً من
هؤلاء الذين سبقوه وإنما يشير إليهم إشارة مبهمه يقصد منها إلى لوهم والعيب
عليهم . وهو حين يذكرهم يصرح بأنهم كثير : « وقد رأيت كثيراً ممن ينسب
نفسه إلى الأدب ويتحقق بتأليف الكتب قصد في مثل هذا الكتاب إلى مقصد
يبعد عندي من الصواب ابتداء يذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر
بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين^(٣) » .
ونحن لا نعرف قبله أحداً ألف في الحب وكتب فيه كتاباً وليس لدينا
ما نكشف به ضمن قصد بعبارة هذه .

(١) رسائل الجاحظ ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص : ١٦٦ — ١٦٩ .

(٣) كتاب الزهرة ص : ٤ .

الباب الأول

محمد بن داود الظاهري

الفصل الأول

حياته وجماله

١

هو أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود بن علي بن خلف الأصهباني الظاهري وأبوه أبو سليمان داود بن علي مؤسس المذهب الظاهري وشيخه الأول^(١). ولد أبو بكر سنة ٢٥٥ هـ ولم يذكر للتورخون الموضع الذي ولد فيه إلا أنه لا يعدو أن يكون بغداد.

نشأ رقيق الطبع مرهف الحس عصبى المزاج وزاد في رقة طبيعه ودماثة خلقه ما اكتسبه من الآداب التي كانت شائعة بين أهل الأدب في بغداد^(٢).

يروى الخطيب بسنده عن رويم بن محمد أنه قال: «كنا عند داود بن علي إذ دخل عليه ابنه محمد وهو يبكي فضمه إليه وقال ما يبكيك؟ قال: الصبيان يلقبوني. قال: فعلى أيش حتى أنهام؟ قال: يقولون لي شيئاً. قال: قل لي ما هو حتى أنهام عن الذي يقولون. قال: يقولون لي يا عصفور الشوك. قال: فضحك داود فقال له ابنه: أنت أشد علي من الصبيان، مم تضحك؟ فقال: داود لا إله إلا الله، ما الألقاب إلا من السماء، ما أنت يا بني إلا عصفور شوك^(٣)».

(١) كان علي بن خلف أبو داود يتولى كتابة عبد الله بن خالد الكوفي قاضي أصهبان أيام المأمون وسكن ابنه داود بن علي بغداد وهو في أصله من قاشان:

Goldziher : Zahiriten pp 225-226

(٢) يذكر ماسينيون في كتابه «الحلاج» أنه كان صديقاً لابن المعتز وينسب ذلك إلى جولد زيهر وليس فيه إشارة إليه.

(٣) تاريخ بغداد المجلد (٥) ص: ٢٥٦ و. Journal Asiatique Tome X p 86 C. Barbiar de Meynard : Surnoms et Sobriquet dans la Litterature Arabe.

وهكذا كان أبو بكر خجولا شديدا الحساسية من فجر حياته وبقي كذلك حتى لقي ربه . فقد روى عنه فيما بعد أنه اعتاد أن يدخل الجامع من باب الوراقين فيجره أيا ما . فسئل في ذلك فقال : « دخلت يوما فرأيت متحايين يتحداثان فتفرقا منذ رأياني فأليت أن لا أدخل مكانا فرقت فيه بين محبين ^(١) » .
وقد أركبته شدة إحساسه وإرهاق شعوره مركبا صعبا وأوردته موردا عسير المصدر إذ ابتلى بالحلب من أول صباه . فيروى عنه أنه قال : « ما اتفككت من هوى منذ دخلت الكتاب ^(٢) » .

ولعل هذا يبدو غريبا لأول وهلة . إذ كيف يعشق الصبي وكيف يبتلى بالهوى وهو في الكتاب . إلا أن الشعور للرصف والإحساس الشديد يفسران لنا ذلك فإن هذا الذي ما اتفك منه محمد بن داود منذ دخل الكتاب ليس هو الهوى الذي نعرفه ؛ الهوى الذي توقد جذوته الغريزة وهي لا تظهر في الصبي وهو في سن الكتاب ولكنه صداقة وألفة يبالغ فيها الشعور للرصف غير الطبيعي فيبدوان في مظهر الهوى للشبوب أو أشد منه .

وقد أتم محمد بن داود حفظ القرآن وهو في سن السابعة وحفظ كثيرا من الشعر القديم وهو في العاشرة . وكان شيخه في علوم الأدب أبو العباس أحمد ابن يحيى الشيباني المعروف بشعلب وعنه يروى في كتاب الزهرة كثيرا . وكان فيما يظهر صديقا لأبي عبادة البحتري وهو يروى عنه كثيرا من الشعر ويقول أحيانا : « أنشدني أبو عبادة البحتري لنفسه ^(٣) » .

وفي سنة ٢٧٠ توفي أبوه فجلس مجلسه وخلفه في إمامة أهل الظاهر وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره فاستصغره الناس ودسوا إليه من يسأله عن السكر ما هو ومتى يكون الإنسان سكران فقال لهم : « إذا غربت عنه الهموم وباح بسر الهموم » فاستحسنوا منه هذا الجواب وعلموا موضعه من العلم ^(٤) .
وله في الفقه والأصول كتب منها كتاب الوصول إلى معرفة الأصول . وكتاب الإنذار ، وكتاب الإعذار ، وكتاب الاتصاف على ابن جرير وعبد الله ابن شرشير وعيسى بن إبراهيم الضرير ، وكتاب الإيجاز ^(٥) .

(١) تزيين الأسواق — ج ٢ ص ٣ .

(٢) تاريخ بغداد — م ٥ ص ٢٥٩ .

(٣) يراجع مثلا ص ٢٩٣ من كتاب الزهرة .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد وجولد نسهر .

(٥) مهراج الذهب — ج ٨ ص ٢٥٤ ط باريس والفهرست ص ٢١٧ .

وهناك جانب فامض في حياة صاحبنا لا نكاد نتبين أعلامه . ففي شعره حديث
عن مواضع بالبادية ، تحن إليها نفسه ، ويهفو إليها قلبه ، وهو ما ينفك يندب
عبدًا كان له فيها :

إلى الله أشكو عبرة قد أظلت وتقسا إذا ما عزها الشوق ذلت
تحن إلى أرض الحجاز ودونها تنائف لو تسرى بها الريح ضلت
سقى الله رمل القاع فالقاع فاللوى فقد عطفت نفسي عليه وحننت
وأسقى لوى جبلى زرود ومربضا سحائب لا يلقى الظما ما أظلت
هممت فلم أربيع على الفكر لحظة وقد كان حظ النفس أن لو^(١) تأنت
وأصبحت لهفانا على ما أضعته كذلك يكون رأى مالم^(٢) يثبت
ومن ذلك أيضاً قوله :

سقى الله رمل القاع وبلاد ديمة لتحني به تلك الرسوم الدوارس
أشوقا إلى نجد ودون لقائها أهاويل يخشى قطعها وبسابس
على أن عبد الشوق ليست تهوله حزون الفيافي والليالي الدوامس
بما حبلت فلتأنتى من بلائها فليس لما يقضى به الله^(٣) حابس
وهو يفصح عن ذلك في موضع آخر من شعره فيذكر حبيبه بعهدهما في
الوادي المعظم فيوحى إلى القارئ أنه صحبه إلى الحجاز للحج :

أأنسيت عهدينا بواد معظم وليس بذى زرع سوى الحنات
وأنت حرام حرمة الحج وللوى على العين إلا هفوة اللحظات
ويزيد هذا الأمر تأكيداً أنه يروى عن الأعراب وأهل البادية فيقول :
« أنشدنى أعرابى بالبادية^(٤) وأنشدتنى أعرابية بالبادية^(٥) » وأنشدنى أعرابى
ببلاد نجد^(٦) .

كل هذا يوحى إلى الباحث في سيرته أنه خرج إلى البادية ولكن لأى سبب ؟
أالحج أم أنه خرج إليها ليأخذ اللغة الفصيحة عن أهلها ، ويروى عنهم الشعر ؟ .
ذلك ما لا أبيع لنفسى أن أقطع فيه برأى أو أحكم فيه حكماً حاسماً .

(١) المعنى في هذا البيت مضطرب والتركيب وقد جهدت في فهمه وتلويحه فما أفلحت .

(٢) كتاب الزهرة ص ٢٠٥ . (٣) كتاب الزهرة ص ٢٠٨ .

(٤) » » » ٢٥٧ وص ٢٦١ .

(٥) » » » ٢٩٢ .

(٦) » » » ٢٠٩ وص ٢٥٧ وص ٢٦٢ .

واشتهر أبو بكر بالشعر والأدب فوق اشتهاره بالفقه حتى لقد شاع شعره بين اللغنين . يروى عن القاضي أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدي أنه قال : « كنت أسير أبا بكر محمد بن داود بن علي ببغداد فإذا جارية تغني بشيء من شعره وهو :

أشكو غليل فؤادي أنت متلفه شكوى عليل إلى إلف يعلمه
سقمى تزيد مع الأيام كثرته وأنت في عظم ما ألقى تقلله
الله حرم قتلى في الهوى سفها وأنت يا قاتلي ظلما تحمله
فقال محمد كيف السبيل إلى استرجاع هذا ؟ فقلت : هيأت اسارت به الركبان^(١) .
وحكى بعض من كان يحضر مجلسه أن رجلا دخل عليه ورفع إليه رقعة
فأخذها وتأمل فيها طويلا فظن من في المجلس أنها مسألة في الفقه يسأله الفتوى
فيها فقلبها وكتب على ظهرها وردّها إلى صاحبها ونظر من في المجلس فإذا الرجل
علي بن العباس بن جريج الرومي وإذا هو قد كتب له في الرقعة :

يا ابن داود يا فقيه العراق أفتنا في قوائل الأحداق
هل عليهن في الجروح قصاص أم مباح لها دم العشاق
وإذا بأبي بكر قد كتب له على ظهر الرقعة :

كيف يفتيكم قتيل صريع بسهام الفراق والاشقياق
وقتيل التلاق أحسن حالا عند داود من قتيل^(٢) الفراق

ومن طريف سيرته ما يروى عن مناظراته مع الفقيه الشافعي أبي العباس بن
سريج البغدادي^(٣) . وكان مجلس القاضي أبي عمر محمد بن يوسف قاضي القضاة
أنشد حلبة للساجلة بينهما . وكان ابن سريج كثيرا ما يتقدم أبا بكر في الحضور إلى
المجلس فسبقه أبو بكر ذات مرة فسأله حدث شافعي عن العود الموجب للكفارة
في الظهار ما هو ؟ فقال إنه إعادة القول ثانياً وهو مذهبه ومذهب داود . فطالبه
بالدليل فشرع فيه ودخل ابن سريج فاستشرحهم ماجرى فشرحوه فقال ابن سريج

(١) تاريخ بغداد م ٥ ص ٢٥٩ .

(٢) » » م ٥ ص ٢٥٦ وابن خلكان .

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي شيخ المذهب وحامل لوائه كان يفضل على جميع
أصحاب الشافعي حتى على المزني . وقد ناظر الامام داود الظاهري وابنه أبا بكر ولما مات أبو بكر
نحى ابن سريج مساوره ومخاضه وجلس للتغزية وقال ما آسى إلا على تراب أكل لسان محمد بن داود .
توفي سنة ٣٠٦ هـ . (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي — ج ٢ ص ٨٧) .

لابن داود أولا يا أبا بكر أعزك الله هذا قول من من المسلمين تقدمكم فيه؟ فاستشاط أبو بكر من ذلك وقال أتقدر أن من اعتقدت قولهم اجماع في هذه المسألة اجماع عندي، أحسن أحوالهم أن أعده خلافاً وهيئات أن يكون كذلك. فغضب ابن سريج وقال له أنت يا أبا بكر أبصر بقولك: «من كثرت لحظاته دامت حسراته» منك بهذه الطريقة. فقال: لئن قلت كذلك فإني أقول:

أزله في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهديما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاصي رده لتكلمنا
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فما أن أرى جباً صحيحاً مساماً

فقال ابن سريج وبم تفتخر على؟ ولو شئت لقلت:

وساهر بالغنج من لحظاته قد بت أمنعه لذيذ سمناته
ضنا بحسن حديثه وعتابه وأكرر اللحظات في وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولي بخاتم ربه وبراته
فقال أبو بكر بن داود لأبي صهر: «أيد الله القاضي قد أقر على نفسه بالمبيت على الحال التي ذكرها وادعى البراءة مما توجبه فعلية إقامة البينة. فقال ابن سريج «من مذهبي أن المقرر إذا أقر إقراراً وناطه بصفة كان إقراره موكولاً إلى صفته فقال ابن داود للشافعي: في هذه المسألة قولان. فقال ابن سريج: فهذا القول الذي قلته اختياري الساعة. فقال لهما القاضي: «لقد جمعتا ظرفاً ولطافاً وفيما وعلماناً»^(١).

٢

وقد تعلق أبو بكر بفتى كان يزامله في الكتاب هو محمد بن جامع الصيدلاني وكان يقطن في الكرخ وقد صرح أبو بكر باسمه وباسم علمته في قوله:
أهيم بذكر الكرخ منى صباية وماي إلا حب من حبل بالكرخ
تجرعت كأساً من صدود محمد فقد أوهنت عظمي وجازت على المخ
وكان محمد بن جامع هذا فيما بعد صيدلانياً يبيع العطار في بغداد^(٢).
أحبه أبو بكر في صباه يوم كان في الكتاب وباده محمد بن جامع حبه

(١) تاريخ بغداد وابن خلكان وغيرهما.

(٢) تزيين الأسواق — ج ٢ ص ٢٠.

يحب مثله فكان ينفق عليه فيما بعد (وما عرف فيما مضى من الزمان معشوق ينفق على عاشقه إلا هو^(١)).

واشتهر أمرها وشاع وقال أبو بكر فيه الشعر الذي سارت به الركبان وانتشر في أوساط الغناء وعرفته المقامات الأدبية والفقهية في بغداد . حتى لقد دخل أبو بكر محمد بن داود على أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني أستاذه في علوم الأدب يوماً فقال له : « أهنا شيء من صبوتك . فأنشده محمد :

سقى الله أياماً لنا وليالياً لهن بأكناف الشباب ملاعب
إذ العيش غص والزمان بغرة وشاهد آفات المحبين^(٢) غائب
وبلغ أمرها من الاشتهار مبلغاً لم يريا معه أن يخفيه فكانا يظهرانه
ولا يباليان بل لقد بلغ بهما ذلك مبلغ الاستهتار إن جاز أن يطلق هذا على العلاقة
التي كانت بينهما . يروى أن محمد بن جامع جاءه يوماً وهو يضم على وجهه برقعاً
فلما رآه أبو بكر أغشى عليه فأخبره ابن جامع أن ليس به بأس ولكنه خرج
من الحمام فأعجبته وجهه فأراد أن لا يمتع به أحداً قبله^(٣) .

على أن هذا الحب الكيد وهذا الود الخالص لم يسلماً من أن يلابسهما ما يلابس
الحب من أحوال تتقلب بين الوصل والهجر والإقبال والصد والوفاء والغدر .
وقد أودع هذا في شعره لحفظ لنا من أخبار علاقته بحبيبه ما أغفلته كتب
التاريخ والتراجم . فهو يحدثنا تارة أن حبيبه غضب عليه وهجره وما حاد ينعطف
إليه وكما حاول أن يلفت إليه وجهه أو يعطف إليه قلبه تهادى الحبيب في هجرانه
فهو يغرى بالهجر كما يغرى محبه بألفته ووداده :

مالي ألفت وجهها غير ملتفت نحوى وأعطف قلباً غير منعطف
يغرى بهجري كما أغرى بألفته هذا لعمرى وداد جد مختلف
حجبت عني عن الدنيا ونضرتها شوقاً وأبرزتها للحزن والأسف
ألا تسكن تلفت نفسي عليك فقد أصبحت والله مشتاقاً إلى التلف
وهو في آن آخر يشكو جفاء حبيبه متستراً خلف حكمة في الحب يلقها .
ولو أفصح لقال : إنه يقامى من جفاء حبيبه على قرب داره وتداني مزاره
ما لا يقاسيه الغريب النازح :

(٢٠١) تاريخ بغداد م ٥ ص ٢٥٦ .

(٣) تاريخ بغداد وتزيين الأسواق . ويبدو أن إظهار ذلك لم يكن غريباً في ذلك الزمان وإنما
كان أمراً مألوفاً أو قريباً من المألوف وفي خبره مع ابن سريج ما فيه الكفاية .

لعمرك ما قرب الديار بنافع إذا لم يصل جبل الحبيب حبيب
وليس غريبا من تناءت دياره ولكن من يحنى فذاك غريب
ومن يغترب والإلف راع لعهد وإن جاوز السدين فهو قريب
ومن طريف معانيه في الحب أنه يتخذ من صدود حبيبه دليلا على وده ومن
عتابه دليلا على حظوته لديه وخطره عنده :

صدودك عنى إذ أسأت يسرنى ولم أر قبلى عاشقا سر بالصد
سررت به أنى تيقنت أنما دماك إليه رغبة منك فى ودى
ولو كنت فى زاهدا لم تبال بى ولكنما عتب المحب من الوجد
فيا فرحة لى إذ رأيتك طائبا على لذنب كان منى بلا عهد
ولعل فى هذا ما يوحى بأنه نقض ما أبرم وخالف ما قدم ، ولعمري إن ذلك
من نفس العاشق غير بعيد فهي فى تردد بين الشك فى ود الحبيب واليقين منه
وهكذا تفسر ما يطرأ على مسلكه تجاهها تفسيرا تستوحيه من إحدى هاتين الحالين .
وقد يبدو عليه البرم بحبه أحيانا والضيق بما يلقاه من جفائه إياه بلا سبب
فيتمنى مهربا يلوذ به مما يلقي فيو صد حبه فى وجهه أبواب الهرب فيقيم عليه إقامة
المضطر قليل الحيلة

ولو كنت تجزى بالذى تستحقه غضبت ولكنى من الهجر أغضب
فأغضى على جر الغضا خشية القلى ولولا الهوى ما ضاق عنى مهرب
إليك مفرى منك لا عن وسيلة إليك سوى أنى بحبك متعب
وهو يشتد أحيانا أخرى فلا يترفق ويقول فى حبيبه ما يعيبه على غيره من
الشعراء بل لا يبالي أن ينقد نفسه بعد أن يروى شعره :

مازلت أكذب عنك إرجاف العدى والغدر فى عطفك ليس بخاف
حتى حسرت لناظرى عن سوءة أغنت أطايدكم عن الإرجاف
فظللت حين خبرتكم متعرضا عنكم بأوسط سورة الأعراف
فأمضوا عليكم لعنة الله ارتعوا فى صحبة الأوغاد والأجلاف
وليس أبلغ فى التعليق على هذه الأبيات من قوله بعدها :

« وأما تشنيعه بالغدر على محبوبه فإن ذلك لعمري قبيح وما على من سلا عن
إلفه (إلا^(١)) أن يضم ذلك فى نفسه ولا يقص على غيره ما ظهر له من سوء فعله

(١) ليست هذه الكلمة فى الأصل ولا بد من إضافتها لى يستقيم معنى العبارة .

فإن ظهر منه على ترك المواصلة طارض في ذلك بضرب من المجاملة^(١) .
والتناقض بين شعره وبين تعليقه عليه ظاهر وليس تفسير ذلك بعسير فهو قد
قال الشعر في ثورة العاشق الكريم على نفسه ، الوفي لحبيبه ، المخلص له ، الواقف
نفسه على حبه يشهد منه ميلا عنه وغدراً به وصدوقاً عن حبه . وهو قد كتب
تعليقه عليه في رزاة المتفلسف المثالي يضع للحب دستوراً لا ينبغي للمحب أن
يخرج عليه .

وهكذا أقام أبو بكر على حبه بين وصل وهجر ، ووفاء وغدر ، لم يخطر له السأو
على بال ولا تدنس بالهجر أو الغدر حبه . وتسكت كتب التراجم عن نهاية حبه
كيف كانت . ولا يزال الباحث في حيرة من هذا الأمر حتى يقرأ في كتاب
الزهرة هذه الأبيات :

أمثل الذي ألقى يقاومه صبر	فأصبر أم مثلى ينهنه الزجر
لئن كنت غرا بالذي قد لقيته	لنى فقد تميزى بحق لى الأجر
تقضت صباباتى إليه وقصرت	ظنوني به بل ليس ظن ولا ذكر
وكف رجائى واطمأنت مخافى	فلم يبق لى إلا التأسف والفكر
فالى رجاء غير قرب منيتى	ولا خوف إلا أن يطول لى العمر
ولولم يحل أمر للنية بينه	وبينى لم أحفل بما صنّع الدهر
فليت المنايا وحدها سمحت به	ونازعنيه البين والهجر ^(٢) والغدر

أقول إن الباحث لا يزال في جهل بنهاية حبه حتى يقع على هذه الأبيات
فيرى أية نهاية مفاجئة كانت نهاية حبه . لقد مات عنه حبيبه فمات من بعده
صبره ، وكان يرجو وصاله ويخاف هجره وبعاده فعاد يرجو أن تحت إليه النية
خطاها ، ويخشى أن يطول به العمر من بعده وعاد يتمنى أن لو سمحت له به النية
فما يبالي منه بالبين أو الهجر أو الغدر .

وقد كان له ما أراد ، فقد عاجلته النية في شرح شبابه وقضى وعمره
اثنان وأربعون عاماً ولحق بحبيبه وشيكا كما تمنى .

وفي حديث وفاته يروى عن صاحبه أبي عبد الله تقيديه أنه قال : « دخلت
على محمد بن داود الأصمهانى في مرضه الذى مات فيه فقلت له : « كيف تجدك ؟ »

(١) كتاب الزهرة ص ١٥٥ .

(٢) » » » ٣٦٨ .

فقال : « حب من تعلم أورثني ما ترى » . فقلت ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ . فقال : « الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح والثاني اللذة المحظورة . فأما النظر المباح فأورثني ما ترى وأما اللذة المحظورة فانه منعه منها ما حدثني به أبي عن سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيى الققات عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عشق وكنتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة ^(١) . » ثم غشي عليه ساعة وأفاق ففتح عينيه فقلت له : « أرى قلبك قد سكن ، وعرق جبينك قد انقطع وهذا أمانة العافية » فأناشأ يقول :

أقول لصاحبي وسلياني وغرها سكون حمى جيني
تسلوا بالتعزى عن أخيكم وخوضوا بالداء وودعوني
فلم أدع الأنين للضعف سقم ولكني ضعفت عن ^(٢) الأنين
ثم مات من ليلته وكانت ليلة التاسع من شهر رمضان سنة ٢٩٧ للهجرة ^(٣)
أو ليلة السابع من شوال .

وفي رواية أخرى أنه توفي سنة ٢٩٦ هـ ^(٤) .

٣

كان حب أبي بكر مثالا من مثل الحب العذرى الذى لا يتعلق بالحاجة الجسمية ولا تعصف به نزوة الشهوة وكان كل شيء أو أكبر شيء في حياته ، ثم إنه كان حبا موحدا لا إشراك فيه وذلك قوام الحب العذرى كما سبق أن ألمنا به .

بدأ هذا الحب ألفة كالألفة التى تحدثت عنها من قبل . ألفة بين حبيبين في مستقبل العمر كانا زميلين في الكتاب جميعهما استلطاف متبادل وألفة بريئة تجمع بين كثير من الصبيان في تلك السن . ونحن وقد علمنا عن ابن داود في طفولته ما علمنا من إرهاب شعوره وشدة حساسيته وانطوائه على نفسه ؛ استنتجنا مقدار تعلقه بألفه وسكونه إليه واستمسكه به فهذا الشعور الرهف ، وتلك الحساسية

(١) هكذا رواية الخطيب في تاريخ بغداد وفي كتاب الزهرة « من عشق فغف فكتبه فات فهو شهيد » .

(٢) معجم الأدباء لياقوت .

(٣) تاريخ بغداد ورواة الجنان وصححه ابن خلكان وياقوت وابن العباد في شذرات الذهب .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢٥٤ .

القوية وذلك الانطواء على النفس أمور تضاعف وقع الأشياء على الحس والشعور وتبالغ فيها . وما بالك بهذا إذا اجتمع إليه الإسعاد والمساغة من الأليف وما يوحى بالإخلاص والمودة الصادقة ذلك فيما أظن لا بد أن يفضى إلى مثل ما أفضى بابن داود .

ولعل قائل يقول : أما الحساسية القوية والشعور المرهف والانطواء على النفس فقد وافقناك عليها فمن أين جئت بإسعاد الأليف ومساغته ؟ .

وجوابي على ذلك ما يروى من أن محمد بن جامع الصيدلاني كان لفرط حبه لمحمد بن داود ينفق عليه وما عرف معشوق قبله كان ينفق على عاشقه .

والحق أن أستاذنا أحمد بك أمين كان على حق حين قرر أن حب محمد بن داود صداقة بولغ فيها حتى أصبحت حباً^(١) . ولا حاجة بنا إلى التدليل على تطور الصداقة إلى الحب فهذا هو الذي يكون في الحب العذري إذ أن إكسیره الأول ألفة تقوم في الأغلب قبل أن تثبث في النفس غريزة الجنس وتتوثق أو اصرها من بعد .

وما لنا ألا نستشهد به وقد أقر على نفسه بذلك وصرح به في شعره :
يا من قبلك طال الحزن والأسف وجاوز الشوق بي حد الذي أصف
قلبي إليك مع الهجران منعطف وأنت غنى رخي البال منصرف
فإن تكن عن إخواني اليوم منصرفاً فالله يعلم ما لي عنك^(٢) منصرف
وهو يعاتبه على جفائه ويذكره بقديم إخوانه ويشكو إليه تطاول الهجر
فيقول :

يا أخى كم يكون هذا الجفاء كم تشفى بهجرك الأعداء
صار ذا الهجر لي غذاء ولكن ربما أتلغ السقيم الغذاء
سيدي أنت أين ذاك الصفاء أين ذاك الهوى وذاك الوفاء
أنت ذاك الأخ القديم ولكن ليس هذا الإخاء ذاك^(٣) الإخاء
ويستعطفه في موضع آخر ويستجديه الوصال فيقول :

أخوك الذي أمسى بذكرك مغرمًا يتوب إليك اليوم مما تقدما
فإن تصله رغبة في وصاله ولم تك مشتاقاً فصله^(٤) تسكرما

(١) مقالاته في مجلة الثقافة بعنوان « إمامان فقهيان عاشقان » مجلد سنة ١٩٤٦ .

(٢) كتاب الزهرة ص ٥٨ (٣) كتاب الزهرة ص ١٢٥ (٤) كتاب الزهرة ص ١٤٧ .

ثم ينبئه أن صبره الذى يبدو عليه عند البعاد إن هو إلا مظهر لا يدل على
الخبر بمال ، فهو يتظاهر بالسلو والتصبر ويبطن فى نفسه أجل الوفاء وآثم
الإخلاص :

لقد باعدت عنك أخاً^(١) شقيقاً عليك فلا يفرك حسن صبرى
فلو جمع الأنام لكنت فرداً أحبهم إلى بكل سـ
فلا تحسب رطاك الله أنى غدرت ولا هممت لكم بغدر
فوالله العظيم لو أن قلبى أحب سواك لم أسكنه صدرى
وأعظم ما ألاق منك أنى أدوم على الوفاء ولست تدرى
ثم لم يلبث هذا الإخاء أن تتوثق عراه ، وتقوى أواصره ، فيصبح كل شيء
فى حياة أبى بكر فلا يبالى باشتهاره وبحديث الناس عنه .

هى حال نفسية شاذة غير سوية تلك التى قصرته على محمد بن جامع فما تعداه
وهى التى صرفت مجرى الفريزة الجنسية عنده — على ما أظن — فى هذه الوجهة
غير الطبيعية فكانت حاملا من عوامل تقوية الألفة وإحكام عراها . حتى لقد
ملك عليه هذا الحب نفسه فسخرها بكل ما فيها من القوى فى خدمته .

(١) فى الأصل « شقيقا » ولعل ما أثبتناه أصح .

الفصل الثاني

كتاب الزهرة

ما كان أبو بكر محمد بن داود محبا يكتفى بأن ينفث حركة حبه في الشعر أو يحبسها بين جنبيه فتوهن منه العظم ، ولكنه كان ذلك وأكثر . لقد خالف لنا كتابا فريدا في بابه لم تعرف العربية له من قبل ضريبا في موضوعه ولا في تبويبه ولا في أفكاره وخواطره . ذلك هو كتاب الزهرة .

١

وفي ضبط اسمه بالشكل خلاف بين من تصدوا للحديث عنه من المستشرقين^(١) فإن الأستاذ باربييه دي مينار يضبطه بالضم في ترجمته لمروج الذهب فيقول : (الكتاب المعروف باسم الزهرة — Zohrah^(٢)) . وكذلك يفعل الأستاذ كارل فون بروكلمان فيقول : «أبو بكر محمد (بن داود) المتوفى سنة ٢٩٠ كتب كتاب الزهرة وهو مختارات شعرية في مائة باب^(٣)» . والأستاذ لوى ماسينيون يتحدث عن محمد بن داود فيقول : «وقد ترك لنا كتابا جميلا . ذلك هو كتاب الزهرة^(٤)» ويعود فيؤكد ذلك ويقول : «كتاب النجم فينوس» أو كتاب الزهرة^(٥) فهو إذن أول من يقول باحتمال ضبطه بالفتح هكذا كان صنيعه في كتاب الحلاج ولكنه لا بد أن يختار الضم في كتاب آخر هو «مجموعة نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف الإسلامي^(٦)» .

(١) لا أعرف أحدا كتب عنه من علماء الأدب بالعربية .

(٢) L'ouvrage Connue : sous le titre de Zohrah Kitab Azzohrah Tome VIII, p 255.

(٣) Brocklman : Geschichte der Arabischen Litteratur Band I p 520.

(٤) L. Massignon : La Passion d'Al Hallaj p 169—170. "Il nous reste en effet un livre charmant ... c'est le Kitab Al Zohrah".

(٥) Livre de la planete Venus ou Kitab Al Zahra.

(٦) L. Massignon : Recueil des Textes Inedita Relatifs de L'Histoire de La Mystique Musulmane, p 232.

أما الأستاذ نيكل — R. A. Nykl — ناشر الكتاب فيستعرض هذه الأقوال ثم يختار الفتح ويزم به ويضبط به عنوان النسخة المطبوعة من الكتاب^(١). ويتابعه في اختيار الفتح كاتب مقالة « محمد بن داود في ملحق دائرة المعارف الإسلامية ».

وقد جهدت لكي أعرف لاختياره الفتح سبباً أطمئن إليه فلم أهتم إلى سبب وجيه أستطيع أن أوافقه عليه. إلا أني وجدته يتبع استعراضه للأقوال التي مر ذكرها بنص ورد في كتاب تاريخ الأسر الإسلامية في إسبانيا^(٢) يقول إنه أول نص في الكتب الأوروبية يرد فيه ذكر هذا الكتاب (كتاب الزهرة). وهذا النص ترجمة لفقرة من رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس وهو :

“Kitabu l-Hadayik’ the book of enclosed gardens’ by Abu Amru Ahmad Ibn Faraj who wrote it in imitation of the Kitabu-z- Zohor the book of flowers by Abu Muhammad Ibn Daud”.

ولعل هذه العبارة قد استهوت الأستاذ نيكل فأغرت به بأن يختار الفتح ليقرب من اللفظ الذي ورد فيها وهو لفظ الزهور .

على أنه قد طمع منها في غير مطعم وركض وراء سراب ولو أنه تكلف الرجوع إلى الأصل الذي ترجم عنه بأسكال دي جايانجوس هذا لما وجد في النص الإنجليزي غناء . وقد فعلت أنا ذلك فوجدت ابن حزم يقول في رسالته « فضائل الأندلس » ما نصه :

وكتاب الحدايق لأبي عمر وأحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي (كذا) محمد بن داود رحمه الله تعالى إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت وأبو عمرو أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت . الخ^(٣) . وهكذا ينهار الأساس الذي أقام عليه نيكل اختياره^(٤) .

(١) كتاب الزهرة نشره نيكل سنة ١٩٣٢ وطبعه في المطبعة اليسوعية بيروت .

(٢) Pascal de Gayangos : History of the Muhammedan Dynasties in Spain-based on Al Magqair, Vol, I, p 185.

(٣) نفع الطيب — ج ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ ط المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ وجاء في معجم الأدباء لياقوت « أحمد بن محمد بن فرج الجياني الأندلسي أبو عمرو وله الكتاب المعروف بكتاب الحدايق ألفه للحكم المستنصر عارض فيه كتاب الزهرة لابن داود الإصبهاني . إرشاد الأريب — ج ٦ ص ٧٧ .

(٤) وحدثني الأستاذ ماسينيون يوم الأربعاء ٢٩/١/٤٧ بالقاهرة أنه يحيل إلى ضبط اسم =

أما سائر الأساتذة الذين اختاروا الضم فكانوا على كثير من الحق فالكتاب مؤلف في الحب والزهرة هي النجم الذي يدلون به على الحب :

« وللعشق من النجوم زحل وعطارد والزهرة جميعها ولذلك إذا اشتركوا في أصل المولد أو اجتمعوا وتناظروا في أشكال محمودة وقع بينهم العشق والمحبة في بيت أحدهم أو في حده وكان رب البيت أو صاحب الخد ناظراً إليه أو كانت الكواكب المذكورة ناظرة في أشكال محمودة أو مقارنة ؛ فزحل يهيء الفكرة والتمنى والطمع والهوى والهيجان والوسوسة والخلوف ، وعطارد يهيء قول الشعر ونظم الرسائل والملك والخلاعة وتنميق الكلام والتذلل والتلطف ، والزهرة تهيب العشق والوله والهيام والرقه وتبعث في النفس التلذذ بالنظر والمؤانسة بالحديث^(١) . »

فإذا كانت الزهرة في عرف القوم^(٢) هي النجمة التي تهيب للعشق والوله كان أولى أن يسمى الكتاب المؤلف في العشق باسمها . أما الزهرة بالفتح فليس بينها وبين موضوع الكتاب علاقة واضحة .

ولقد قلت قبل قليل : إن الذين اختاروا الضم كانوا على كثير من الحق . ولم أشأ أن أقول إنهم على الحق ذلك لأن لفظ الزهرة لا يضبط بتسكين وسطه وإنما يضبط بفتحه . قال الفيروز آبادي :

« الزهرة وبحرك النبات ... وكتودة اسم نجم في السماء الثالثة^(٣) » .

وقال السيد مرتضى الزبيدي : — « والزهرة كتودة نجم أبيض مضيء معروف في السماء الثالثة . قال الشاعر :

قد وكلتني طلتي بالسمره وأيقظتني لطلوع الزهرة^(٤)
إذن فاسم الكتاب على ما يبدو أنه الأرجح كتاب الزهرة .

== الكتاب بالفتح إشارة إلى زهرة النارج التي يتهداها الأحباب . وهي التي يصنع منها لكابيل يوضع على رأس العروس البكر يوم زفافها . وابن داود محب فقير ليس لديه ما يهديه إلى حبيبته غير الكتاب فسماه بالزهرة إشارة إلى ذلك . وهو تخريج جميل إلا أنه يفتر إلى ما يؤيده من عوائد القوم في ذلك العصر . لست أرى حرجاً من الإعجاب به دون الأخذ به لأن فيه من التكلف غير قليل .

(١) ديوان الصباية ص ١٣ — ١٤ .

(٢) يقال إن الزهرة ليست إلهة الحب عند اليونان ولكنها إلهة لشيء آخر وهذا لا يعنيننا هنا .

(٣) الغاموس المحيط . (٤) تاج العروس .

٢

ألف محمد بن داود هذا الكتاب من أجل حبيبه محمد بن جامع الصيدلاني وهو الذي يخاطبه في أول الكتاب فيقول : « أطل الله في العز الدائم بقاءك ، وصان عن غير الأيام نعماك ، وجعلني غرضا للنوائب فذاك »^(١) .

وأهداه إليه حين وجد فيه الميل إلى تعرف أخبار العشاق ، وسأله أن يدلّه على نديم يحفظ طرفا من أخبارهم ويلم بغير قليل من أشعارهم فيحدثه بها ليجد فيها عزاء عما يقبض صدره وتضييق به نفسه :

« وقلت قدمني الله قبلك قد أعيا على وجود نديم آنس به في الخلوات ، وأجد عنده عزاء عن النائبات ، يورد إلى الأخبار ، ويكتم على الأسرار فإن كان في ناحيتك من يفي بهذا القدار ويحفظ طرفا من أشعار المتغزلين وأخبار المشبيين وكان عالما بطرق الهوى وأحكامه ، طارفا بالمصيب من الشعراء في كلامه حافظا من أنواع الشعر في كل باب ما يدخل حافظه في جملة أهل الآداب تطلت بإيثار ضمنت به على نفسك ، وأعفيتني من صرف حاجتي فيه إلى غيرك »^(٢) .

وإن كان هذا النص لرسالة من حبيبه محمد بن جامع إليه أو مضمون حديث أمر به إليه لقد كان فيه الكفاية لأن يثير في نفس أبي بكر الإشفاق ممن يريد أن يدلّه عليه أن يحظى بوده ويعرفه عن قديم حبه ولقد كان يكفي دون أي شيء آخر ليثبت في نفس أبي بكر النشاط حتى يؤلف الكتاب فيغنيه به عن وصف حاجته إليه من الأصحاب بل يكون دليلا على حبه فوق دليل ، وليس هذا الذي أقول محض استنتاج أورجم بالغيب وإنما يدل عليه كلامه الآتي دون شك أوريب : « وقد جزمت لما رأيت بك من غلبات الاشتياق ومن ميلك إلى تعرف أحوال العشاق ، أن أوجه إليك نديما يشاهد بك أحوال المتقدمين ويحضرك أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطك ويعمل بملاكك ، إن أدنيتة دنا ، وإن أقصيته نأى لا يزهي عليك عند حاجتك إليه ، ولا يرغب عنك عند رغبتك عنه وحيفك عليه لا يحفظ أسرارك فضلا عن أن يفشيها ولا تخطر بباله فيحتاج أن يخفيها لا تمنعك حشمته من سؤاله ولا يفضبك عند خوفك من ملاله . انتزعتك لك من خواطري واخترتة من غريب ما اتصل بمسامعي إن اختصصت به من تمب من إخوانك لم تقتقده من ديوانك

(١) كتاب الزهرة ص ١٠

(٢) ٠ ٣ — ٢ ٠ ٠ ٠ ٠

وإن استبددت به دون أوليائك فضلت به على نظرائك وهو كتاب سميته كتاب الزهرة^(١).

لم يكن هذا الوصف البديع للكتاب اعتباراً وإنما هو فيما أظن مقصود . مقصود به أن يزهد في اتخاذ الأصحاب والندمان حرصاً على وده أن يتحول إلى غيره أو يحظى به سواه؛ شأن المحب الضنين بحبيبه للشفق من ميله إلى غيره على أنه تحدث عن الإخوان من قبل فشكا من قلة الوفاء وأفاض فيما يلحق منهم من الغدر والجفاء حديث من يريد أن يوحى إليه بالزهد فيهم والإعراض عن صحبتهم والحذر منهم . وما بالك بقوم أفضلهم للنافقون وأخفهم شراً للمداهنون « واعلم أدام الله تأييدك أن المرتضين من الإخوان معدومون في هذا الزمان وإنما بقي قوم ينتصفون ولا ينتصفون إن بسطتهم لم يهابوك وإن أحشمتهم اغتابوك ، ما داموا لك راجين أو خائفين فيهم لك منقطعون فإن زابلوا هاتين الحالتين لم يرعوا لك إزاء ولم يعتقدوا لك وفاء فإذا ظفرت بمنافق فتمسك به فإنه على كل حال خير من غيره لأنه يظهر لك ما تسر به وإن كان يضر خلافة بقلبه^(٢) » .

٣

فأما تاريخ تأليفه فيكاد مؤرخوه يجمعون على أنه ألفه وهو في عنفوان صباه وأول شبابه ، وهذا كما نرى كلام ليس فيه كبير غناء . فقد كان يرجمه الله قصير العمر لا يكاد يعرف شبابه من كهولته . وتوفي وله نيف وأربعون عاماً وليست هذه في الغالب إلا سن شباب .

ومن أغرب ما يروى عن تاريخ تأليفه أنه بدأ به وهو في الكتاب فيروى الخطيب بسنده عن القحطبي أنه قال : « سمعت محمد بن داود يقول : بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتاب^(٣) » .

ويتابعه ماسينيون فيقول : « ألفه وهو في المدرسة^(٤) » . ويكتفي السعودي بأن يقول : إنه ألفه في عنفوان صباه وقبل كماله واتهائه^(٥).

(١) الزهرة من ٣ — ٤ .

(٢) » » » ٣ .

(٣) تاريخ بغداد م ٥ من ٢٥٩ .

(٤) L. Massignon : La Passions d'Al Hallaj, p 170.

(٥) مروج الذهب — ج ٨ من ٢٥٤ .

وهكذا يفعل ابن خلكان فيقول: « وصنف في عنفوان شبابه كتابه الذي سماه الزهرة وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائع ». وفي كلام نيكول ناشر الكتاب ما يدل على اعتقاده بأنه كتبه وهو في حوالى العشرين من عمره ^(١). ولم أجد فيمن تعرض لترجمته من المؤرخين قديمهم ومحدثهم من قال بذلك أو نوه به إلا جب إذ يقول: «... ثم لم يكديمضى بعد ذلك قرن من الزمان إلا وقد ظهر كتاب فريد في قوة سحره، يتضمن قانوناً لهذه الطريقة الجديدة، وقد دمج هذا الكتاب يراع صبي في الحلقة الثانية من عمره وهو ابن وخلف لمؤسس أكبر مدرسة دينية متشددة في الإسلام وهي مدرسة المذهب الظاهري ^(٢) ».

أما دائرة المعارف الإسلامية فتقول بذلك دون تحفظ: « وفي سن العشرين كتب كتاب الزهرة الذي ضمن له مكاناً مرموقاً في الأدب العربي ^(٣) ». وأراني غير مطمئن إلى شيء من ذلك فما أظن أحداً يصدق أن كتاباً مثل كتاب الزهرة يؤلفه صبي في الكتاب لا يزال يشغل بحفظ القرآن ورواية أشعار العرب. وذلك أمر واضح لا حاجة للتدليل عليه. فأما رواية الخطيب فإنها تعني لدى إذا صحت أنه بدأ في الكتاب يختار من أشعار المشاق ما كان ينوى أن يجمعه في كتاب وأنا أحس أن في هذا التأويل كثيراً من التعسف.

وأما القول بأنه ألفه في عنفوان شبابه وقبل كماله وانهائه وأنه صنفه في عنفوان شبابه فليس فيه كما قدمت ما يمكن أن يبرم أو ينقض. ولعل هؤلاء أرادوا أن يعتذروا عن محمد بن داود إمام أهل الظاهر ويدفعوا عنه طعن الطاعنين وغمز الغامزين فقالوا بذلك. ذلك لأنه لم يكن من المستساغ لإمام من أئمة المسلمين أن يشغل نفسه بالحب والتأليف فيه وبخاصة في العراق حيث يترمت الفقهاء أى تترمت.

على أن هنالك أمراً أكاد أقطع به ولا أشك فيه، ذلك أن كتاب الزهرة الموجود بين أيدينا الآن لم يؤلف في الوقت الذي قال هؤلاء أنه ألف فيه. وعندى على ذلك أدلة عديدة أكتفى منها بواحد هو أنصعها وأوضحها وأقطعها

(١) كتاب الزهرة . p 7 : Foreword .

(٢) تراث الإسلام ترجمة لجنة النشر للجامعيين — ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) مادة « محمد بن داود » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

لشك . ذلك أن في شعر أبي بكر الذي يرويه على لسان بعض أهل العصر ما يشعر بأنه رثاء لحبيبه . وهذا أمر لم ينتبه إليه مؤرخوه ومترجموه ولم يشر إليه أحد منهم^(١) وقد دطاني ذلك إلى أن أرجح أن موت حبيبه قد عجل إليه أجله وقرب إليه منيته . أف يكون قد نظر في الكتاب قبل وفاته وزاد فيه وهذبه ونقحه . ذلك جائز لا يدفع فيه دليل شاخص أو برهان ظاهر .

وهناك أمر آخر يتفرع مما نحن بصدد ذلك قول أبي بكر فيما يرويه عنه القحطبي : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتاب ونظر أبي في أكثره » ونحن إذا علمنا أن أباه توفي في سنة ٢٧٠ هـ وكانت سنة إذ ذاك ست عشرة سنة أدركنا أن ما قيل في صدر هذه العبارة يقال أيضاً في خاتمها .

ويزعم نيسكل أن محمد بن داود لابد أن قد أرشد في تأليفه ووجه إليه من قبل أبيه^(٢) مستدلاً على ذلك بجزء من عبارة حاجي خليفة يأخذ منها ما يريد ويدع ما لا يريد : « وأتمه ابنه أبو بكر وزاد على أبيه فصولاً » .

والعجيب أن عبارة حاجي خليفة هذه لا تتصل من كتاب الزهرة بسبب ولا تمت إليه بصلة إذ هو بصدد الحديث عن علم الشروط والسجلات ، وما ألف فيه من الكتب . ويقول : « وداود بن علي الأصماني شرح في كتابه أصول الشافعي وذكر ما عابه عليه يحيى بن أكثم من الشروط وأتمه ابنه أبو بكر وزاد على أبيه أبواباً وفصولاً^(٣) » .

وهكذا حكم نيسكل من غير أن يقتبث ؛ وجزم من غير أن يتبين .

٤

أما وقد ألممنا بتاريخ الكتاب وزمن تأليفه وعرضنا لآراء المؤرخين في ذلك ورجحنا أدناها إلى الصواب فنحن الآن نريد أن نلم بما يحتويه وما يشتمل عليه . والكتاب كما علمنا مائة باب وصل إلينا منها نصفها الأول خمسون باباً في الحب وأحواله ووصف أسبابه وما يعرض فيه وما يشترط فيه من الآداب، طبعه الأستاذ

(١) الأبيات على ص ٣٦٨ من كتاب الزهرة وقد أوردتها في الفصل السابق .

(٢) عبارة نيسكل p 6 "He must have a predirection" Foreword .

(٣) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون — ج ٤ ص ٤٧ وهو الموضع الذي أشار إليه نيسكل .

نيكل^(١) — R. A. Nykl — من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو عن نسخة مخطوطة محفوظ في دار الكتب المصرية كان يظنها وقت أن قام على طبعها النسخة الوحيدة. أما الجزء الثاني من الكتاب فكان نيكل يظن حين نشر الكتاب أن المؤلف لم يؤت الصبر الكافي لكتابة النصف الثاني^(٢).

ولكنه تسلم بعد صدور الكتاب بأشهر قلائل خطابا من الألب أنستاس ماري السكرملي ينبئ فيه بالأشياء الآتية عن النصف الثاني من كتاب ابن داود: « وقد كنت أملك قبل الحرب مخطوطا جميلا في أربع مجلدات صغيرة كتب عام ٧٢٩ هـ للمكتبة الملكية لأبي الفدا . وقد فقدت ذلك كله في ٧ مارس سنة ١٩١٧ م على أثر سقوط بغداد . وفي الثاني والعشرين من فبراير هذا العام (عام ١٩٣٣) استطعت أن أشتري المجلد الثالث وهو يبدأ بالبَاب السابع والستين وينتهي بالبَاب التاسع والثمانين دون أن يتم البَاب الأخير . والمخطوطات كلها بكتابة جميلة مشكلة وأول كلمات ذلك الجزء ص ١ . لخزانة السلطان الملك الصالح عماد الدين والدنيا سلطان المسلمين أبو الفدا (ص ٢) ابن اسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب أعز الله أنصاره وضاعف أقداره » .

والصفحة الثالثة تبدأ هكذا : « باسم ... رب يسر وأعن البَاب التاسع والستون ذكر ما يجعل من الاستبطاء مقدمة بين الهجاء » .
« وطول المخطوط ٢٣ سنتيمترا وعرضه ١٤ سنتيمترا وصفحاته ٣٤٦ في كل منها اثنا عشر سطرا » اهـ . أنستاس .

ووجد نيكل أن هذا الوصف يشبه وصف نلينو للكتاب وإشارته إلى وجود مخطوط آخر في المكتبة الملكية بتورينو . ففي ثبوت الكتب العربية تحت رقم ٦٨ .

Abu Bekr Elisfahani : Elzuhereter fil Edeb (sic) Antologie filologica poetica in x

وقد ذهب إلى تورينو وهناك اكتشف أن هذا المخطوط يمتد إلى كتاب الزهرة بجزئيه . وفيما يأتي أبواب الجزء الثاني :

٥١ — ذكر ما قاله أمية ونظراؤه في تعظيم الله جل ثناؤه .

٥٢ — ذكر ما مدح به أمية النبي صلى الله عليه وسلم وما استشهد وأنشد بين يديه

(١) طبعه بمعاونة المرحوم إبراهيم طوفان المدرس بالجامعة الأمريكية ببيروت آنذاك .

(٢) كتاب الزهرة : Foreword p 5 .

- ٥٣ — ذكر مآقاله شعراء الإسلام فى أهل بيت النبى عليه السلام .
 ٥٤ — مرأى الملوك والسادات وأهل الفضائل والرياسات .
 ٥٥ — نوح الأهل والإخوان على من فقدوه من السبعان^(١) .
 ٥٦ — ذكر النوح على من مات من الأبناء والقربات .
 ٥٧ — ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى
 بحسن عزائه .
 ٥٨ — ذكر التزهيد فيما يغنى والترغيب فيما يبقى .
 ٥٩ — ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخلفاء .
 ٦٠ — إنى أرى من له قنوع يعذل من نال ما تمنى .
 والرزق يأتى بلا عناء وربما فات من تمنى^(٢) .
 ٦١ — ذكر من فضل على نظرائه ومدح بحسن رأسه (١) .
 ٦٢ — ذكر من سود فى حدائته وقدم فى بلاغته .
 ٦٣ — ذكر التفضيل بالأحساب والمدح بشرف الأنساب .
 ٦٤ — ذكر من قدم بحسارته ومدح بشجاعته .
 ٦٥ — ذكر من وصف بصباحته ومدح بسماحته .
 ٦٦ — ذكر من أسدى للعروف إليه فشكره وأظهر ماعليه .
 ٦٧ — ذكر ما يجعل من الاستبطاء مقدمة بين يدى الهجاء .
 ٦٨ — ذكر من هجى بفعله وعير ببخله .
 ٦٩ — ذكر من هجى بالفرار من اللقاء والجزع عند مواجهة الأعداء .
 ٧٠ — ذكر من هجى بقبح خلقته وعير بسوء خليقته .
 ٧١ — ذكر من هجى بأصله دون ما يظهر من فعله .
 ٧٢ — ذكر من نخر بحسبه وامتدح بنسبه .
 ٧٣ — ذكر ما للشعراء من الافتخار بالسقاء .
 ٧٤ — ذكر من أظهر الجزع من الفقر وقنع وافتخر بالصبر .
 ٧٥ — ذكر من افتخر لنفسه بالإغضاء عن خصمه .
 ٧٦ — ذكر الافتخار بالشجاعة والانتصار .

(١) لم أفهم لها معنى ولم أجد لها تخریجا .

(٢) فى الأصل « مذ تمنى » ولعل الأصح ما أثبتناه .

- ٧٧ — ذكر مالمشعراء في باب التحذير والإغراء .
 ٧٨ — ذكر مافي صفات البحار والفلوات .
 ٧٩ — ذكر مايختار^(١) من القول في صفات الإبل والخيول .
 ٨٠ — ذكر الوحش الذي يصاد والجوارح التي تصطاد .
 ٨١ — ذكر مافي الشعر من صفات الحجر .
 ٨٢ — ذكر أدب انجالسات وحسن المناديات .
 ٨٣ — ذكر تلاطف الأصحاب وتمادي أهل الآداب .
 ٨٤ — ذكر حمد الزمان ومدح الإخوان .
 ٨٥ — ذكر ذم الاخوان وشكايه الزمان .
 ٨٦ — ذكر من ارتجل شعرا ولم يقدم له ذكر .
 ٨٧ — ذكر الشعر الذي يستطرف لخروجه عن حد ما يعرف .
 ٨٨ — ذكر ماجاء من الأشعار محتملا للهجاء والافتخار .
 ٨٩ — ذكر ماجاء في الشعر من معنى مستور لا يفهمه سامعه إلا بالتفسير .
 ٩٠ — ذكر المعاني الظاهرة والأمثال السائرة .
 ٩١ — ذكر ما اشتبهت معانيه واتفقت أعجازه وقوافيه .
 ٩٢ — ذكر ما اتفقت قوافيه واشتبهت صورته ومعانيه .
 ٩٣ — ذكر ما استعارته الشعراء من القرآن وما نقلته إلى أشعارها من سائر المعاني .
 ٩٤ — ذكر الخطأ في القول والأوزان دون الخطأ في الإعراب والمعاني .
 ٩٥ — ذكر من استدل بأشعاره على سوء اختياره .
 ٩٦ — ذكر تشبيهات مابقي من الموصوفات .
 ٩٧ — ذكر مالا يصلح يفدا^(٢) منه الكتاب ولا يتمل أن يفرد لسكل نوع منه باب .
 ٩٨ — ذكر ما للنساء من المختار في جميع صنوف الأشعار .
 ٩٩ — ذكر ماسمع من الأشعار ولم يظهر قائله للأبصار .
 ١٠٠ — وهو الخاتمة ذكر ماجاء في الأراجيز من المختار مفرداً على جملة الأشعار^(٣) .

(١) في الأصل « بخيار » وهو تصحيف .

(٢) هكذا في الأصل وصححها « يقدي » بالألف المقصورة .

(٣) مجلة الأندلس م ٤ سنة ١٩٣٦ الكراسة الأولى « بيانلت جديدة عن كتاب الزهرة .

Al Andalus : Vol. IV, 1936: Fasc. I : Nuevos datos sobre El Kitab

Al Zahra, A.R. Nykl ; p 147—150.

وقد أعانني في ترجمتها الدكتور حسين مؤنس مشكوراً .

وهكذا يبدو لنا أن الجزء الثاني قليل الجدوى للباحث في تاريخ الحب العذرى على كبير خطره في تاريخ الأدب العربي .

والكتاب كما نعلم ألفه ابن داود من أجل محمد بن جامع الصيدلاني فهو هدية محب إلى محبوبه وهو إذن قد أثرت في إخراج هذا الإخراج وفي صيغ أفكاره بهذه الصيغة مؤثرات شتى .

منها أنه رسالة من محب إلى حبيبه ضمنها أحر عواطفه وأعمق مشاعره ، ونحن نقرأ هذا في أكثر ثنايا الكتاب ونلمسه في أشعاره التي ينسبها إلى بعض أهل العصر^(١) وفي تعليقاته على أشعار غيره وفي تقده لبعض أحوال الحب . ومقدمة الكتاب أو فاتحته نفثة من صدر امتلاء بالحب حتى فاض وخفقة من قلب تنهل من الحب حتى ارتوى .

وهو أيضاً هدية استهداها المحبوب من المحب فبالغ هذا في تأنيقها وأمعن في تجميلها وتزويقها وجهد في إخراجها أبدع ما تكون شكلا وأبرع ما تكون صورة لتظفر من الحبيب بالرضا وتقع من نفسه موقع القبول .

وهو بعد ذلك نديم يسامر الحبيب فيروى له من طرف الأخبار كل ظريفة ومن محاسن الأشعار كل بدیعة وهو سفير الحب إلى محبوبه يكشف له عن جوانب نفسه ويفتح له أبواب قلبه ليرى مكانه فيها .

وقد ضمن ذلك خمسين بابا فجعل عنوان كل باب مثلاً يضرب في الحب وحكمة سائرة فيه . وبدأ بالحب من أول نشأته وكيف ينشأ وتدرج في ذكر ما يلابسه وما يواكبه في نفس المحب أو في نفس الحبيب ، وتطرق بعد ذلك إلى آدابه ، وما يحب فيه على المحب تجاه حبيبه وعلى الحبيب نحو محبه ، ثم انعطف إلى ما ينوب المحبين من فراق أو صد أو هجر أو غدر وما يتعللون به في غياب أحبائهم أو صدم أو هجرهم وما تشتغل به أفكارهم من الأوهام والأمان وما يترك ذلك فيهم من نحول الأجساد والحرمان من الرقاد وكيف يغلب المحب على صبره فلا يملك كتمان مره . وتكلم على اليأس وكيف يكون ومن الذي يقدر عليه من المحبين واختتم الكتاب بالحديث عن إقامة المحب على العهد عند الفراق أو الصد ثم بالكلام على الوفاء بعد الوفاة وأن قلبه أفضل وأجل من كثيره وقت الحياة . وهاهي ذى بعض أبوابه :

« من كثرت لحظاته دامت حسراته . العقل عند الهوى أسير والشوق عايمهما

(١) أشار إلى ذلك المسعودي في مروج الذهب ج ٨ ص ٢٥٤ ط باريس .

أمير . من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه . ليس بلييب من لم يصف مابه لطبيب .
إذا صح الظفر وقعت الغير . التذلل للحبيب من شيم الأديب . من طال مروره
قصرته شهوره . من كان ظريفاً فليكن عفيفاً . ليس من الظرف امتهان الحبيب
بالوصف . سوء الظن من شدة الضن . من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب . من
منع من كثير الوصال قنع بقليل النوال . . . الخ » .

قلت قبل قليل إن هذا الكتاب هدية استهداها حبيب من محبه فبالغ المحب
في التأنيق بها والأبداع في إخراجها وقد مرت بنا بعض أبواب الكتاب وفيها
دليل على ذلك أى دليل . وقد كان لها بين المحبين فيما بعد منزلة وفي نفوسهم
مكانة حتى لقد روى أن أهل الهوى كانوا ينقشون على خواتمهم « من كثرت
لحظاته دامت حسراته » « من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه » « من قدم هواه
دام أساه » « العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير » « إذا كثرت الجفاء
قل الوفاء » « إذا صح الظفر وقعت الغير » « قل من سلا إلا استفزه الهوى »
« من منع من النظر اقتصر على الأثر » « من منع من الوصال قنع بالخيال » .
هذا من حيث أناقة الشكل وجمال المظهر ، فأما الموضوع فقد جهد ابن داود أن
يجلو لحبيبه فسكره الحب في أسمى معانيها وأرفع مراتبها فجعله علاقة سماوية تربط
بين اثنين اثنتان في العالم العلوى روحهما وجمعت بينهما الموافقة في الطباع والمشاكاة
في الخلاق . وفرض عليهما فيه الوقوف عند الآداب والتزام حدود الفضيلة والعفة
وأقام لهما في السلوك سبيلاً لا قبل للإنسان سوى به ، مثالية لا تراعى الواقع ،
ولا تهبط إلى الأرض وخلق ملائكة لا طاقة لابن آدم بمثله .

ولعله أراد أن يوحى إلى حبيبه بالتزام هذه الحدود والتخلق بهذه الخلاق ،
وهو الذى مر بنا ما تجرعه منه من غصص الهجر ومرائر الصدود .
أو أنه أراد أن ينبئ حبيبه بأنه يحب هذا الصنف من الحب ويحمل له من
المودة ما ينبغي أن يجازيه بمثله .

ولعل في هذا تفسيراً لبعض ما نشهد من التناقض بين شعره الذى يرويه على
لسان بعض أهل العصر وكلامه المنشور في شرحه وفي تعليقاته . ذلك لأنه كان
يقول الشعر بروح الإنسان الذى تملكه العاطفة ، ويكتب النثر بروح التفكير
للتالى الذى يفلسف الفكرة ويهذبها ويخاضها بما يشوب الخلق الإنسانى وما يطرأ

عليه من وصف الحبيب بالغدر أو التبرم بما يلاقيه منه من الصدود والهجر .
وهذا الأمر هو الذي عنيته بتطور الحب العذرى وانتقاله من عاطفة يتغنى
بها الشعراء مشوبة بالنزوات الإنسانية العارضة مغفوفة ببعض مالا بد أن يقع من
بنى آدم من الهفوات إلى فكرة خالصة من هذه الشوائب مبرأة من هذه العيوب
تقية من هذه الأدران .

ومن عجب أن يفتن هو إلى إمعانه في المثالية وإغراقه فيها فينصف من ينقدّم
من العشاق ذا كراً أن ما يفرضه عليهم وما يطالبه منهم ليس في طاقة الإنسان احتماله
والله جل شأنه لم يطالب عباده بمثل ما طالب هو العشاق به . مثال ذلك أنه
ينقد القائل :

وإني لينسيني لقاءك كما لقيتك يوماً أن أبشك مايبا

فيقول : « فهذا يخبر أن لقاءها هو الذي يمنعه من شكوى ما يجده ، إلا أنه
يشفق من ضرره على نفسه ولا يبق بكتمان على غيره^(١) » . وينقده على أن « لقاءها
يحدث في قلبه حالاً لم تكن قبل ذلك ظاهرة من نفسه ، إذ لو كان الهوى قد
استوفى منه حقه وتناهى به إلى غاية بعده لما كان اللقاء يزيد شيئاً ولا ينقصه^(٢) » .
ثم يعود فيقر بظلمه لهذا وأمثاله وتجنّيه عليهم وتكليفهم مالا يطيقون فيقول :
« على أنه من طلب لآدمي مثله بما لم يطالب الله عباده فأخلق بأن يكون ظالماً » .
وقد مدح الله تبارك وتعالى قوماً فقال : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم
وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) « فلم يعيهم تعالى بأن كان ذكره بخسرتهم
مظهراً عليهم ما لم يكن قبل موجوداً فيهم^(٣) » .

(١) كتاب الزهرة ص ٣٧ .

(٢) » » » ٣٨ .

(٣) » » » ٣٨ - ٣٩ .

الفصل الثالث

آراؤه في الحب

فرغنا من الكلام على حياة محمد بن داود وحب وكتابه في الحب المعروف بكتاب الزهرة وهو كتاب جمع فيه طائفة من الشعر مختارة تتخللها تعليقات وتصديرات تبين عن آرائه في الحب وتفصح عن اتجاهه الفكري والعاطفي فيه . وقد قسم محمد بن داود كتابه أبواباً راعى فيها أن تتدرج من الحديث عن ماهية الحب وكيف يبدأ وكيف ينشأ ثم يتبع نشأته مرحلة مرحلة ويستقصى تدرجه مرتبة مرتبة ويأتى على ما يلابسه من أحوال ، وما يلزمه من فضائل وآداب ، حتى ينتهي به إلى نهايته .

وهو حين يبحث في الحب يستهدى بما شاع في عصره من ثقافة وما عرف فيه من الفلسفة .

١

في حديثه عن سبب الحب ومنشئه نراه يصدر عن موردين : الكلام المأثور والحكمة اليونانية ، فيروى بسنده عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »^(١) . فالحب إذن ألفة بين النفوس مبدؤها تآلف بين الأرواح في عالمها العلوي ، ومثل هذا ما ينقله عن بعض المتفلسفين أنه زعم : « أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضا فجعل في كل جسد نصفاً وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة »^(٢) .

(١) كتاب الزهرة ص ١٤ .

(٢) كتاب الزهرة ص ١٥ وهذا قريب مما قال به أرسطوفانس في كتاب المائدة الأفلاطونية ويظن ماسينيون أنه هو الكتاب المذكور في كتب الكندي النفسية (خبر اجتماع الفلاسفة على رموز عشقية) ص ٢٥٩ الفهرست ٠ (هو يرى أن من المحتمل أن يكون مصدراً من مصادر كتاب الزهرة ٠ راجع كتاب : Recueil de Textes Inédits ... p 178

فالحب إذن علاقة قديمة بين الأرواح في عالمها الأول حتى إذا انفصل بعضها عن بعض وحل كل منها في جسد وهبطت إلى العالم الأرضي لم يزل كل منها ينشد أليفه ويحن إلى صنوه، وهذا هو الحب. والناس يتفاوتون فيه تبعاً لتفاوتهم في الرقة ودمائة الطبائع وصفاء النفوس أو بعبارة أخرى لأن فعل الحب يظهر في بعض الناس أقوى من ظهوره في الآخرين تبعاً لاحتجاب الروح وراء القوى النفسية الأرضية أو افتراق الروح من وراء تلك الحجب.

وابن داود يروى عن بطليموس كلاماً في تفسير اتفاق الأرواح واثتلافها يدور في جملته حول أشياء فلسفية لاشأن لنا بها ولا غناء لنا فيها.

ثم يروى عن جالينوس أن «العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد». فالحب إذن حال تحل في النفس فتنتظم أجزائها وتخضع لها. وفي الدماغ ثلاثة مساكن: التخيل وهو في مقدم الرأس والفكر وهو في وسطه والذكر وهو في مؤخره وليس يكمل لأحد اسم عاشق إلا حتى إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره وقلبه وكبدته فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ والتخيل والذكر له والفكر فيه فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فتي لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقاً فإذا لقيه خلت هذه المساكن^(١).

وهو يحكى عن بعض الظرفاء أنه كتب إلى أخ له يقول: «إني صادفت^(٢) منك جوهر نفسي فأنا غير محمود على الانقياد إليك لأن النفس يتبع بعضها بعضها^(٣)». وصفوة القول أن الحب في رأيه اتصال بين النفوس أو ألفة بين الأرواح في عالمها الأول^(٤) وهذا الاتصال أو تلك الألفة تستحيل في العالم الأرضي قوة جبارة تنتظم أجزاء النفس وتميمن عليها.

والحق أن الباحث لا يكاد يخرج من تتبعه لهذه الأقوال ومن تعليق ابن داود عليها برأى له يرتئيه أو مذهب يفضل به بل إنه ليقول في ختام ذلك: «وربما استغنى بالحكايات عن التصريح بالاختبارات^(٥)».

(١) كتاب الزهرة ص ١٨ — ١٩.

(٢) في الأصل «صادقت» بالثاء ولعل ما أثبتناه أصح.

(٣) كتاب الزهرة ص ١٥.

(٤) لعل هذا الخلط آت من عدم تمييزه بين النفس والروح.

(٥) كتاب الزهرة ص ١٨.

وسبيل الحب إلى القلب ومنفذه إلى النفس النظر . وقديماً قال الحكماء : « رب حرب جنيت من لفظة ، ورب عشق غرس من لحظة ^(١) » وهذا أمر من البداهة بحيث لا يجوز التدليل عليه ، وابن داود يروى من أقاويل الشعراء في هذا الباب ما فيه بلاغ .

وقد يقوم السماع أحياناً مقام النظر فيفتح القلب للحب ويكون طليعته إليه ^(٢) . وهو يستشهد على ذلك بقول القطامي :

وفي الخلدور غمامات برقن لنا حتى تصيدننا من كل مصطاد
يقتلننا بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكتومه باد
فمن يبدين من قول يصبن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادي

وجميل من ابن داود أن يلتفت إلى السماع ، وأن لا يغفل أثره في ابتداء الحب ، فرب منظر يملأ العين رواؤه وينعش القلب لألاؤه لا يلبث أن يكشف السماع عن قبح مخبره وينزل به عن ملكوته ، فترتد عنه النفس ويحجم عن تمليه وتأمله القلب . بل لعل السماع يكون أشد في النفس فعلاً من النظر وأجلب للحب وأشد تقوية لأواصره ، فالعين قد تمتلئ بالمنظر الجميل حتى تعتاده ، لكن الأذن لا تزال تستطرف الحديث الممتع حتى تفتح له أبواب النفس وتصله بوشائج القلب ولا عجب فالحديث يكشف عن المخبر في حين لا ترى العين سوى المنظر .

والنظر يبعث في النفس الاستحسان ويستثير بها الإعجاب والسماع ، إما أن يزيد في الإعجاب والاستحسان ، وإما أن يحسمه ويذهب به ، ذلك لأن السماع كما قلنا يكشف عن المخبر فيدخل في الإعجاب بالنظر إعجاب بما وراءه .

حتى إذا تأكد في النفس الاستحسان واستقر فيها مكانه أصبح مودة والمودة تبعث في النفس الرغبة في المودود فتود أن يكون لها خلا ، والمودة ميل زائد على الاستحسان والإعجاب ، فيه يتمنى الإنسان أن يصحب من يود وأن يلازمه ، ويرجو أن يكون له في نفس المودود المكان الذي أحله إياه من نفسه . وتقوى المودة فتصير محبة ، والمحبة تجاوب النفسين بالمودة وترددها في كليهما وهي تكون سبباً للطاعة حيث يستحسن الحب ما يستحسنه المحبوب ويعجبه ما يعجبه ويرضيه ما يرضيه .

(١) كتاب الزهرة ص ٨ .

(٢) » » » » ١٤ .

ثم تتغلغل المحبة في النفس حتى تتخلل العظم واللحم والدم فتسقط السرائر وتبوح الضمائر وهذه هي الحالة حيث تتصل النفوس بالنفوس وتنكشف عنها الحجب وتنبثق الأستار^(١).

وتتمكن الحالة وتقوى فتهوى بالمحب هوى في الحب فيفقد فيه توازنه ويتسلط عليه فيسيره كيف شاء ويصرفه فيه كيف أراد فيسلك في الوصول إلى المحبوب كل سبيل لا تضبطه إرادة ولا يكبح جماحه منطق وهذا هو الهوى^(٢).

حتى إذا ثبت الهوى في القلب وقويت في النفس أصرتة أصبح عشقا والعشق يمتاز عن الهوى بشيء يحسبه من يجهل أحوال المحبين منقصة وانحطاطاً عن مرتبة الهوى وما هو في واقع الأمر بذاك. وذلك أن العاشق يشفق أن يعلم الناس بهواه ويخشى أن يشتهر أمره فيحذر ما يظهر الناس عليه، ويحاول أن يبعد عن نفسه الشبهة بترك الإقبال على المحبوب وقد يحالفه فيما يخاف عاقبته على حبه.

ثم يزداد العشق ويعظم فيصير تقيماً. وفي التقيم يستعبده الحب ويغمره حتى لا تبقى فيه بقية لغيره. وهذه هي الحال التي يقف عندها الهوى فلا يتعداها ولا يزيد عليها. ويقول أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم^(٣)
حتى إذا بلغ منه التقيم كل مبلغ لم يبق له إلا أن يوله فيتعطل تميزه وتصدر أفعاله عن غير إرادة ويصدر في سلوكه عن غير ضابط ولا موجه حينئذ تتغير في نظره الحقائق وتنعكس القيم، ويفقد ميزان المنطق والعقل ويحتل عنده التفكير ويصبح في فوضى من أمره لا يقر له قرار ولا يهدأ له حال.

وقد يشتط الوله بالعاشق حتى يورده موارد التلف والفساد فيرضى من المحبوب بالقليل، ويصبر على ما يلقى من المرائر دون أن يجرؤ على استجداء الوصل والتماس النوال لا زهداً في الوصل ولا استغناء عن النوال وإنما خشية أن ينيل المحبوب غيره ما أناله إياه، وخوفاً من أن يلين الآخر كما لان له:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تسكن عليك شجي تؤذيك حين تبين
وإن هي أعطت لك اللبان فإنها لآخر من خلانها مستلين^(٤)

(١) كتاب الزهرة ص ١٩.

(٢) » » » ٢٠.

(٣) » » » ٢٠.

(٤) » » » ٨٧.

يقول أبو بكر: «وربما ضعف الخارج عن حال العشق التي توجب طاعة المحبوب على المحب إلى حالة الوله التي توجب الاعتراض عليه لفرط الميل منه إليه^(١)»
«فحينئذ يظن المحب مالا يخشاه ويتمنى مالا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودينه وهذه حال الوله الذي ذكرناه^(٢)» .

ولست أحب أن أعدى عن هذا الوصف دون أن أثبت إعجابي بهذه الدقة في تتبع أحوال الحب والعمق في فهم نفوس المحبين وكأن هذا الكلام مذكرات يومية لعاشق يرقب ما يفعله به الحب فيدون فيها ما يخطر على قلبه من خواطره ويسجل فيها ما يتقلب فيه من مراتبه ومراقبه .

٢

وتقس المحب تمر في هذه المراتب التي ذكرناها بأحوال كثيرة . فالمحب يشعر في أول الحب بلذة فيه ويستشعر من نفسه نشاطاً ليس له به عهد ويرى للحياة قيمة ما كانت لها من قبل فتراه مسروراً بالحب راغباً فيه سعيداً بوجوده ضئيلاً عليه مشفقاً من زواله . حياة جديدة فيها لذة وفيها متعة يشفق أن تختطف من بين يديه .

يروى أبو بكر بن داود أن امرأة كانت تعلق ابن عم لها ففطن لذلك أهلها وسقوها السلوة^(٣) فسلا كل عن صاحبه فكانت تقول :

سقيننا سلوة فسلا كلانا أراك الله نعمة من سقانا

وهو يعقب على ذلك فيقول : «وصاحبة هذا البيت قد سلت عن محبوبها وإنما تأمى على العشق لا على المشوق وفي مثل ذلك يقول بعض الهذليين :

إذا ما سألتك وعدا تريخ به مهجتي فأنا المستريح

فلا تعطيني الوجد خوف السلو فأني على حسراتي شحيح

أحب إلى من الصبر عنك فؤاد قريب وقلب جريح^(٤)

ولست هذه الحال قليلة الوقوع كما يزعم أبو بكر وإنما هي حال لا بد منها

(١) كتاب الزهرة ص ٨٩ .

(٢) » » » » ٨٧ .

(٣) نوع من الشراب لا يزال معروفاً عند أهل العراق وهو خرزة من حجر معين توضع في الماء ويسقى منه المراد به السلو .

(٤) كتاب الزهرة ص ٢٧ .

في أول الحب . فالحب يشعر الإنسان بوجوده ويوحى إليه بمكانه في الحياة وبأنه جزء قيم منها له خطره وله منزلته فلا عجب أن يحرص على هذا الضيف الطريف الذي آتته بعد وحشة وعرفه بنفسه بعد أن كان ينكرها . وهل الحياة في حقيقة أمرها إلا تعاطف النفوس وتجاوب خلجاتها واستئناس بعضها ببعض .

وحال السرور بالحلب هذه ابتداء لأحوال أخرى تلحقها وتأتي بعدها وهي تتميز بالغموض والإيهام فلا يشعر المحب فيها بوضوح هذه العاطفة ولا يملك التعبير عن إحساسه بها وإنما يحس بميل مبهم محوط بالغموض فيه سرور وفيه ارتياح ، حتى إذا قوى هذا الميل وتمكن شعر المحب بحاجته إلى اطلاع محبوبه على ما يستمكن بين الجوانح وما يخفق به القلب وهو مبهم فلا يسعف اللفظ ولا تقاوعه اللسان ، وإنما تفضح المحب زفرته الحرى وإطراقة الطويلة واتباعه من يحب بالنظر واستلذاذه الحديث عنه . « وقيل لبعض أهل هذا العصر ^(١) متى يكون البليغ عيباً ؟ فقال : « إذا سئل عما يتمناه أو شكاً ما به إلى من يهواه » وقال :

ما يعلم الله أنى مذ هو يتكم أطيع إظهار ما ألقاه باللفظ
كم قد تحفظته حتى إذا نظرت عيني إليك أزال هيتى حفظى ^(٢)

ولعل سبب العي في أول الحب ما يصيب المحب من الدهشة بمفاجأة الحب إياه وكل جديد تدهش له النفس وتجم بعض وجوم ويستعصى عليها التعبير ثم تظهر آثاره في أعراض جديدة كأعراض المرض لا يملك المصاب بها أن يعبر عنها ولكن قد تبلغ من القوة بحيث تعبر هي عن نفسها حتى إذا تمكنت من النفس واستقرت فيها وطال بها الأمد ألغى المحب واعتادها ففارق الاندهاش؛ حينئذ يستعيد جأشه ويسترجع أنفاسه فيفيض إلى محبوبه بما يضطرب بين جنبيه وما يختلج به فؤاده . « ليشرف على حقيقة ما في قلبه وليتمكن أيضاً هواه من نفسه ^(٣) » .

حتى إذا أيقن بود حبيبه وصح عنده حبه سكنت هواجسه واطمأن قلبه . على أن المحبوب إذا أيقن بذلك وتأكد بما هنالك « استغنى عن التعرف وارتفعت حاجته إلى التألف حينئذ يقع الغضب من غير ذنب والإعراض عن غير وجد لسكون القلب الوائق واستظيار المعشوق على العاشق ^(٤) » .

(١) يريد بذلك نفسه وهو كثير الاستتار وراء هذا التعبير في الكتاب .

(٢) كتاب الزهرة ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) » » » » (٤) الزهرة ص ٤٥ .

وأبو بكر ينظر إلى الأمر من جانب واحد فلا يأبه إلا بما يعقبه إظهار المحب
لمحبوبه على ما في نفسه من الإعراض بلا ذنب والتجنى بلا سبب ولا يقدر سرور
المحب بظفره بود المحبوب ويقينه بمحبته ولذلك لعمري أمر عظيم الشأن جليل
الخطر في نفس المحب وهو أجدر بأن يحتفل به ويلتفت إليه . وقد يكون لأبي
بكر في ذلك بعض العذر ذلك لأنه عاشق ذاق الحب فعرفه وتجرح من مرارته
ما أثلفه فلعل أذاه في هذه الحال قد رجح على متعته وزاد على لذته . ثم لا تنس
أنه كتب هذا الكتاب لمحبوبه فلعله إذن أراد أن يوحى إليه بأن يقصد في
الإعراض عنه والتجنى عليه وأنه يوصيه بالرفق به والعطف عليه .

وهو على أية حال يرى الـكتمان جبنا قد يودى بالمحب ويورده مورد
الهلاك^(١) وعنده أن خير الأمور لمن أطاقه أن يظهر بعضا ويخفي بعضا ثم يظهر
الازدياد حالا خالا . ويدرك أن هذا أمر عسير ، على المحبين غير يسير ، فيستدرك
ويقول : « على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها
محالا . ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول :

من كان يزعم أنه سيحكم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للرجال بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذ بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والقي مغلوب
إني لا أبغض عاشقا متحفظا لم تهمة أعين وقلوب^(٢)
وهذا الذي يلقاه المحب بعد أن يبوح لحبيبه بما في قلبه إن هو إلا امتحان
لحبه فمنهم من يظن أن ما يفجعه من التجنى واللباعدة داخل في باب الخيانة والفدر
فينحرف عن محبوبه ويمجره « فيجنى على نفسه ما لا يتلافاه العذر ولا يقاومه
الصبر^(٣) » . أما الذي يصبر على هذا الامتحان ويرضى صابرا بهذا الابتلاء
« خيئاً يتمكن من وداد محبوبه ويظفر من هواه بمطلوبه^(٤) » وهذه حال في
الحب سنية ومرتبة فيه عليّة وأهلها « يحمدون الهوى ويشكرونه ويصفون
لذاذاته للذين لا يعرفونه ويزرون على عيش من لم يتطعم مذاقه ولم يتعبد باسترقاقه
ألم تسمع الذي يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جامدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام ذو الشئان فيه وفندا^(٥)

(١) كتاب الزهرة ص ٥١ . (٢) كتاب الزهرة ص ٥٢ .

(٣) كتاب الزهرة ص ٥١ .

(٤) كتاب الزهرة ص ٥١ .

(٥) كتاب الزهرة ص ٥١ .

ولا يلبث المحب إذ يتمكن من ود حبيبه أن يرضن به ويعز عليه أن يستمتع به غيره فتساوره الهواجس وتتنازعه الظنون ويشتد إحساسه ويرهف شعوره فيفسر الأشياء بغير ما تدل عليه ويظن بحبيبه ما هو عنه بعيد . وهذا هو ما يعبر عنه أبو بكر بقوله : « سوء الظن من شدة الضن ^(١) » وهو الذى يقول فيه :
لقد جمعت أهواى بعد شتاتها صفاتك فانقاد الهوى لك أجمع
سوى خصلة ذكرى رهين بذكرها فقلبي منها ما حيت مروع
وحاشاك منها غير أن أخا الهوى بذكر الذى يخشى من الغدر مولع
بل لقد يبالغ فى ضنه به وحرصه عليه فيمنع نفسه من التلذذ بالنظر إليه والاستمتاع به ويفار عليه من نفسه .

يامت قبلك قد والله برح بى شوقى إليك فهل لى فيك من حظ
قلبي يفار على عيني إذا نظرت بقيا عليك فما أروى من اللحظ
وهذه حال أبعدها تكون عن العاشق سوى بل هى بالمولة أخلق .
وجلة القول فى هذين الحالين أن المحب فى أول عهده بالهوى ينشغل بمحفوظ
نفسه فيكون قصاره أن يطيل النظر إلى حبيبه وأن يستمتع بحديثه وينعم بقربه
ويرجو أن يكون حبيبه سمحاً بالمواصلة قريب المنال لين الجانب لا يستعصى على
من يهواه ولا يعسر الوصول إليه على من يتمناه حتى يسهل عليه سبيل الوصول
إليه حتى إذا أيقن بود محبوبه وانصرف إليه وقصر نفسه عليه ضن به وحرص
عليه وساورته الحواطر وتملكته الهواجس وظن بحبيبه الظنون ^(٢) .

٣

والحب عند أبى بكر ثلاثة أصناف :

١ — الحب السوى الذى يبدأ بداية طبيعية بالاستحسان ويرقى فى مراتبه
مرتبة فرتبة ، ويتقلب فى أحواله حالاً خالاً حتى يتمكن فى القلب ، ويرسخ فى
النفس ، وهذا الحب عسير على الزوال عزيز على التغير والاستبدال ^(٣) .
وهذا الذى يقول به أبو بكر أمر طبيعى منطقي — لو كان الحب يسائر
للنطق — وهو مشاهد فى المظاهر الكونية الأخرى . فأتقع الغيث وأجداه
على الأرض وأخلقه بشدة التأثير فيها هو ذلك المطر الهادى المتمهل يبدأ قطراً

(١) كتاب الزهرة ص ٨٢ . (٢) الزهرة ص ٨٦ . (٣) الزهرة ص ٣٣٠ .

لا جمعة فيه ولا صخب ولا أصير ثم ينهر فاذا نزل إلى الأرض استقر فيها شيئاً فشيئاً حتى ينفذ إلى الأعماق ، أما للطر السريع الهطول القوى النزول الكبير القطرات فهو ينزل ولا يلبث أن يسيل ولم يؤثر في الأرض غير التخريب والإفساد .

٢ — كذلك يكون الحب الذي ينشأ من أول النظر فهو نزوة لا يمكن أن تجرد في النفس مكاناً مكيناً حتى إذا عصفت بالنفس عاصفة أية عاصفة لفظت هذا الطارئ غير المتمكن واستبدلت به طارئاً جديداً . وأبو بكر يعبر عن الواقع الصادق حين يقول : « ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر ^(١) » ، « وأخلق بمن يسقمه أول داء أن يشفيه أول دواء ^(٢) » .

٣ — وصنف ثالث من أصناف الحب ينضج قبل أوانه ويستوى قبل إبانته فيقتله صاحبه فيه قبل أن تسلمه مراتب الحب وأحواله إلى ما بعدها شيئاً فشيئاً . وهو كسابقه لا يلبث أن يزول وأن ينحط « انحطاطاً طويلاً ^(٣) » وهذا أشبه بالثمرة تبدو عليها أمارات النضج وتظهر فيها علائم النماء من غير أن تمر إليه بالطريق الطبيعي فلا يلبث ذائقها أن يتبين انحداعه بالمظهر .

وهذا الكلام يعيد إلى الفكر حديث علماء النفس عن عاطفة الحب وكيف تتكون والعناصر التي تدخل في تركيبها ^(٤) . فالعنصر العقلي في عاطفة الحب والثبات والتركز والاستقرار كل تلك أمور يكاد يتفق فيها أبو بكر مع علماء النفس مع اختلاف في طريقة البحث وفي وسائله .

ولا ريب أن تركيب عاطفة الحب من عناصرها المختلفة العديدة يحتاج إلى أن يمر المحب بالمراتب التي وصفها أبو بكر أو بقريب منها .

٤

وقد مر بنا في حديث أبي بكر عن السكتان أنه قال : « على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها محالاً . ولقد أحسن العباس ابن الأحنف حيث قال :

(١) كتاب الزهرة ص ٣٣٠ .

(٢) » » » ٣٣٧ .

(٣) » » » ٣٣٠ .

(٤) يراجع الفصل الأول من الكتاب الأول .

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للرجال بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبد إلا والفى^(١) مغلوب
وغلبة الحب تبدى من الحب ما لا يريد أن يبديه ، وتقضحه فيما يحرص على
أن يخفيه ، فهو وإن حرص على أن لا يبوح بحبه وأن لا يظهر أحداً من الناس
على حاله لا يلبث أن تدل عليه من حاله دلالة وتكشف عليه أماره . فمن دلالات
الحب ما يتبين « في الزفرات واللون والنظر والإشارات » .

فالحب الذي امتلأ بالحب قلبه لا يني ينفت ألماً في صدره من فراق الحبيب
أو هجرانه أو إخلاف ميعاد أو تحن بغير سبب أو مباحدة من غير ذنب .
وهو إذا أقبل حبيبه ، خفق قلبه فتغير لونه ، وامتنع وجهه ، وإذا ذكر اسمه
رفرفت روحه وانبسطت أساريره وهشت جوارحه ولا يزال يتبع حبيبه بالنظر
لا يتحول عنه ولا يحول .

وأعجب من كل ذلك أن يؤتى المحب من مأمنه ويفتضح من حيث قدر أن
يستتر فهو قد يتحفظ لئلا يبدو للناس أمره فيضطره التحفظ إلى التصنع « والتصنع
الشديد يخرج عن العادة فيوقع التهمة بمن استعمله^(٢) » . وربما كان الكتمان
والاحتشام والتحفظ دليلاً على حال المحب وفضاحاً لأمره ، يقول أبو بكر :
« ولقد سمعت فتى من أهل الأدب يقول لآخر من أهل الهوى وقد أفرط في
احتشامه : وحاذر أن يطلع على شيء من حاله ، « قد والله بلغ مني ما أراه بك على أنه
ما يظهر لي من حالك إلا كتمانك لأمرك^(٣) » .

ويقول أبو بكر في هذا المعنى :

أخفيت حبك حتى قد ضننت به فصار يظهر ما أخفيه إخفاءً^(٤)

٥

وللحب أحوال تلابسه وتشوب صفوه فتقضى مضجع المحب وتنفي عنه لذة
الرقاد وتمنع منه راحة الفؤاد .

(١) كتاب الزهرة ص ٥٢ .

(٢) » » » ٣٢٢ .

(٣) » » » ٣٢٢ .

(٤) المرجع نفسه .

فمن هذه الملابس الحجاب ، وهو إما اختياراً يصطنعه المحبوب وإما اضطراراً بوقوعه به غيره صوناً له عن الحب المحجوب . والحجاب الاختياري ضروب فهو إما امتحان من المحبوب للمحب ليرى مقدار ما يحمله في قلبه من الحب ويستيقن من ثباته على مودته وبقائه على محبته أو خوف من الرقيب يستتر به المحب عن المحبوب خشية الافتضاح ، وخوفاً من أن يشيع أمرهما فيجهز عليهما الرقيب ويقطع ما بينهما من أسباب المواصله . ومنه ما يكون « استدعاءً للزيادة في الحال » وبعنا للمحب على الارتقاء في مراتب الحب والحرمان من أكبر الأسباب التي تزيد في الحب وتعظم أمره فهو بصهر النفس وإظهار جوهرها ويرسل للخيال العنان فيهم في محاسن المحبوب وفي اللذة التي كان يلقاها بقلائه وبالتحدث إليه . والخيال يبالغ في الواقع ويزيد فيه . والحرمان بعد المنع أشبه بالنار ينضج بها الحب ويكتمل استواءه .

وقد يكون مبعث الحجاب «الاشفاق من العذال والتصون عن قبيح المقال»
وقد يكون سببه الضجر والملال وهذا كما يقول أبو بكر: «هو شر الأحوال»^(١)
فهو خارج عن دائرة الحب يبعث في نفس المحب البرم بالحلب ويستحث فيه
العزوف عنه.

وقد يغضب المحبوب لهفوة يعوفها المحب كأن يبائع في الغيرة عليه ويمنع
سبيل غيره إليه فيحتجب عنه تأديباً له ، وفي ذلك يقول أبو بكر على لسان بعض
أهل العصر :

بعبك ما ألقى إذا كنت حاضراً
فقيم أرى نفسي لقي بفناءكم
أحجبنى أن قلت تحسد من بغى
أجل إن من يغنى هواك محسد
إذا لم أنافس فى هواك ولم أغر
فلا تحقر نفسي وأنت حبيبها
والرقيب آفة من آفات الحب وغصة من غصصه وبليّة من بلاياه يكدر على
الحبيبين صفوا المحبة ويقلق ما بينهما من أسباب المودة ، والمحبون يختلفون فى اهتمامهم
بالرقيب فمنهم من يغلف عليه أمره ويعظم عنده بلاؤه وهؤلاء هم الذين لم يبتلوا

(١) كتاب الزهرة ص : ١٠٤ .

$$\cdot \quad \cdot \quad \cdot \quad : \quad \cdot \quad \cdot \quad \cdot \quad (r)$$

إلا به ولم يلقوا من غصص الحب غيره . وقد صدق أبو بكر حيث يقول : « وإنما يغلف أمر الرقيب على من لم يمتحن بمفارقة الحبيب^(١) » ويقول أحدهم :
إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاماً تكلمنا بأعيننا مرا
فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجة ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا
ولو قدفت أحشاؤنا ما تضمنت من الوجد والبلوى إذن قدفت حجراً
ويعلق عليه أبو بكر تعليق الخبير بالنفس المحبة الذي قامى أهوال الحب وذاق
صروفه فيقول : « صاحب هذا الشعر البائس مغتر بالزمان ، جاهل بصروف الأيام
يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب ؛ وهو لا يعلم أن هذه الحال تقتصر عنها الآمال
وتنقطع دونها الآجال ، ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجر ولم يعترض إلى
الخيانة والغدر حسب أن الرقيب هو منتهى كيد الدهر ، وظن أنه قد امتحن بما
لا يقوم له الصبر^(٢) » ولا عجب فالحجاب كما يرى أبو بكر أيسر من النوى والهجر
أهون من الفراق :

لئن كان الرقيب بلاء قوم فما عندي أجل من الرقيب
حجاب الإلف أيسر من نواه وهجر الخل خير للأريب
ولا وأبيك ما طينت شيئاً أشد من الفراق على القلوب^(٣)
والحق أن لكل مما ذكر مرارته وألمه في النفس وإن كان الرقيب أهون على
الحب إذا تحقق من وفاء حبيبه .

وقد يجد الحبيبان في غيظ الرقيب واغلاق باله وارهاقه لذة أى لذة وبخاصة
حين يكون الرقيب منافساً في ود الحبيب طامعاً في حبه يتمنى أن لو فارقه محبه
وانحاز إليه ، أو حين يكون حسوداً يتمنى أن تزول عنهم نعمة هذا الحب .
وأبلغ في إيلام المحبين وتكدير عيشتهم الواشى وهو إما أن يسمى بالمتحابين إلى
غيرهما أو أن يسمى بالحب لدى محبوبه وذانك أشد الوشاية على المحبين وأبلغها
أثراً فيها ، وإما أن يسمى بالمحبوب لدى الحب وتلك أضعف المكاييد أثراً .
والمحبون في موقفهم من الوشاية على صنفين تبعاً لمكانهم من منازل المحبة
ومراتبها فالعاشق أو اللقيم قد بلغ من الثقة بحبيبه بحيث لا يسمع فيه قول واش

(١) كتاب الزهرة ص : ٩٠ .

(٢) » » » ٩٢ : ٩٣ .

(٣) » » » ٩٣ : .

ولا يطيع فيه مقالة كائد وأما الواله المدله فيسمع نفسه مالا تسمع زيادة على ما يلقيه الوشاة في سماعه وذلك لغلبة الظن على نفسه^(١).

والحق أن أشد الوشاة على المحب وأبلغ الوشاية إيلا ما له أن يوشى به إلى المحبوب فيستجيب هذا للوشاية وينقاد له فيصد عن محبه ويهجره :

لئن رقد الواشي مروراً بما أرى وهان عليه أن يقر وأنصبا
لقد أسهر العينين منى صباية وفادر قلبي مستهما معذبا
عدمت الهوى إن كنت طاشت وأفيا سواك وقد طوفت شرقاً ومغرباً
فإن لم تدع مالا أحب نظرفاً ولا راعياً عهدي فدعه تحوباً^(٢)
ونحن نلاحظ أن أبا بكر أوجز في حديثه عن الواشي والرقيب فلم يطنب
وأقصر فلم يطل ولعله فعل ذلك لأنه لم يقاس منهما في حبه كثيراً ولم يلق منهما
ما يغيظ أو يوغر الصدر وأى دليل على ذلك أوضح وأنصع من أنه أطلق على
باب الرقيب في الكتاب هذا العنوان « من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب »
أو لعله لقي من مرائر الحب ما هون عليه أمر الرقيب « ومن ركب البحر استقل
السواقيا » وأظن ذلك هو الأرجح .

وأما الواشي فأمره عند أبي بكر يشبه أمر الرقيب ويقرب منه فقد جعل عنوان
الباب « من أحبه أحبابه وشى به أرابه » وفيه ما يشعر بأنه ينظر إلى الواشي
والوشاية نظرة تكاد تكون منطقية بعيدة عن الاتفعال والتأثر ولعل ذلك طائد
إلى أن ثقته بحبيبه وثقة حبيبه به كانت بحيث تتقاصر دونها وشاية الواشين وسعاية
الساعين . وقد مر بنا في الحديث عن حبه ما يؤيد ذلك ويثبتته .

ومن ملاسبات الحب العذل وهو عند أبي بكر توقيف على مواضع المصلحة
وتبين لما في الحال التي بقى عليها المعضول من المنقصة^(٣) « فهو لذلك لا يجدى على
الذي يقع منه الهوى اضطراباً ويقع فيه من غير إرادة ولا اختيار ، أما الذي
يهوى مختاراً غير مضطر ومريداً غير مدفوع فالتوقيف على مواضع المصلحة وتبين
ما في الحال التي هو عليها من المنقصة يقع من نفسه موقفاً ويجد فيه سمياً مطيعاً .
وذلك هو الذي يحفل بالعذل ويصغى إلى مقالة العذال « والشئ لا يوجب زواله
إلا ضد ما أوجب ثباته فكما أن الهوى الاختياري يضاده التوقيف على مواضع

(١) كتاب الزهرة ص ١١٨ .

(٢) » » » ١٢٢ .

(٣) » » » ٣٢٢ .

الحال فيوجب على صاحبه أن يختار إزالته فكذلك الهوى الاضطرارى لا يزاله الاضطرار بمضاده . . . وهو لا يزول إلا بزوال الجهة التى أوجبتة إذ محال أن يكون شئ علة لشيء فيزول للملول والعلة قائمة^(١) .

وأبو بكر فى هذا الباب علقى منطقى يشيع فى كلامه الجفاف ويغلب فيه التأثير بالفلسفة وهو بعيد بعداً ما عن أن يتكلم بلسان المحب الذى يستنبط من نفسه ما يكشف عما هو بصدد الحديث فيه .

والحق أن تقسيم الحب إلى اختياري واضطرارى أمر ليس من الواقع فى شئ بل الواقع أن عاطفة الحب فى شكلها الكامل السوى مزيج من الاضطرار والاختيار وإن كان فى مبدأ نشأته أقرب إلى أن يكون اضطراراً أو بعبارة أدق ليس للاختيار فيه نصيب كبير وأقصد بالاختيار الاختيار العقلى المسبب وهو من العواطف غير قريب .

أما إذا كان أبو بكر يريد بالحب الاضطرارى ذلك الذى ينشأ من أول النظر فيعظم أمره من غير أن يرقى فى المراتب المعروفة فهو كما قال فيه قبل ليس إلا استحيانا مبالغاً فيه أو نزوة من نزوات الغريزة لم تبلغ مبلغ العاطفة . وقد مر بنا فى الكلام على الحب أنه عاطفة مركبة من اتصالات تستمد معينها من دوافع غريزية ومن عناصر عقلية تستمد من قوة التفكير والتعليل^(٢) .

والعذل بعد ذلك نوطان : عذل يقع ابتداء « فليس على النفس منه مؤونة » وهو يمر بالمحب فلا يحفل به . وعذل ممن يؤمل المحب منه للمؤونة ويرجوه للإسعاد وهو يعقب المذول « تعباً كاسراً لمنقلبه ومسقطاً لهمة^(٣) » ولأبى بكر فى العذل أبيات جميلة يرويه على لسان بعض أهل العصر :

يعاتبني أناس فى التصابي بألباب وأفئدة صحاح
إذا اختلط الزمان وهم سكارى بكاسات الرقاد إلى الصباح
ولى سكر يحنبني رقادى فما أدرى الغدو من الرواح
أما لى فى بلاد الله باب يؤدبنى إلى سبل النجاح
بلى فى الأرض متسع عريض ولكن قد منعت من البراح
وما يغنى العقاب عيان صيد إذا كان العقاب بلا جناح^(٤)

(١) كتاب الزهرة من ٢٢٣ .

(٢) فى الكلام على الحب عاطفة هو أم انفعال — الفصل الأول من الكتاب الأول .

(٣) كتاب الزهرة من ٢٢٦ . (٤) كتاب الزهرة من ٢٢٩ — ٢٣٠ .

ويتوهم بعض المحبين أن العذل يغري الحب بزيادة المحبة ويبعث في نفسه الرغبة في الاستزادة منها وأبو بكر يلتفت إلى ذلك التفاتة المحلل النفسى الدقيق العارف بخلجات القلب الراصد لخطوات النفس فينبى أن يكون العذل باعنا على مثل ذلك وإنما العذل يثير في نفس المحب : « الاشفاق على حال من عوتبت في محبته » والخوف على منزلته فيها والخشية من أن يزول منها ما كان له فيها من المكانة . وخطرة الاشفاق هذه تهيج الفكر وتزيد في التشبث بالحب وفي التعلق بالمحبوب فيظن المحب أن محبته قد زادت بالعذل وهي في الواقع لم تزد ولم تنقص^(١) .

وهذه لفظة نفسية قيمة تدل على خبرة بالحب وتنبى عن رصد لحواطر النفس وتتبع لحواجز القلب وتأمل عميق في تلك الحواطر والحواليج . ومن دواهي الحب وآفاته الفراق وهو ما خلق إلا لتعذيب العشاق « وهو مستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق في وصفه^(٢) » ولا يزال العاشق من الفراق على وجل يخشى أن يهيم به ويحذر أن يقع فيه :

على كبدي من خيفة البين لوعة يكاد لها قلبي أسى يتقطع
يخاف وقوع البين والشمل جامع فيبكي بعين دمعها متسرع
فلو كان مسرورا بما هو واقع كما هو محزون بما يتوقع^(٣)
لكان سواء برؤه وسقامه ولكن وشك البين أدهى وأوجع
وخوف الفراق إنما يستظهر في الأثر كثير على العشاق والمتممين أولئك الذين وجدوا لذة الإسماعاد من الأحبة واستشعروا الأتس بالقرب منهم فهم من زوالهم على حذر وهم من فراقهم على وجل . أما الموهون الذين فقدوا التمييز وخرجوا عن الإرادة والتعقل فهم مشغولون بما توسوس لهم تقومهم من غدر المحبوب وخيائته من أن يفكروا في الفراق أو الهجر^(٤) .

ومن المحبين من يسعى إلى الأذى بنفسه ويقع فيه باختياره فيجتريء على فراق محبوبه وذلك يكون إما لنفى أقوال الوشاة عنهم وإما لضجر يصيبهم « وأما لنشاط في النفس وزهد يلحقها لقوة الظفر بما قد حصل لها^(٥) » وهذا النشاط يولده الغرور بالظفر والثقة بؤد المحبوب .

(١) كتاب الزهرة ص : ٢٢٥ . (٢) كتاب الزهرة ص : ١٩٢ .

(٣) في الأصل « كما هو مسرور بما يتوقع » وبما صححناه يستقيم المعنى .

(٤) كتاب الزهرة ص : ١٦١ . (٥) كتاب الزهرة ص : ١٧٨ .

أصول به تيرا عليه فمن رأى من النفس قبلها عاشقا يتصلف
إذا خفت منه الغدر أبدى توافيا يزول به خوفى ويبقى التخوف^(١)
وربما فارق المحب حبيبه امتحانا لصبره على فراق الحبيب؛ وهذا كما يقول أهل
العصر لعب بالنار تصدق فيه حكمة أبي بكر: «من تجلد على النوى فقد تعرض
للبلبلى^(٢)» وربما رحل عنه ليجد لذة اللقاء بعد الفراق وليبعت في قلب حبيبه
الشوق إليه «وكثيرا ما يجري الأمر في ذلك على ضد تقديره^(٣)» ويصدق على
ذلك قول أبي بكر: «من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه» وقوله على لسان بعض
أهل العصر:

ألا يا لقوى للهوى للترايد وطول اشتياق الراحل المتباعد
رحلت لكى أحظى إذا أبت قادما فأوردنى الترحال سوء الموارد
كأنى لديغ حار عن كنهه دائه طيب فداواه بسم الأساود
فما مع الداء القديم دواؤه فيالك من داء طريف وتالد^(٤)
ويرى أبو بكر بحق: «أن الحزم لأهل الهوى ألا يبسطوا على أرواحهم
يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش ويبرح القلوب
فكيف إذا تحكم فيه سلطان الفوارق وأمدت صاحبه الفكر بخواطر الاشتياق
والتهبت في الضمير لومات الاشتياق حينئذ تسكب العبرات وتمكن الحشرات^(٥)
وهذا كلام خبير ذاق اللوعة وجرب الغصة.

والفراق بعد هذا يقوى الحب ويزيد في توكيده ذلك أن الحب إذا فارق
حبيبه تذكر قربه وتخيل أنسه به والتذاذه بوصاله فضعف في قيمته وبالغ في
فقره إليه فزاد ذلك في تعلقه به وحرصه عليه:

وكنيت أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تفرقنا تذكرت ما مضى فأيقنت أنى إنما كنت ألعب
فقد والذى لو شاء لم يخلق النوى عرضت فما أدري إلى أين أذهب^(٦)
وكما تظاول به الأمد زاد شوقا إليه وكما طاب له عيش أو صفاه له حال تذكر
أيام قربه من حبيبه فنغص التذكار عيشه وزاد في حنينه إليه:

كفى حزنا ألا أطين بقعة من الأرض إلا زدت شوقا إليكم

(١) (١، ٢، ٣، ٤) كتاب الزهرة ص ١٧٨.

(٥) الزهرة ص: ١٨٤ — ١٨٥.

(٦) » » : ١٩٧.

وأنى متى ما طاب لى خفض عيشة تذكرت أياما مضت لى لديكم
فنفص تذكرى لها طيب عيشتى فقلت سيفنى ذا فياسى عليكم^(١)
ولا يفتأ المفارق يحن إلى لقاء حبيبته حتى إذا قعد إليه استطال الطريق عند
اقترابه وضجر منه وفى ذلك يقول الموصلى :

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار
وعلة ذلك « أن تطاول المدة يزيد فى الشوق مع تقارب المشقة وقوة الرجاء
لسرعة اللقاء من أقوى الأسباب فى تقوية الشوق عند الاقتراب^(٢) » .
وهذه لفظة خير ذاق فعرّف .

أما الهجر فهو عند أبى بكر أربعة أضرب . هجر ملال وهجر دلال وهجر مكافأة
على الذنوب وهجر يوجب البغض المتمكن فى القلوب^(٣) .

وليس هجر الدلال بحقيق أن يسمى هجرا فهو كما يقول أبو بكر ألد من كثير
الوصال^(٤) على أنه يخشى أن يطول به الأمد فيضيق به الحب وتنقبض منه نفسه
فيستثقل من الحبيب ما لو قصد فيه لكان أخف عليه من النسيم العليل . وقلب
العاشق كالمرآة يجلوها الوصل ويرين عليها الهجر وإن كان هجر دلال .

وأما ما بقى من صنوف الهجر فيزول بزوال ما نتج عنه ويبطل باختفاء ما تولد
منه فـ هجر الملل يزول مع الزمن والذي يزيله هو انبعاث الشوق فى نفس المحب
أو الحبيب كأنبعاث الماء المحتبس بين الصخور والرمال لا يلبث أن يتفجر ينابيع
من بعد أن كاد يظن به الغياض .

وأما الهجر المتولد عن ذنب فأبو بكر يرى أن التوبة تفرجه عن القلب بالعتاب
وبسط العذر والتوسل والانتقاد للأمر .

والصنف الرابع ليس من الهجر فى شيء إذ الهجر طارىء يطرأ على العلاقة بين
الحبيبين فلا يفصم عروة ولا يقطع سببا ، وإنما يوهن العرى ويوهى الأسباب
والبغض الطبيعى الذى يجعله أبو بكر سببا لهذا النوع من الهجر لا يستقيم معه
الحب فهو ينفيه ويهدمه من أساسه .

والهجر عند أبى بكر أعظم أمرا من الفراق وأشد على النفس وطأة وقد عبر

(١) كتاب الزهرة ص ٢٠٢ .

(٢) » » » ٢١٣ .

(٣) » » » ١٣٦ .

(٤) » » » ١٣٦ .

عن ذلك فقال في عنوان الباب الثامن عشر: «بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار عن الديار». ذلك لأن بين الهجر والغدر مناسبة. فلهجر إن لم يكن عقاباً على ذنب أو تدللاً بإظهار تحن أو عتب أو مراقبة لوأش أو مللاً من العذل فلا معذر له غير الغدر والخيانة^(١) وهو يلحق بالمحب ضرباً من الغيظ لما رماه به حبيبه بلا سبب وكما نظر إلى محبوبه القريب منه طارده ذلك الغيظ واشتعلت ناره في قلبه وليس في الفراق شيء من ذلك إذ «النفوس تذلل للفراق وتنقاد معه لدواعي الإشفاق والاشتياق^(٢)».

وهذا الفراق هو الفراق الاضطراري الذي تقذف الأيام به المحب أما الفراق الذي يوجبه الهجر أو الغدر فما أظنه المقصود بكلام أبي بكر. والمحـب لا يزال ينقاد للإشفاق في قربـه من الحبيب وفي بعده عنه فهو في حال القرب يشفق من زوالها ويحذر من تغيرها حتى إذا ابتلى بالفراق زاد في نفسه الإشفاق وعظم فطـار طيرة فيها التفاؤل والتشاؤم: «فتراه حينئذ يتيامن بالسوانح حسب تشاؤمه بالبوارح^(٣)».

وقد رأينا أن الهجر هجر متولد عن ذنب فذلك يزول بالعتاب والاعتذار والتوسل. والعتاب ثلاثة أنواع: عتاب يقع من الارتباب ويقصد فيه إلى إزالة الشك من نفس المعتاب. وعتاب يقع بعد اليقين ويقصد فيه إلى الوقوف على عذر المعتاب وإلا اعتبر ذنبه الذي اقترف داخل في باب الغدر. وهذان كثيراً ما يجريان بين المحبين وهما بسبيل مما تقدم ذكره في الكلام على الهجر. والنوع الثالث من العتاب ما يسميه أبو بكر معاتبة التوقيف (ولعله يريد بذلك التوقيف على الذنوب ومواضع الخطأ) وهي كما وصفها تجري على جهة التعنيف، وفيها يقف المعتاب من المعتاب موقف المحصي للذنوب المستقصى للزلات لا يترفق ولا يسامح. وهذه الحال كما يقول أبو بكر: «حال لا تكاد تجري بين المتحابين إلا عند انقطاع الحال بينهما أو عند ضجرة شديدة تلحقهما أو تلحق أحدهما^(٤)».

ولا بد في الحب ككل العلاقات الاجتماعية من إغضاء عن الصغائر والهفوات ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى للمرء نبـلاً أن تعد معاييه إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

(١) الزهرة ص: ١٩٢

(٢) الزهرة ص: ١٩٣

(٣) » » ٢٤٦

(٤) » » ١٢٤

وابو بكر هنا يضع قانوناً على جانب عظيم من الحكمة في الحب وفي الحياة الاجتماعية عامة . فهو يوصي بالترفق في العتب وصونه عن أن يقع فيه ما يخل بالعلاقة بين المتحابين ، وتذكره طبيعة الحب وما يمتاز به من الإيثار والإبقاء على حبيبه وتحمل المسكاره دونه فيقول : « وأحمد أحوال العتاب صيانة الحال عن أن يجري فيها شيء من الاختلال بقيا على المذنب لا بقيا على المؤنب ^(١) » . وهو لا ينصح بترك العتب لأن تركه يدخل عنده في باب الإهمال بل إن الأمور التي يجري من أجلها العتب مهما صغر شأنها وقل خطرهما لا تلبث أن تجتمع في النفس — إن لم تصرف — فتحدث فيها انقباضاً قد يسلمها إلى مالا يحمد في العلاقة بين المتحابين .

وبعد فإن « الموقف على كل ذنب يوجب قطع المواصلات واتصال العتب ^(٢) » و « من طاب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه ^(٣) » .

وقد تبين لنا أن العتاب يكون للوقوف على عذر المعتاب عما بدر منه . فإما اقتنع به المعتاب وعذره وأغضى عما اقترف وإما ظهر له أن ما ارتكب يدخل في باب الغدر وحينئذ « إذا ظهر الغدر سهل الهجر ^(٤) » .

وعلة ذلك أن الحب قبل أن يقف على فعل حبيبه الذي دماه إلى هجره أو فراقه لا يزال يقاوم ذلك في نفسه ويحملها على العدول عنه إبقاء على الحب وإبقاء على المحبوب حتى إذا ظهر له أن ما أمله في الحبيب مراب ، وأنه ليس في بقاءه على الحب ووفائه فيه مطمع لم يقاوم الرغبة في القطيعة بل أرسلها وتركها تتمكن في نفسه « والنفس الحرة لا تعبأ بمن غدر بها ولا تستصلحه بمعاينة ولا ترصده بمعاينة بل تخلى فكرها عن ذكره وتصور خواطرها عن الخوض في أمره . وفي هذا النحو يقول بعض أهل هذا العصر :

يا قلب قد خان من كلفت به نخل عنك البكاء في أثره
شغلك بالفكر في تفسيره أعظم مما لقيت من غيره
فارحل فمن لا يحسن مورده يفض به صفوه إلى كدره
وارجع إلى الله في الأمور قلن تقدر أن تستجير من قدره ^(٥)

(١) الزهرة من ١٢٤ . (٢) الزهرة من ١٢٥ .

(٣) عنوان الباب التاسع عشر من ١٢٩ .

(٤) الباب العشرون من ١٤٩ .

(٥) الزهرة من ١٤٩ .

ومن الناس من يغلبه: «هواه على الصبر فيصبر لمن يهواه على الغدر»^(١). وهؤلاء هم اللوّهون الذين تجاوزوا حدّ العشق إلى تعطّل الإرادة وفقد التمييز وضعفت قواهم من أن تصبر على هجر محبوبهم. وهذه ثمرة التردد والحيرة وقلة الصبر على الأذى. فيرجعون صاغرين إليهم؛ راضين بما فرطوا في جنبهم «وبين الرضا الاختياري وبين الرضا الاضطراري بون بعيد»^(٢).

ثم تغلب أبا بكر طبيعة الفيلسوف الذي يضع للمحب دستوراً فيزعم أن «سألو المحب عمن غدر به غير معيب عليه، ويعمل ذلك بأن الأمر فيه ليس إلى المحب وإنما هو: «تفور النفس عمن خالف شكايها كما توجب المحبة سكون النفس إلى من شا كل طبيعتها»^(٣). لو كان الأمر كما يقول لما وقع الحب ابتداءً إذ الحب كما قال من قبل لا يقع إلا بين متشاكين متوافقين. ما لنا نأخذ عليه ذلك وهو يكتب الكتاب من أجل حبيبه فلعله إذن أراد أن يوحى إليه بذلك إيماءً والإشارة قد نفى عن العبارة.

٦

ولا يزال المحب الذي ابتلى بفراق حبيبه أو هجرانه في حيرة من أمره وفي غمرة لا تلبث أن تنكشف فيصحو من حيرته وهي تنكشف بأحد أمرين: إما بغلبة الاشتياق إلى حبيبه فيضطره ذلك إلى الرجوع والالابة إليه ولا تشغله عنه لذة من لذات الدنيا؛ وإما أن يشتغل بغير هذه الحال فيسلو على مر الأيام والليالي^(٤). وذلك منوط بمرسوخ المحب في الحب وتمكنه من نفسه. فمنهم من يستولى عليه فلا يدع فيه مكاناً لسواه بل يعرفه فيه كيف يشاء. فهو لا يأتمر إلا بأمره ولا يصدر إلا عنه في سره وجهره. هؤلاء الذين تشتغل بغيره قلوبهم.

وقد يسأل بعض هؤلاء من ضجرة تصيبه من «مخالفة محبوبه أو تعذر بعض مطلوبه أو لتأذ بحاجب أو رقيب أو لملال من سعاية واش أو عذول»^(٥) ولكنه لا يلبث أن يرجع من قريب ويعيده إلى المحبوب طيف الخيال أو أحلام نائم. وربما ابتلى بالفراق فعاجلته فيه الأشواق وبعثت في قلبه الإشتاق. وصار هؤلاء

(١) الباب السابع والعشرون من: ١٧٠.

(٢) الزهرة من: ١٧٠ — ١٧١.

(٣) الزهرة من: ١٥٥.

(٤) ١٩٩: ٥ (٥) ١٦٤: ٥.

أشبهه بالصدفة تحيط بالؤلؤة فتحجب بريقها وتخفى لآلئها أو كالرماد يغطي على الجمر المتقدم لا يكاد يحرك حتى يبدو الجمر من تحته .

وأما « من كان سلوه تابعاً لظفوره بما من أجله كان ابتداء محبته فإن الهجر والفراق لا يعيدان له هوى ولا يتبعان على ضميره أمسى ^(١) » هؤلاء قوم ليسوا في عداد المحبين والذي يظهر عليهم إنما هو نزوة من نزوات الشهوة وانفعال من انفعالات الغريزة لم تبلغ مبلغ العاطفة فهي لا تثبت ولا تستقر ولا تنصرف إلى شخص معين ، وإنما يغنيها من لطمئن حاجتها فيه أيا كان ، أما الحب فعاطفة فيها الثبات والاستقرار والانصراف كما سبق أن شرحنا ذلك .

والذي يبعث السلو حقاً ويوطن له نفس المحب هو اليأس . ولليأس رووات فأولاهها تفاجيء القلب بما لم يعتده وتباغته بما لم يتوقعه وتفجعه « بالرجاء الذي كان يعتاض به من حال الصفاء ويتماسك به من سطوة الفراق ^(٢) » فهي إما أن تقضى عليه وتتلفه وإما أن تذله لما بعدها . والروعة الثانية « ألم المعاودة وليس لها ألم فقد العادة فإن هي — الروعة الأولى — لم تتلف وفيها مكروهان لم تتلف الثانية وليس فيها إلا أحدها وكذلك كل روعة يجلبها الفكر والتذكر هي أهون من التي قبلها لأن للتقدمة قد أُنذرت بها ووطأت المواضع لها حتى ينحل ذلك أجمع في النفس حالا بعد حال ^(٣) » ولهذا يرى أبو بكر أن « من يئس ممن يهواه فلم يتلف من وقته سلاه ^(٤) » .

وكلام أبي بكر في هذا الباب قد يقبله النطق ولكنه كثيراً ما ياباه الواقع إذ النفوس لا تجري خطراتها على قانون وتخضع عواطفها لقواعد النطق . فهي إذا جثت بروعة اليأس الأولى فلم تتلف أصابها الوهن وضعفت فيها المقاومة وعجزت عن احتمال الروعة الثانية فتأذت بها أكثر من تأذيها بالروعة الأولى وهينا يكون التلف البطيء والموت المتدرج وهو أشق من الموت الوحي وأشد وألم . وفي مثل ذلك يقول المجنون بعد يأسه من ليلي :

عجبت لعروة العذرى أضحي أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنذا أموت كل يوم

(٢) الزهرة ص : ٣٤٣ .

(١) الزهرة ص : ١٦٣ .

(٣) » » ٣٤٤ : .

(٤) » » ٣٤٣ : وفي النسخة المطبوعة « من يئس من يهواه فلم يتلف من وقته سلاه » ولا معنى للعبارة على هذا الوجه . والصحيح ما أثبتناه .

٧

أما وقد ألممنا بطرف من آراء أبي بكر بن داود في الحب مبدئه ومنشئه وأحواله ومنتهاه فنريد أن نلم بما شرط في الحب من آداب لا بد منها لتكون حال المحب تامة أو قريبة من التمام .

فمن آداب الحب العفة وقد عقد لها أبو بكر بابا من أبواب كتابه جعل عنوانه : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » وهو يستعمله بحديث يرويه عن النبي عليه الصلاة والسلام « قال أبو بكر بن داود » : حدثني أبي قال : حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني قال : حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى الققات عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عشق فعض ففكتمه فمات فهو شهيد ^(١) » .

وللعفة عند أبي بكر — فضلا عن أمر الدين بها وتواضع الناس عليها — مكان في الحب أسمى من ذلك وأجل فهي تبقى على الود وتصور الحب يقول أبو بكر في ذلك : « ولو لم تكن عفة المتحايين عن الأذناس وتحاميتها ما ينكر في عرف كافة الناس ، محرما في الشرائع ولا مستقبحا في الطبائع ، لكان الواجب على كل واحد منهما تركه إبقاء لوده عند صاحبه ، وإبقاء على ود صاحبه عنده » . فهو إذن يرى أن امتنان الحب بإشباع الشهوة يهبط به عن رفيع مكانه وسامى منزلته وهو بذلك يسبق الإمام الغزالي الذي وصف الحب الصادق بأنه يتعلق بالمحبوب لذاته لا لغاية أخرى ، ويسبق بويس جيسون الذي اصطنع تعبير السرور بالمحبوب لذاته في الحديث عن عاطفة الحب .

وإفساد الشهوة للحب وإبقاء العفة على الود في نفس المحبوب وفي نفس المحب معنى جميل يوحى في النفس أشياء منها أن المحبوب إذ يشعر أن تعلق محبه به علاقة روحية تعلو على المصالح وتسمو على المنافع — فإنه يستجيب لها بارتياح واطمئنان حتى إذا أحس أنه يطمع منه في أشياء تعود عليه بقضاء الحاجة وإشباع الغريزة انقضت عنه نفسه وازورت عنه خواطره ونأى عنه بجانبيه .

والمحب إذ ينجذب إلى حبيبته بهذه العاطفة المركبة يشعر أنه منجذب إليه بكليته بنفسه وبقله وبروحه حتى إذا غلب بعض هذا على بعض اختلت العاطفة واضطربت أسبابها وفقدت قوتها .

وما لنا لا ننظر إلى الحب فنظرتنا إلى العلاقات الاجتماعية الأخرى كالأبوة والأمومة والقرابة والصداقة . حيث يمس الطرفان فيها بالانجذاب أحدهما إلى الآخر انجذابا لا تقوم على المصلحة أو اصره ، ولا تستند إلى المنفعة رابطة . حتى إذا وسوست لأحدهما المصلحة وتدخلت بينهما المنفعة ضعف الانجذاب ووهنت أسبابه وانحلت قواه .

ثم إن في العفة ضربا من الحرمان يصبر النفس ويقذف بخبيثتها بعيداً . والحرمان قوام حياة الإنسان بما هو إنسان به تنتظم شئون أفرادهِ وتضمن حقوقهم وتضامن مصالحهم من الاعتداء والحب وهو ظاهرة إنسانية فيها من كمال الإنسانية ومن جمالها الشيء الكثير لا بد أن تمثل فيه هذه الضرورة الإنسانية بأكمل مظاهرها وأنتم جواهرها .

وأية علاقة في الوجود أسمى وألطف من هذه التي يصورها أبو بكر في الآيات الآتية :

لا تلزمني في رعي الهوى سرفاً وما أوفيه إلا دون ما يجب
لو كنت شاهدنا والدار جامعة والشمل ملتئم والود مقرب
لا بل مساواة ودي وده بهوى كأنه نسب بل دونه النسب
مستأنين بما مخفى ضمائرنا على العفاف ورعى الود نصطحب
فإن محاشي الشوق فرط الأنس أوحشنا أنس العواذل إن جدوا وإن لعبوا
فما ندافع بالهجران فهو على أن لا يزول هوأنا مشفق حذب
حانيت منزلة في الظرف طامة ورتبة قصرت عن شأوها الرتب
في عفة تتحامي أن يلم بها سوء الظنون وأن تقتالها الريب^(١)
وقد يعمر في العفة ويفرق فيها حتى تستحيل مثالية فيها كثير من الغرابة فهو
لا يروى لحظة من النظر إلى حبيبته لأن قلبه يغار عليه من لحظه وهو إنما يفعل
ذلك ضنا به وإبقاء عليه :

يامت قبلك قد والله برح بي شوقي إليك فهل لي فيك من حظ
قلبي يغار على عيني إذا نظرت بقيا عليك فما أروى من اللحظ^(٢)
ومن آداب الحب الصبر على ما يلقاه المحب من هجر الحبيب وصده فقد يقصر
الحبيب عن مواصلة ويصد عنه ويتراخى عن إظهاره على مكانه في نفسه ثقة به

(١) الزهرة من : ٧١ : (٢) الزهرة من : ٧٢ : (٣)

واطمئنانا إلى صادق وده وسكوننا إلى تمكن الحب من قلبه ، وقد يقع في وهم المحب أن حبيبه إنما يفعل ذلك خيانة له وغدراً به ؛ فيكافئه على ذلك بالانحراف والهجر فيجنى على نفسه ويلقى بها إلى التهلكة ، يحسب أن انحرافه عن حبيبه أيسر عليه من الصبر على دلاله ثم لا يلبث أن أزمع صرماً وأتقذ عزماء على الفراق والهجر أن يرجع إلى حبيبه صاغراً . وأبو بكر يجعل ذلك في قوله : « والحازم من صبر على مضاضة التدلل والتمس العز في استشعار التذلل ^(١) » .

وليس يجمل بالمحب أن يضجر إن مسه الضر من حبيبه من بعد مساعفة منه وإسعاد والضجر مما ليس للمحب عنه مهرب « مهجن لمظهره ومزري يستشعره ^(٢) » فهو واقع في الحب لا طاقة له بالاتقالات من أسره سواء عليه أصبر أم جزع ماله من محيس ، والصبر حينئذ أجل به وأولى وأحسن ، على أنه مع ذلك غير ملوم على الضجر ولا معنف على الجزع فهو كفاقد النعمة الواقع بعد بلينيتهما في النعمة لا بد له أن يجزع لزوالها ويضجر لتحول حالها « فإن من تسامح له الزمان وتغافلت عنه صروف الأيام فوقع في مرعى خصب وظفر بما لم يأمله (من ^(٣)) المحبوب ثم عطفت عليه الأيام عطفة الحق المغتاط فاسترجعت ما أعطته واستردت ما أطارته لغير معنف على الحيرة والتخليط والتأسف على ما قدم من التفريط ^(٤) » .

على أن المحب الذي اكتمل في نفسه الحب وتدرج في مراقبه حتى بلغ منتهاه لا يلبث أن يصبر بعد الجزع ويسكن بعد القلق وينيق من غمرة الضجر وحيرة الترم بحبه طوعاً أو كرهاً . فالحب يملك على المحب النفس ويهيمن عليها فلا يزال يصارع الضجر ولا ينفك ينازل الجزع حتى يخضد منهما الشوكة فترجع نفس المحب إلى الصبر على الحب راضية أو غير راضية .

أما الذي يخيل إليه أنه بلغ الذروة من أول نظرة فهو أبعد ما يكون عن الثبات وأهون ما يكون على القلب وأيسر على الاتقالات « فكما كان ارتقاؤه فيه سريعاً كان انحطاطه قريباً ^(٥) » .

والمحب العريق في الحب لا يقف به الأمر عند الصبر على مرائره ومضاضته ولكنه يرضى به ويطمئن إليه قلبه وتسكن إليه نفسه فلا يطلب منه فكاً

(١) الزهرة ص : ٥٢ . (٢) الزهرة ص : ١٠٩ .

(٣) ساقطة في الأصل ولا يستقيم المعنى إلا بها .

(٤) الزهرة ص : ١٠٩ . (٥) الزهرة ص : ٢٣٥ .

ولا يود من ربقة انقلاتا وهو لو قدر على الفكك منه لما فعل فهو يستعذب فيه العذاب ويستحلى ما فيه من المرائر ولقد مر بنا قول القائل :

إذا ما سألتك وعدا تريخ به مهجتي فأنا المستريح
فلا تعطني الوعد خوف السلو فأني على حمراتي شحيح
أحب إلى من الصبر عنك فؤاد قريح وقلب جريح
وأبو بكر يستحسن قول يزيد بن الطثرية :

يقولون صبراً يا يزيد إذا نأت ويا رب لا ترزق على حبها صبراً
ويعقب عليه بقوله : « فهذا يختار لنفسه البلاء ضناً بمحبتها من الهوى ولعمري
إن هذه لحال وكيدة وإنها لو فارقت حتى يرى نفسه بعين الحرية من ملكها
لا تتقل عن رأيه وتندم على وفائه ^(١) » .

وهو ينقد قول القائل :

يلومك فيها اللائمون نصاحة فليت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلى أطاعني أطعت ولكن الهوى قد عصانيا
وفيه من البرم بالحب والضيق بالحبيب شيء كثير . وأبو بكر ينقده فيقول :
« وهذا الكلام لا يكون إلا عن حال ضعيفة أو يعقب ضجرة شديدة لأن
صاحبه لم يرض بالتبرم من هواه حتى ضم إلى ذلك تمنى انصراف الحال إلى
سواه ^(٢) » .

ويحيل إلى أن العشاق في هذا الأمر صنفان ؛ فبعضهم يرتقى في الحب إلى أعلى
مراتبه ويتمكن من نفسه ويدخل فيها كل مدخل ولكنه يبقى له أحياناً من الزمن
يرجع فيها إلى حاله الطبيعية فيظهر عليه الضجر ويبين منه البرم .

وآخرون لا يكتفون بذلك أو لا يكتفى الحب منهم بذلك بل يستغرق فيهم
ويستغرقون فيه فلا يحسون كما يحس الناس بل تتبدل عندهم وسائل الإحساس
ويختلف تقديرهم للذة والألم عن تقدير الآخرين ، وإن شئت فهم في شيء شبيه
بالغيوبة ، لا يتألمون لما يألم منه الصاحي ولا يلتذون بما يلتذ به . وما أظن ذلك
على بعض النفوس ببعيد ولا بعسير ؛ فلكل نفس من النفوس منطق وجداني
يختلف عن منطق غيرها بعض اختلاف .

(١) الزهرة ص : ٢٦ .

(٢) د د : ٢٢٩ .

ومن آداب الحب أن يجعل الحب في زيارة حبيبه وأن يقصد في التمتع بوصاله ولا يرسل نفسه فيه كل الإرسال فإن الحبيب مهما كان مقيماً على الود راعياً لحقوق الحب فلا بد أن يصيبه الملل من جراء ذلك . يقول أبو بكر : « على أن الحزم لمن سومح بالوصال ألا يرسل نفسه كل الإرسال فإن ذلك ربما دعا المحبوب إلى الملل وإن كان مقيماً على رعاية الحال ^(١) » .

وينبغي للمحب الذي ساعفته الأيام بوصال حبيبه وعطفت عليه بإسعاده ألا يصف للناس جماله ولا ينعتهم لهم بأخلاقه ولا يمدحهم بما يجري بينهما من أسباب المواصلات والإسعاد . وأبو بكر يحذر المحبين من ذلك في الباب الثامن فيقول في عنوانه : « ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف » وفي العبارة إشعار للمحب بأن حبيبه من رفيع المنزلة بحيث ينبغي أن لا يتقبل بوصفه للآخرين . وهو يرى أن وصف الخصال التي يرتضيها الحب في حبيبه وينجذب إليه من أجلها يطعم الآخرين في حبيبه ويدعوهم إلى التماس وده ومنافستهم إياه فيما استطاع أن يصل إليه . يقول : « وليعلم أن وصف ما في صاحبه من الخصال الرضاة مغر بمن علمها للشاركة له في هواه ^(٢) » .

وكما يجعل بالمحب أن يضرب عن وصف جمال المحبوب فكذلك يجعل به أن لا ييوح للناس بما خبر من طباعه وما بلا من خلائقه . « فإن المحبوب ربما دعت الرأفة بحبه والإشفاق عليه إلى أن يحمل نفسه له على ما يوجب حق الهوى عليه . . . فإذا كان وصف الخلقة التي لا يتهاى ثقلها ولا يعاب بها صاحبها ليس بحميل كان وصف الخلائق التي قد سومح فيها أخرى أن يكون غير جميل ^(٣) » .

ويعود في آخر الباب فيناقض نفسه ويقول إن « وصف الخلائق والأفعال أسهل من وصف الخلقة بالجمال وكلاهما داخل في الدلالة على الشكر في الأحياء ^(٤) » وهو على أية حال يرى أن وصف الحبيب خلقته أو خلقه وما يجري بين الحب وبينه « معيب ممن حكاه عن نفسه وعن صاحبه إلا أنه عيب لا ينهك ستر المودة بمثله » ولكنه مع ذلك دون حال التماس في الحب .

(١) الزهرة ص ٦٥ .

(٢) » » ٧٣ .

(٣) » » ٧٤ .

(٤) » » ٨١ — ٨٢ .

وكلام أبي بكر في وصف الحبيب يصدر عن أنانية المحب وحرصه الشديد على أن لا يعلم بحاله وبما ينتابه من الوسوس والهواجس أحد خوفاً من أن يطمع الناس في حبيبه فيشاركوه ويحجى على نفسه بذلك ما لا يستطيع أن يتلافاه . وهذه حال من لم يرسخ في الحب قدمه ولم يقدم به عهده أما المحب الذي امتلأت بالحب نفسه فلا يبالي بمثل هذا ولا يعبا به فهو يكون في الغالب واثقاً من ود حبيبه لا يخاف عليه مشاركة غيره في وده بل لعل ذلك لا يخطر بباله ولا يدور بخله فهو منشغل عنه بأحواله منصرف إلى الاستمتاع بإسعاد محبوبه .

ومن آداب الحب أيضاً السكتان . وأبو بكر يشتد على المحبين في ذلك فيدعوهم إلى كتمان وجدهم بمن يحبون صيانة له عن أن يتعرض لقلالات الناس وتشنيعاتهم وصونا لأنفسهم عن السعاية والارتقاب . وهو يوصي بذلك المستطيع ومن أمر سره إليه على أن من المحبين من يغلبه الوجد على صبره فيظهر للناس مكنون سره . وهؤلاء على الإفشاء غير ملومين بل إن حالهم عند أبي بكر هي الحال التامة ، ذلك لأن أحدهم ما يزال يؤثر الإصرار على الإعلان ويجهد في إخفاء أمره وكتمان سره حتى يصرح الوجد عن مكنونه وذلك لا يكون إلا إذا تملكه الوجد « ملكا يزول معه السكتان فيكون ضابطاً لنفسه مؤثراً لكتمان سره مادام التميز معه إلى أن يغلبه من الوجد ما لا يستطيع أن يدفعه »^(١)

على أن هناك أموراً لا تنطوي تحت الذي أسلفنا ولا يعذر مفشيها بحال من الأحوال . تلك هي : « أسرار المحبوب عند المحب مثل مواعيده له وزياراته إياه ومساعدته له على ما يهواه وما يحري بينهما من العائبات بل من سائر الخصائص »^(٢) ذلك لأن شدة الوجد تفصح عما في نفس المحب وتفضحه بما لا قبل له به وشدة الوجد لا تكشف عن مثل هذه الأسرار ولا توجب إفشاءها بل توجب صونها وإخفاءها . يقول أبو بكر : « ولن يشيع مثل ما وصفنا إلا ضعيف في الحال جدا »^(٣)

وكتمان هذه الأسرار عن الأولياء والأصدقاء جميل وهو عن الأعداء أوجب ذلك أن من ضاق صدره عن سره فلا يلم غيره على نشره فكيف إذن بالعدو

(١) الزهرة ص ٣١٧ .

(٢) » » ٣٠٧ .

(٣) » » ٣٠٧ .

الذى يتربص بعدوه الدوائر ويتحين الفرص للإيقاع به . وفى ذلك يقول أبو بكر
على لسان بعض أهل العصر :

وإني وإن شاعيت لديك سرارى فإن الذى استودعتنى غير شائع
أبى الله لى إلا الوفاء لكل من رعى لى عهداً أو أضاع ودائعى
فكن آمناً من أن أذيع بسرکم فما سر أعدائى لدى بشائع
وما أنا بمدوحا بحفظ وديعة أقل حقوق الناس حفظ الودائع^(١)

ومن الناس من يكتم الأسرار ويخفى ما يضطرم بين جوانحه خشية أن يغضب
من ذلك محبوبه وحال مثل هذا منقوصة ، ذلك لأنه إنما يفعل ذلك إبقاء على نفسه
وأدنى منه إلى الحال التامة وأقرب إلى الكمال من يؤثر حبيبه على نفسه فيمتنع
من إفشاء السر ومن شكوى ما يلقى إشفاقاً عليه وإبقاء على وده^(٢) . ذلك الذى
يكون عليه من نفسه رقيب يصونها عن مكاره إلفه . وفى ذلك يقول أبو بكر :

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى وآخر يرعى ناظرى ولسانى
فما طينت عيناي بعدك منظرأ يسؤوك إلا قلت قد رمقانى
ولا خطرت من ذكر غيرك خطرة على القلب إلا عرجا بعنان
إذا ما تسلى الغابرون عن الهوى بشرب مدام أو سماع قيان
وجدت الذى يسلى سوى يشوقى إلى قربكم حتى أمل مكاني
وفتيان صدق قد سممت لقاءهم وعففت طرفى عنهم ولسانى
وما الزهد أسلى عنهم غير أتى أراك على كل الجهات ترانى^(٣)

وهكذا نرى أنه لا يكتفى بإلزام المحب بما ألزمه به آتقاً حتى يريد أن يربى
فيه ما يمكن أن نسميه (ضمير المحب) .

ورأس مقومات الحب وعنوان آدابه الوفاء . وأبو بكر يتحدث عنه حديث
الفقيه فيقول : « الوفاء اسم للثبات على الشرائط فكل من عقد على نفسه أو عقد
عليه غيره ممن يلزمه عقده شيئاً فثبت عليه ولم يزل عنه سمي موفياً ، وكل من شرط
على نفسه شرطاً وزال عنه للزوال سمي غادراً^(٤) » .

(١) الزهرة ص ٣٠٩ .

(٢) » » ٣٩٠ .

(٣) » » ١٤٦ .

(٤) » » ٣٦١ .

ويعمن أبو بكر في هذا الحديث الفقهي ويفقد الروح التي تشيع في أغلب
مناحي الكتاب روح الحب الخبير بأحوال الحب والمحبين ويسترسل فيه حتى
يبلغ به القياس الصوري البعيد عن الواقع النفسي الوجداني أن يقول :
« فالمحبوب يكون موفياً لمحبهه ويكون غادراً بعهدده والمحبة لا يكون موفياً
ولا غادراً لأن محبته قائمة له إلى محاب إلته فيما يصلح الإتياد إلى مثله (١) » .

فيم إذن قوله قبل سبع صفحات من هذا الكلام في عنوان الباب التاسع
والأربعين « لا يعرف المقيم على العهد إلا عند فراق أو صد (٢) » وفيم ينمى على
المتقربين غير الثابتين على الود تلبهم وقلة وفائهم .

هذه شنشنة أعرفها من أخزم . فأبو بكر حين يلبس ثياب الفقهاء ويتقمص
أهbab المتفلسفين وأهل المنطق يقذف بقلبه وشعوره بعيداً ويضرب بهما
عرض الحائط .

ونحن نلتمس حديثه عن الوفاء في موضع آخر فهو يرى أن الحب الصادق في
حبه المقيم على عهد حبه إنما يظهر صدقه حين يفارق من يحب أو حين يصد عنه
فهو إذ ذاك لا يزال مقيماً على وده لا يتحول عنه إلى غيره . يقول أبو بكر : « وإنما
يبين الصادق في هواه إذا فارقه أو صد عنه من يهواه فأقام حينئذ عليه ولم ينتقل
إلى سواه (٣) » .

وهو يصف وفاءه لحبيبه وثباته على حبه ثباتاً لا ينال منه الهجر ولا يعصف به
اليأس في هذه الأبيات الجميلة فيقول :

يا غارس الحب بين القلب والكبد فرقت بالهجر بين الصبر والجلد
إذا دعا اليأس قلبي عنك قال له حسن الزجاء فلم يصدر ولم يرد
يا من تقوم مقام الموت فرقة ومن يحل محل الروح من جسد
قد جاوز الشوق بي أقصى مراتبه فإن طلبت مزيداً منه لم أجد
والله لا ألفت نفسي سواك ولو فرقت بالهجر بين الروح والجسد
إن توف لي لا أرد ما دمت لي بدلا وإن تعزيت لم أركن إلى أحد (٤)
وهناك منزلة في الوفاء أرفع مما سبق وأعلى وأسمى تلك هي أن يفي المحب

(١) الزهرة ص ٣٦٢ .

(٢) » » ٣٥٥ .

(٣) » » ٣٥٥ .

(٤) » » ٣٥٩ — ٣٦٠ .

الحبيب الذى خانه وغدر به ، فيلزم نفسه قطيعته ويصبرها على فراقه والبعد عنه وهو برغم ذلك يرمى سابق عهده ولا يقابله غدرا بغدر وخيانة بخيانة . ذلك مثل الذى يقول :

واقه لا نظرت عيني إليك ولا سالت مسارها شوقا إليك وما
إلا رياء لدفع القول عنك ولا نازعتك الدهر إلا مكرها كما
إن كنت خنت فلم أضمر خيانتكم والله ياخذ ممن خان أو ظلما
سماحة لمحب خاف صاحبه ما خان قط محب يعرف السكرما
ف « هذا البأس قد ألزم نفسه قطيعة من غدر به وصبرها على المكروه كله
إلا أنه مع ذلك غير مضيع لما في ذمته من رماية صاحبه بنفى الظنون عنه وهذا
أكثر ما يمكن من الرماية وأتم ما يتهاى من الصيانة لمن بادر بالخيانة ولمن ضيع
حقوق الأمانة ومن منع نفسه من طاعة الاشتياق وهو بعد مقيم تحت راية
الإشفاق فقد قدر على أمر عظيم وظفر بحظ جسيم » (١) .

٨

وبعد أن عرضنا لآراء أبى بكر محمد بن داود فى الحب نشأته وأسبابه وأحواله
وملابساته وآدابه نريد أن ننظر فيها نظرة عامة فنلاحظ فيها أمورا . منها أن ابن
داود كان فى أغلب كلامه على الحب وما يتصل به عميق النظرة صادق الفراسة
خبيرا بالنفوس المحبة طارفا بخلجات القلوب . ذلك لأنه اختبر هذه العاطفة ومر
بأدوارها المختلفة وتقلب فى أحوالها العديدة وذاق لذتها وامتنحن ألمها فعرف
ما يقاسيه غيره من المحبين . وكان يصدر فى آرائه عن تجربة طويلة بعيدة الأثر فى
نفسه تضى على أغلب آرائه السداد والإصابة .

ولعلنا فيما أسلفت قد وفيت الإشارة إلى ذلك بعض الوفاء ، ولا بأس بأن
أضيف أشياء أخرى إلى جانب ما سبقت إليه الإشارة ليتضح ذلك فضل التصاح .
لننظر إلى ابن داود وهو يعلق على قول بشار :

وما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقا إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التناهى وتسخن عينه عند التلاقى

فيقول : « وهذه المكاره كلها أثمار تلك الملاذ التي قبلها وذلك أن من هوى إنساناً فأنما قصاره حين يهواه أن يعيد نظره إليه فيروى من شخصه ويستمتع من لفظه فإذا تهيأ له ذلك ازداد وجده به أضعافاً على ما كان في قلبه ثم تدعوه نفسه بعد ذلك إلى كثرة التلاقي والمواصلة وتنبسط للمساءلة والمشاورة وهو في كل هذه الأحوال مشغول بحفظ نفسه غير فارغ معها لصباغة غيره بل يجب أن يكون إلفه سمحاً بالمواصلة لمن علم أنه يوده ليكون ذلك سبباً له إلى مواصلته وتسهيلاً له السبيل إلى معاشرته ، فإذا تمكن وده من نفس محبوبه فاستشعر الوفاء له ودفع قياده إليه ، فلم يعترض شيء من أمره عليه لكسبه ذلك ضناً به وصيانة له ^(١) » .

فهو في هذه الفقرة يتتبع تدرج الحب في النفس وتغلغله فيها شيئاً فشيئاً ويستقصى خلجات القلب وما يمر به من أحوال في الحب حتى لكانه يستخلص ذلك من يوميات أو مذكرات كتبها بنفسه وسجل فيها ما مرت به نفسه في هذه التجربة النفسية تسجيل المراقب الدقيق للملاحظة .

وهو حين ينعى على المتضاجرين من هجر أحبابهم ويدعوهم إلى الصبر عليه والرضى به يتحدث عنهم وعما يدور في أنفسهم حديث المجرب العميق الخبرة ، فيقول : « يحسبون أن انحرافهم عن أحبابهم أقل أذى عليهم من الصبر على محبتهم ولو قد أقعدوا ما عزموا عليه من الفراق والهجر لشاهدوا ما يضطرون إلى الرجوع بالصغر والتوصل إلى الصفح بالعدر ^(٢) » .

ولننظر في هذا التعليل الجميل الذي يتخذه أبو بكر مادة للدفاع عن المعتذر أنه يحمل بين ثناياه خفقات قلب رفته الحب وخلجات نفس هذبها الوجد . يقول أبو بكر « المعتذر لا ينفك من إحدى حالين إما أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فعذره مقبول ، وإن كان كاذباً فانه لم يتجشم مضاضة الكذب في نفسه إلا لنفاسة صاحبه في صدره ، ومن كان بهذه الحال قبل عذره بل وجب شكره ^(٣) » .

وقد سبق لي أن ألمحت إلى أن لأبي بكر بن داود في الكتاب أكثر من شخصية واحدة ، فهو في كثير من مواضع الكتاب محب يكتب في الحب بروح

(١) الزهرة ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) الزهرة ص ٥٧ .

المختبر المجرب فتأتى نظراته صادقة تفاذة ويشيع في أسلوبه جمال النفس المحبة التي صقلها الوجد وزاتها لوعة الحب .

وهو يبدو في بعض أجزاء الكتاب فقيها متفلسفا يقف همه على المقدمات والنتائج ويحصر جهده في القياس الصورى البعيد عن الواقع النفسى فيخرج كلامه ثقيلا على النفس يشيع فيه التكلف ويغلب على أسلوبه الاضطراب والتمعقيد . وقد تتلاقى هاتان الشخصيتان فيبدو أبو بكر العاشق مثاليا يلزم العاشاق بأخلاق الملائكة ويفرض عليهم ما لا طاقة لبني آدم به . ذلك حين يتحدث عن مرتبة الكمال في الحب وعن الحال التامة فيه . وأسلوبه في ذلك سلس لطيف خفيف الوقع على النفس إلا أن الإغراق في المثالية يثير في نفس قارئه شيئا شديدا بالعتب عليه ودعوته إلى الترفق بقلوب العاشاق .

على أنه لا يلزم بما يلزم به غيره من تمام الحال ومرتبة الكمال ، فنحن نجد في شعره الذى ينسبه إلى بعض أهل عصره كثيرا مما ينقد غيره على الوقوع فيه . وقد مرت الإشارة إلى كثير من هذه المواضع فيما سبق (١) .

ولقد صدقت فيه فراسة أبيه وأقرانه في الطفولة فقد بقى كما نبزوه عصفور شوك خجولا مرهف الشعور شديد الحساسية وظهر ذلك في كتابه باجلى مظهر وأوضح صورة فهو يبدو فيه خجولا يكاد يذوب من فرط رفته واستتر حتى لا يكاد يبين وتوارى في رواية شعره وراء بعض أهل عصره . وهو قليل يتحدث عن نفسه في الكتاب بل لم يكد يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم أبدا .

ولست أعود بذلك على الجانب الشخصى فى أبى بكر بن داود فحسب فلقد كان للبيئة التى نشأ فيها أثرها فى إخراج الكتاب على هذه الصورة ويبدو ذلك واضحا إذا تذكرنا تزمّت أهل العراق وتشدد فقهاءهم فى مثل ما كتب فيه ابن داود كتابه . وإذن فليس ببعيد أن يكون ذلك بعض البواعث التى حدثت بابن داود أن يتستر فى رواية شعره وأن يضرب عن الحديث عن نفسه وعن حوادث الحب وأحاديثه فى البيئة التى نشأ فيها .

ورغم أن الكتاب فى مجلته مستمد من خبرة شخصية ومن معاناة ذاتية للحب إلا أنه يمتاز بأن كاتبه قد فنى فى الحب الذى يتكلم فيه ، وأصبح جزءا منه لا يكاد يتميز .

(١) مر بعض ذلك فى الفصل الأول من هذا الباب أثناء الحديث عن حبه .

وثمة مسألة يثيرها الأستاذ ماسينيون في كتابه عن الخلاج تلك هي أن أبا بكر محمد بن داود قد أفتى بقتل الخلاج حين اشتهرت ببغداد فتنته . وواقع الحال أن الحسين بن منصور الخلاج استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ومن حرمه وأغرام بالانضمام إلى أنصاره حتى خاف الخليفة جعفر المقتدر طاقته ذلك فحبسه واستغنى في قتله الفقهاء فاختلفوا . فأما أبو العباس بن سريج رأس فقهاء الشافعية في بغداد آنذا فتوقف ولم يفت بقتله . وأما أبو بكر محمد بن داود فقد أفتى بقتله^(١) .

ويروى الخطيب البغدادي أن أبا بكر محمد بن داود الفقيه الأصهباني كان شديداً على الخلاج وكان يقول فيه : « إن كان ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم حقاً وما جاء به حق فما يقول الخلاج باطل^(٢) » .

والأستاذ لوى ماسينيون يعلل اشتداد محمد بن داود على الخلاج وفتواه بقتله بأسباب تكاد تكون شخصية^(٣) تلك هي ما يطلق عليه العداء العاطفي^(٤) الذي أثار فيه هذا الحقد الدفين على الخلاج^(٥) .

ويريد الأستاذ ماسينيون بالعداء العاطفي بين ابن داود والخلاج الوحشة التي كانت بينهما والتي مردها أن ابن داود ذو مذهب في الحب يرى تحريم الوصل من المخلوق والخلاج كان يعتقد بل يقول بإمكان الوصل مع الخلاق^(٦) .

وما أريد أن أخوض في النقاش حول الباعث الذي حدا بابن داود فأفتى بقتل الخلاج فهو بلا نزاع باعث ديني مذهبي استوحاه من مذهبه الظاهري في الفقه . ولكنني أريد أن أشير إلى ما يفهم من كلام الأستاذ ماسينيون من أنه

(١) الفرق بين الفرق لعبد الفاهر البغدادي ص ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ و يروى القاضي عياض في كتاب الفقه أن فقهاء بغداد في أيام المقتدر من المالكية وقاضي قضاتها أبي عمر المالكي أجمعوا على قتل الخلاج وصلبه لدعواه الإلهية والقول بالحلول وقوله أنا الحق مع تمسكه الظاهر بالشرعية ولم يقبلوا توبته ص ٢٨٢ ط استنبول .

(٢) تاريخ بغداد المجلد الخامس ص ١٢٩ .

(٣) Raisons presque personels. (٤) L'hostilité Sentimenti.

(٥) La Passions d'Al Hallaj Tome I, p 169.

(٦) حدثني بذلك حين التقيت به في دار المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة يوم الأربعاء

يجعل محمد بن داود صاحب مذهب في الحب يسميه مذهب الظاهرية^(١) ويجعل خليفته فيه أبا محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم صاحب طوق الحمامة في الألفة والألاف . وهذا المذهب فيما يرى ترديد لآراء أفلاطون في الحب تلك التي بسطها في كتابه المعروف بالوليمة الأفلاطونية أو المائدة : Symposium أو Banquet وما أظن أن هذا المذهب في الحب إن جاز أن يسمى مذهبا شيء جديد في تاريخ الأدب العربي فقد عرف هذا الحب العفيف من قبل محمد بن داود بقرنين أو أكثر حيث تغنى به فريق من شعراء البادية في الحجاز وما جاورها وعرفت به قبيلة حجازية مشهورة هي قبيلة عذرة وعرف بها فليل له الحب العذري واشتهر أمره في الأدب العربي حتى صار يطلق على كل حب عفيف لا يتعلق بالجسد ولا يهدف إلى ارضاء رغباته .

وجاء محمد بن داود فسكتب فيه كتابا جمع فيه طائفة من شعر الحب وحاول أن يشرح تكوين الحب ومنشأه وأحواله وآدابه ولا بد لمن يأخذ نفسه بذلك أن يستهدي بما يشيع في عصره من الثقافة في العلم وفي الفلسفة . وكان مبلغ القوم — في عصر ابن داود — من العلم فلسفة اليونان التي بدأوا ينقلونها إلى العربية فلا بدع إذن أن يفر ابن داود إليها يلتمس فيها الحل لما أشكل عليه في منشأ الحب وفي أسبابه .

الباب الثاني

ابن حزم وآراؤه في الحب

كان أبو بكر محمد بن داود بن علي الأصماني الظاهري ، كما مر بنا من قبل . أول من ألف في الحب فشرح أسبابه وبين مراحلته ومراتبه وأحواله . ووضع للمحبين آداباً يقفونها ويسرون عليها . وأبو بكر كما هو معلوم فقيه من فقهاء أهل الظاهر ، بل هو ابن مؤسس المذهب وخلفه في مشيخته . ونحن إذا نظرنا في تاريخ الأدب العربي لم نجد بعد أبي بكر مؤلفاً في هذا الموضوع يعول عليه غير فقيه ظاهري آخر سلك سبيل أبي بكر في الفقه وفي الحب والتأليف فيه ، ذلك هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الوزير الفقيه الأديب . ويذكر جولدتسيهر (١) ممن سبق ابن حزم إلى الكتابة في الحب عدا محمد بن داود : — ١ — إخوان الصفا . وفي مجموعة رسائلهم رسالة في العشق عرضت لذكرها في الفصل الأول .

٢ — أبو بكر السراج صاحب مصارع العشاق وهو كما يظهر من اسمه طائفة من الأخبار تتعلق بموت العشاق .

٣ — الخرائطي وكتابه السمي باعتلال القلوب وهو كتاب مخطوط محفوظ في مكتبة أوكسفورد (٢)

(١) نقل ذلك عنه نيكل في ترجمته لطوق الحمامة المسماة بالإنكليزية The Dove's Neck Ring about Love and Lovers. — المقدمة .

(٢) أخبرني بذلك الأستاذ ماسينيون .

الفصل الأول

ابن حزم - حياته وحيته

١

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد . ويزيد هذا فارسي كان مولى ليزيد بن أبي سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس^(١) .

ولد أبو محمد بقرطبة في الجانب الشرقى من ربض منية المغيرة^(٢) وكانت ولادته فيما كتب به إلى القاضي صاعد بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من رمضان عام أربع وثمانين وثلاثمائة^(٣) .

ولد في أسرة فارسية الأصل كانت تقيم في منت ليشم وكان جده يزيد أول من أسلم منها . ونزح إلى الأندلس جده خلف بن معدان^(٤) .

ويجمع مؤرخوه على ذلك إلا دوزى فهو يزعم أن ابن حزم سليل أسرة مسيحية من أصل إسباني . وأن جد أبيه حزما أول من دخل في الإسلام . ويرى أن أبا محمد علي بن حزم ادعى من بعد أنه سليل أسرة فارسية الأصل نزحت إلى الأندلس على ما يذكر غيره من المؤرخين وأنه فعل ذلك هرباً من عار الانتساب إلى أصل مسيحي^(٥) . وهي دعوى لا يقيم دوزى عليها دليلاً ولا يسمعه فيها برهان .

ولعله فعل ذلك ليرد نبوغ ابن حزم إلى أصله المسيحي الإسباني . وهو قد فعل ذلك فزعم أن ما نشهده عند ابن حزم من طريقة فذة في التفكير وإحساسه الرفيف وتعبيره الرشيق إنما ينزعه فيه عرق مسيحي إسباني لم يفقده بإسلامه وتعربه وأن ما نلاحظ فيه من الصفاء والرقّة والروحية أمور لم تكن يوماً ما عربية^(٦) . ومن الحق أن نقرر أن الرقة والروحية والصفاء والإحساس الرفيف

(١) و (٢) طبقات الأمم للقاضي صاعد ص ١١٧ ط مطبعة السعادة .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٨ . (٤) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٥) Dozy : Histoir des Musulmans d'Espagne Tome III p 326

(٦) دوزى المرجع السابق ص ٣٢٨ .

وغير ذلك مما امتاز به ابن حزم أمور لم تكن ولن تكون مقصورة على أمة من الأمم .

وقد تابعه في القول بذلك فان اردت ذلك كاتب مقالة ابن حزم في دائرة المعارف الإسلامية .

وتسكت المصادر الأخرى عن البلد الذي نزع منه جده خلف بن معدان إلى الاندلس على أن في شعره إشارة إلى العراق قد يفهم منها أنها كانت موطن أجداده . يقول من قصيدة :

ولى نحو أكناف العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

وسكن جده قرطبة في أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر^(١) ونالت أسرته في قرطبة جاها عريضا ومزلة رفيعة فكان أبوه أبو عمرو أحمد بن سعيد بن حزم وزييرا للمنصور محمد بن عبدالله بن أبي طاهر ووزر لابنه المظفر من بعده^(٢) وكان مولد أبي محمد في عهد وزارة أبيه للمنصور بن أبي طاهر فنشأ في الفنى والسلام وبلهنية العيش تحوطه النعمة وترفف عليه أبهة الملك وسلطان الوزارة .

وقد نشأ أبو محمد بين النساء وربى في حجورهن وهن علمنه القرآن وروينه كثيراً من الأشعار ودربنه في الخط ولم يعرف غيرهن ولا جالس الرجال إلا وهو في حد الشباب^(٣) . وكان لنشأته هذه كما سنرى فيما بعد أثرها البالغ في تفتح قلبه للحب وفي معرفته بأحوال النساء وأخلاقهن .

كانت أسرة ابن حزم تقيم في الجانب الشرقى من قرطبة في ربض الزاهرة المدينة التى أنشأها المنصور بن أبي طاهر إلى طام تسعة وتسعين وثلاثمائة حيث انتقل أبوه في اليوم الثالث لتولى أمير المؤمنين محمد المهدي إلى دورهم القديمة في الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيب وذلك في جمادى الآخرة من العام المذكور^(٤) .

وكان أبو محمد في ذلك الحين يتلقى العلم على شيوخ من جلة أهل العلم في

(١) نيكل مقدمة ترجمته للطلوع .

(٢) طبقات الأمم .

(٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف ص ٤٦ — ٤٧ ط دمشق .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٠ .

زمانه فقد كان يأخذ الحديث عن أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور وكان أول سماعه قبل الأربعمائة ذلك لأن شيخه ابن الجسور توفي سنة أربعمائة^(١).

وكان شيخه في اللغة الفقيه أبو الخيار اللغوي وشيخه في الجدل والكلام أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي^(٢) وأخذ علوم اليونان عن همام بن أحمد بن نبوشى وأبي عمر التملنكى وابن الكناني الذي كان طالما بالطب وبمنطق أرسطو^(٣).

واجتاح الطاعون قرطبة في سنة إحدى وأربعمائة فأصيب بوفاة أخيه أبي بكر في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة وعمره اثنتان وعشرون سنة^(٤) ثم تتابعت عليه وعلى أسرته النكبات فحين تولى الخلافة هشام التؤيد أصاب أسرة ابن حزم من أعوان هشام أذى كثير من الاعتداء والاعتقال إلى أن توفي أبوه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة واتصلت بهم تلك الحال من بعده^(٥).

وفي سنة أربع وأربعمائة دهمت قرطبة غارات البربر واتتهبتا ودمرت منازلها فاضطر ابن حزم أن يخلو عنها ويرحل إلى المرية^(٦). وهو يتحدث عما فعل البربر بقرطبة في غاراتهم عليها من التخريب والتدمير فيقول :

« ولقد أخبرني بعض الوارد من قرطبة وقد استخبرته عنها أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد أحمحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت محارى مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشهاباً مفزعة بعد الأمن ومأوى للذئاب ومكان للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيدي سبأ^(٧) .

(١) بنية الملتبس في تاريخ رجال الاندلس للضبي من مجموعة المكتبة الأندلسية ص ٤٠٣
فتح الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) طوق الحمامة ص ١٠٣ و ١١٧ .

(٣) مقدمة نيكل لترجمة طوق الحمامة .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٦ .

(٥) طوق الحمامة ص ١١٠ .

(٦) طوق الحمامة ص ١١١ و ١١٧ .

(٧) طوق الحمامة ص ٩١ .

وظل مقيماً بالمرية حتى انقضت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر وظهرت دولة الطالبيين وبويع على بن حمود الحسنى الملقب بالناصر خليفة على قرطبة بعد ان تغلب عليها . ثم لم يلبث ان وشى به أعداؤه إلى خيران صاحب الرية واتهموه بأنه يسعى هو وصاحبه محمد بن اسحق للثورة على الدولة ليعيدا سلطان الأمويين فاعتقلهما خيران أشهراً ثم أخرجهما من الرية منفيين حتى بلغا حصن القصر فتلقاهما صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي^(١) — المعروف بابن المقفل — بالترحاب وأكرم مئواهما فأقاما عنده على الرحب والسعة شهوراً ولما بلغهما ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد في بلنسية ركبا إليه البحر^(٢) وكان أبو محمد بن حزم في جيش المرتضى الذي حارب في غرناطة وكان وزيراً له فأسره العدو ولكنّه عاد فأطلق سراحه بعد مدة وجيزة^(٣) . وفي عام تسعة وأربعمائة رجع ابن حزم إلى قرطبة إبان حكم القاسم بن حمود المأمون ونزل على بعض نساء أسرته^(٤) .

وحين خلع القاسم بن حمود عام أربعة عشر وأربعمائة ونودي بعبد الرحمن المستظير بالله بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر خليفة استوزر صديقه أبا محمد بن حزم^(٥) . ويروى ياقوت أنه وزر من بعد لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر^(٦) .

ثم ارتحل إلى شاطبة عام ثمانية عشر وأربعمائة وانصرف فيها إلى العلم والتدريس وزهد في السياسة والرياسة من بعد ما أصابه منها الأذى والتشريد واشتغل بالعلم . وكان في أول أمره شافعيًا مناضلاً ثم انتقل منه إلى مذهب أهل الظاهر وكان شديداً على مخالفيه كثير الوقوع فيهم وقد تصدى للمالكية المتعصبين في الأندلس ووقع في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل في الطعن على أئمة المسلمين والجلّة من علماء السلف وبخاصة الإمام أبو الحسن

(١) في الأصل النجبي ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) طوق الحمامة ص : ١١٧ — ١١٨ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .

(٤) طوق الحمامة ص : ١١١ ودائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .

(٥) طوق الأمم ص : ١١٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص : ٨٦ ط مرجليوت .

الأشعري ومقامه عند المالكية من أهل الأندلس وغيرهم مقام رفيع . فألب بذلك الفقهاء عليه فطعنوا فيه وشنعوا عليه ووشوا به إلى السلطان فنعه من التدريس وأبعد عنه طلاب العلوم خشية أن يتأثروا به ثم أقصى عن وطنه ونفى إلى البادية نفاه إليها حاكم قرطبة وأقر ذلك الخليفة هشام المعتد^(١) . وبقى في بادية لبلة حتى توفي فيها لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة^(٢) .

وكان أبو محمد بن حزم شغوفاً بالعلم كافياً بالمعرفة فقد أقبل بعد أن أدبرت عنه الرياسة على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وألم بجميع معارف عصره أوباً كثراً فدرس المنطق وألف فيه كتاباً سماه التقريب لحدود المنطق بسط فيه القول على تبين طرق المعارف واستعمل فيه أمثلة فقيمية وجوامع شرعية وخالف أرسططاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتابه . فكتاباه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط^(٣) .

وأقبل على علوم الشريعة فنهل منها وعمل واستكثر من فنونها « حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله^(٤) » . وقد صنف في علوم الشريعة مصنفات كثيرة جرى فيها على مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني وهو المعروف بمذهب أهل الظاهر الذين ينفون القياس والتعليل .

ومن أشهر كتبه كتاب الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرايع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام وكتاب الأحكام لأصول الأحكام في أصول الفقه وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل وقد حمل فيه على أئمة السلف تلك الحملة التي لقي من جرائها ما لقي من تشنيع الفقهاء عليه وطعنهم فيه وتأليبهم السلطان عليه حتى نفى ومات غرباً بالبادية .

وكان بعد هذا أديباً لغوياً له من علوم العربية وقرض الشعر والكتابة نصيب وافر وبحسبه أن ترك لنا من بعده كتاب طوق الحمامة في الألف والالاف .

وكان أبو محمد بن حزم فيما يظهر من كتبه حاد الذهن قوى المعارضة مرهف

(١) نيكل مقدمة ترجمته لطوق الحمامة وهو بذلك ينفي استيزاره ابن حزم ولم يصر إلى مصدره .

(٢) نصح الطبيب وابن خلكان وطبقات الأمم وبغية المنس وغيرها .

(٣ ، ٤) طبقات الأمم للقاضي صاعد .

الإحساس شديد الاعتداد بنفسه كثير التحدث عنها والتفخر بها . وقد أغرى ذلك به أهل العلم فاشتدوا في محاصمته وأهملوه ومنعوا الناس من الأخذ عنه . وما هو ذا يشكوه فيقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب
ولو أتى من جانب الشرق طالع لجد على ما أضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم حينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تحبى به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب^(١)

ولعل ما اشتهر به من سلاطة اللسان والعنف في الخصومة آت مما أصابه في صدر شبابه من النكبات التي أتينا عليها في الكلام على حياته . فقد توفي أخوه وخلع أبوه وأجلبت أسرته عن منازلها واعتقل ونفى وشرد وأصابه من أذى السلطان شيء كثير ومثل هذه النكبات تقع في النفوس أحد موقعين : فإما أن تياس النفس وتذل وتستخذي فتقع في ركن هادى ، وتبتعد عن مواطن النشاط الإنسانى لا زهدا به ولكن إحساسا بالمعجز عن الخوض فيه وتلك هى النفوس التي تميل بطبعها إلى الهدوء وتؤثر السلامة والعافية . أما النفوس التي طبعت على الكفاح وجبلت على التقلب في وجوه النشاط المختلفة فلا تلبث أن تلج وتستشرى وتتحدى النكبات ويزداد إقبالها على الكفاح فتشتد فيه وتقسو ومن هذا الطراز كان مترجما أبو محمد على بن حزم . فهو حين نكب في السياسة وأصابه من أذاها الكثير لم يثن ذلك من عزمه بل طوّد الاشتغال بها والكفاح فيها مرة بعد مرة حتى إذا استنفدت حيلته أقبل على العلم فكافح فيه وجالد واشتد عليهم في الخصومة ولم يذل لسلطان ولم يستخذل ملك بل كان دائم التحدث عن نفسه كثير الإدلال بعلمه كثير الوقوع في خصومه حتى لقد شبهوا لسانه بسيف الحجاج وقرنوه به^(٢) .

وأبو محمد بن حزم شخصية فذة في التاريخ الإسلامى فقد نشأ في بيت عز وسلطان تحوطه النعمة وتضفوا عليه الرفاهية ولكن هذه النشأة الأرستقراطية

(١) بغية المتوس من : ٤٠٤ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان .

لم تمنعه من ظهور مواهبه المتعددة الجوانب فقد طلب العلم حباً به وطمعاً في تزويد عقله بمتعه وشحذ فكره وبلغ فيه ما لم يبلغه أحد من الأندلس وخلف فيه من الآثار ما لم يعرف لأحد من علماء الإسلام مثله إلا محمد بن جرير الطبري . حتى لقد بلغت مصنفاته في الفقه والحديث والأصول والنحل والمسل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة^(١).

وقد ناظره في طلبه العلم أبو الوليد الباجي فقال له : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق » . فقال له ابن حزم : « هذا الكلام عليك لا لك لأنك إنما طلبته وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة » فأخذه^(٢).

والحق أن من يقرأ سيرة ابن حزم تتملكه الدهشة ويزدهيه الإعجاب بنفسه القوية وشخصيته المتعددة الجوانب فقد كان يقدر لفتى من أبناء الوزراء يعيش صدر شبابه بين النساء يدللنه ويخفض له جناح الحنو والرفق أن ينشأ (ابن ذوات) ناعماً لا خير فيه ولا رجاء لديه ولكن أما محمد كان على عكس ما يقدر لمن ينشأ نشأته . كان مكافحاً في السياسة وفي العلم . وكان يكفيه أن يبرز في واحد منهما فيشتهر أمره ويخلد ذكره .

٢

ونمة جانب آخر هو الذي يعنيننا من حياة أبي محمد علي بن حزم في هذا المقام وهو الذي سقنا ما تقدم تمهيداً للكلام فيه . ذلك أن ابن حزم وقد مر بنا ما تقلب فيه من النكبات وما أصابه من أذى معاصريه كان له في حياته جانب طائفي عظيم الشأن جليل القدر فإن حياته المتعددة الألوان لم تخل من الحب بل لقد كان الحب جانباً من جوانبها القيمة التي حفظت له في التاريخ الأدبي مكاناً رفيعاً . وهو لم يدع هذه التجربة النفسية تمر به فيعبر عنها بالشعر تارة وبالنثر تارة أخرى ، بل لقد جمع أطراف هذه التجربة ولم شمل هذه الخبرة فأودعها كتاباً هو ثاني اثنين في تاريخ الأدب العربي ذلك هو كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف »

(١) طبقات الأمم للقاضي صاعد .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

وصنوه في هذا الشأن كتاب « الزهرة » لسلفه الفقيه الظاهري أبي بكر محمد ابن داود الأصماني .

وقد سبق لي أن أشرت إلى نشأته في حجور النساء وتربيته في أكتافهن وأنه لم يخالط الرجال إلا عند اكتمال شبابه^(١) . وهو بذلك قد أنار أمام الباحث سبيل البحث في حبه لم نشأ وكيف نشأ .

وقبل أن أبدأ بالكلام على نشأة حبه العفيف الذي عرف به واشتهر به كتابه أود أن أرجع بالفكر إلى سبق الكلام فيه ذلك هو الألفة أكسير الحب وعنصره الأول الذي يقوم عليه تكوين ماطفته .

ولا مندوحة لمن ينشأ بين النساء تحيط به الفتيات والجوارى من كل جانب أن يستلطف واحدة منهن ويستحسن عشرتها ويعجب بها ثم يختارها لصحبته من بين الأخريات فيألفها وتألفه ألفة للودة الى لا تلبث أن ينضاف إليها من الشعور ومن التفكير ومن الدوافع الحيوية أشياء فتصبح حباً قويا . وابن حزم يحدثنا مرة أنه ألف في أيام صباه ألفة المحبة جارية نشأت في دارهم وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائها^(٢) . ويخبرنا مرة أخرى أنه أحب في صباه جارية له شقراء الشعر فما استحسن من ذلك الوقت سوداء الشعر^(٣) .

وأغلب الظن أن علاقته بهاتين لم تكن إلا استحسانا وإعجابا لم يبلغ أن يصبح ماطفة ثابتة فيها التركيز والانصراف إلى شخص بعينه . وتلك مرحلة طبيعية لا بد أن يمر بها الصبي الذي تتفتح نفسه للحب وتقبل على الانغمار فيه .

والاستحسان كما مر بنا من قبل طبيعة الحب وبأكورته . وفي حديث — ابن حزم — عن جاريته الشقراء ما يدل على ذلك ويؤيد ما ذهب إليه فهو فيه بصدد الحديث عن استحسان صفة من صفات الجمال والإعجاب بها بل أنه ليصرح بالاستحسان في عبارته الآتية الذكر فيقول : « فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر ... الخ » .

ثم يخبرنا ابن حزم عن نفسه أنه كان أشد الناس كلفا بجارية له اسمها نعم

(١) طوق الحماة ص ٤٦ - ٤٧

(٢) » » » ١٠٨

(٣) » » » ٢٥٠

وكانت أمنية التمني وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لي وكنت أبا عذرهما^(١) وكنا قد تكافأنا المودة^(٢) .

وحديثه عن نعم يزيدنا يقينا بأنه لم يحب من قبلها حبا بالمعنى المراد من عاطفة الحب ويدلنا على أنه استحسن الآخرين وأعجب بهما من قبل أن يحب نهما ويكلف بها . فهو يخبرنا أنه فجع بحبيبه نعم فكان حزنه عليها عظيما وما طاب له من بعدها عيش ولا أنس بسواها . يقول : « دغى أخبرك أني أحد من دغى بهذه الفادحة » موت الحبيب » وتعجلت له هذه المصيبة وذلك أني كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بحاربه لي كانت فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية التمني وغاية الحسن خلقا وخلقا وموافقة لي وكنت أبا عذرهما وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن فلقد أقت بعدها سبعة أشهر لا أنجرد عن ثيابي ولا تفر لي دمة على جمود عيني وقلة إسماعها وعلى ذلك فوالله ما سلوتها حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالذ وطارف وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد غنى حبي لها على ما كان قبله وحرم ما كان بعده^(٣) .

وقد كانت هذه الفجيعة قذى في عينه وشجى في صدره ولم يزل برحها يعاوده كلما عن له ذكر الأحبة . وقد خلعت لوعتها على أسلوبه شيئا كثيرا من اللفة الحزينة يتردد صداها في قلب القارىء . ها هو ذا يقول :

« وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء^(٤) وما انتفعت بعيش ولا فارقتي الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة وإنه لشجى يعتادني ووازع هم ما ينفك يطرقني . ولقد نفص تذكرى ما مضى كل عيش استأفقه^(٥) » .

ولعل ذلك يكفي لأن يقرر الباحث مطمئنا ، أن أبا محمد بن حزم ، لم يحب حبا حقيقيا قبل حبه لنعم ، فقد ملأت عليه قلبه ، وملكت عليه نفسه ، حتى أن

(١) في النسخة المطبوعة « وكنت أنا عذرهما » ولا معنى لها ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٢) طوق الحمامة ص : ٨٨ .

(٤) طوق الحمامة ص : ٢٢ .

(٥) « : ٢٣ » .

موتها لم يستطع أن يخلى بينه وبينها ، فلم يحب بعدها ، ولم يأنس بسواها ،
فنحن حين نتحدث عن ابن حزم ، إنما نزيد حبه لنعم .
ومن المؤسف حقا أن ابن حزم لم يدون في كتابه شيئا كثيرا عن علاقاته في
الحب ، وما مر به من أحوال ، تقلبت بين وصل وهجر ورضى وسخط ، بخلاف
سلفه محمد بن داود ، فقد عرفنا عن حبه ، وعن علاقته بحبه شيئا كثيرا .
ويغلب على الظن أن ذلك يعود إلى سببين أحدهما أن حب ابن حزم كان قصير
الأمَد ، فقد عدا الموت على حبيبته وهو دون العشرين ، وخلف موتها ذكرى
عميقة الغور في القلب ، بعيدة الأثر في النفس ، تمتزج لذتها بالألم للبرح . والآخر
أنه أضرب عن ذكر ذلك وصفح عن إirاده رأفة بنفسه التي ما انتفعت بعيش
مذاقت فراق الأحبة ، وتذكر الماضي اللذيذ الممتع ، يذكر حين أضنى عليه
اللذة والإمتاع ، وهو الحبيب ، وذكره تثير في النفس ألما دفيناً ، وتستجد فيها
حزنا قديما . وقديما قال شاعرهم :

* ولكن نكا القرح بالقرح يجمع *

وفي المراتة التي تشيع في حديثه عن نعم وعن عيده بها ، ما يوحى بذلك .
ويريد نيكل أن يجعل ابن حزم في حبه ذا شخصيتين : شخصية المحب
الأرضي^(١) الذي يشتهى حبيبته اشتهاً جسانياً ، ويتعلق بها تعلقاً قوامه الغريزة
وأساسه الشهوة ، وشخصية المحب السماوي^(٢) الذي يطابق وصفه ما نسميه
بالمحب العذري ، الذي تربطه بحبيبته عاطفة الحب القوية ، التي تعلو على الغريزة
وتسمو على الشهوة ، فابن حزم في حبه لنعم ، محب سماوي عذري ، وهو في
حبه للأخرى أو الأخريات محب أرضي .

وهو يستدل على ذلك بـ Petrarch — فقد كان له محبوبتان كان يصارح
إحداها هذا الحب الأرضي وكانت لورا محبوبته التي يكن لها في قلبه الحب
السماوي . وهو يزعم أن الفتاة الشقراء التي يتحدث عنها ابن حزم في الصفحة ٢٥
من طوق الحمامة هي إحدى الجوارى اللواتي كانت الأسرة الكبيرة تهبهن
للأولاد الذين قاربوا البلوغ ليحفظن عليهم السلامة الجسدية وذلك يكون غالباً
في سن الرابعة عشرة . وهو يذكر أيضاً أنه بلغه أن هذه العادة لا تزال شائعة
بين الأسر الكبيرة في تونس^(٣) .

Heavenly Lover. (٢)

Earthly Lover. (١)

(٣) مقدمة نيكل لترجمة طوق الحمامة .

وهذه مسألة خطيرة ليس من اليسر أن نقطع فيها برأى وليس لدينا ما يؤيدها .
وابن حزم يحدثنا في بعض مواضع من كتابه حديثا يكشف عن طبيعة حبه
فهو مثلا يعجب ويطيل العجب ممن يزعم أنه يحب من أول نظرة ولا يكاد يصدق
أن الحب يكون بمثل هذا اليسر . ويجعل ذلك ضربا من الشهوة العابرة التي
لا تثبت في النفس ولا تستقر في القلب . يقول : « وإني لأطيل العجب من كل
من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربا
من الشهوة وأما أن يكون متمكنا من صميم الفؤاد نافذا في حجاب القلب
فأقدر ذلك ^(١) » .

وهذا يعيد إلى الذهن كلام هافيلوك أليس في التمييز بين الحب والشهوة ^(٢)
وبمثل ذلك قال أبو بكر محمد بن داود .

ويتحدث عن حبه فيخبرنا أنه لم يحدث إلا بعد ملازمة طويلة وعشرة مديدة
وأخذ في كل جد وهزل وهو لذلك قد ثبت في قلبه فمز على السلو . ها هوذا
يقول : « وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص
لى دهرآ وأخذى معه في كل جد وهزل وكذلك أنا في السلو والتوق فما نسيت
ودألى قط . وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء .
وقد استراح من لم تكن هذه صفته ^(٣) » .

وهو حب رزين وقور لا ملول ولا متقلب : « وما ملأت شيئا قط بعد
معرفة به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له وما رغبت الاستبدال
إلى سبب من أسبابي مذ كنت لا أقول في الآلاف والإخوان وخدمهم لكن
في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك ^(٤) » .

وصفوة القول أن عاطفة الحب عند ابن حزم عاطفة رزينة يكاد العنصر العقلى
يرز فيها ويطنى عليها وذلك يرجع فى أغلب الظن إلى قوة شخصيته ومثانة
تكوينه وإرادته القوية فهو لا ينقاد للشهوة ولا ينحرف بتيار الغريزة بل يتحكم
فى كل ذلك بإرادته . على أنه لا يلبث أن يؤتى من مأمنه فإذا وقع فى الحب وقع
فيه إلى غير قومة وانغمر فى عبابه أى انفار وتمكن من نفسه واستقر فى قلبه

(١) طوق الجملة من : ٢٢ .

(٢) تمييزه بين Love و Lust فى كتابه : Psychology of Sex .

(٣) طوق الجملة من : ٢٢ . (٤) طوق الجملة من : ٢٣ .

فصار لا يروى منه إلا طلب المزيد ويطول به العهد فلا يحس سامة ولا يشعر
بجلل أو هكذا يقول هو عن نفسه : « عني أخبرك أني ما رويت قط من ماء
الوصل ولا زادني إلا ظمأ . . . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات
التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستريدا ولقد طال بي ذلك
فما أحسست سامة^(١) » .

وحسبنا أن هذا الذي نشأ في بيت رفيع يتقلب في النعمة ويتبوأ منها حيث
يشاء تحيط به الجوارى الحسان من كل جانب وتستجيب لإشارة منه وتكون
طوع يديه حسبنا أن الحب جعله لا يعترف من عمره إلا بساعة الوصل حيث
يقول :

وسائل لي عما لي من العمر وقد رأى الشيب في الفودين والعذر
أجبتة ساعة لا شيء أحسبه عمرا سواها بحكم العقل والنظر
فقال لي كيف ذا بينه لي فقد أخبرتني أشنع الأنباء والخبر
فقلت إن التي قلبي بها علق قبلتها قبلة يوما على خطر
فما أعد ولو طالت سني سوى تلك السويعة بالتحقيق من عمرى^(٢)

(١) طوق الحمامة من ٥٩ .

(٢) طوق الحمامة من ٥٦ — ٥٧ .

الفصل الثاني

طوق الحمامة

١

قلت قبل قليل إن ابن حزم لم يدع هذه التجربة النفسية تمر به فيعبر عنها كما يعبر باقي المحبين بل لقد جمع أطرافها ولم شملها في كتاب هو ثاني اثنين في بابها ذلك هو كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف ». ومن الطريف أن يغلب جمال الحب وتشيع نضرتة في الكتاب كله فيكون لعنوانه من هذا الجمال نصيب . ففيه رقة ترتاح لها النفس ويتفتح لها القلب .

والحماسة ذلك الطائر الذي يفيض رقة ودمائة عنوان هذه العلاقة التي يعنى الكتاب بوصفها وتحليلها . وقد اشتهرت بين الشعراء بذلك فاتخذوها مثالا للأليف الوفي الذي يرعى عهد أليفه ولا ينفك يحن إليه وتحيلوا هتافها في رونق الضحى حنينها إلى حبيب غائب لا يطيب العيش حتى يعود وطالما فزع إليها المحبون من الشعراء يتأسون بها في الصبر على فراق الحبيب والاشتياق إليه ، ويلتمسون فيها العزاء والإسعاد ، ألا إن منهم القائل :

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجوة صدحت في فتن
ذكرت إلها ودعها سألها فبككت حزنا فهاجت حزني
فبكاكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني
غير أنني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

وأغلب الظن أن أبا محمد بن حزم قد استوحى هذه المعاني حين سمى كتابه بهذا الاسم الذي جاء ملائما كل للملازمة لموضوع الكتاب وموفقا كل للتوفيق في الدلالة عليه .

ومن العجيب أن لم يذكر هذا الكتاب أحد ممن ترجوا لابن حزم غير المقرئ في تقح الطيب ولا تعرض أحد منهم لهذا الجانب من حياة ابن حزم

بخلاف ما كان من أمر كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود فقد أجمع مترجموه على ذكره والتحدث عن حبه . ولولا أن ابن حزم قد أفاض في الحديث عن نفسه وعما لقي في الحب اسكننا من أمر حبه في جهل .

وأول من كشف عن الطوق وأظهر الناس عليه المستشرق الهولندي رينهاردت دوزي حين كتب عنه في فهرست مخطوطات ليدن^(١) . ثم عاد فتحدث عن ابن حزم في كتابه تاريخ المسلمين في أسبانيا^(٢) الحديث الذي أشرت إلى بعضه في الفصل السابق وتكلم على حياته العاطفية وما جرى فيها من الحب ورسم لحبه صورة مجملّة مستخلصاً ذلك من كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف^(٣) . وكان يرجي أن يأخذ دوزي نفسه بنشر الكتاب ولكنه لم يفعل . فجاء من بعده المستشرق الأسباني فرنسيسكو بون بواج^(٤) وعزم على نشر الكتاب فعاجله أجله دون أن يتم ذلك . ثم تبعه المستشرق الأسباني ميغل آسين بالاثيوس فاطلع على الكتاب في ليدن واقتبس منه فقرات^(٥) .

وهكذا بقي هذا الكتاب مخطوطاً حتى قبض الله له المستشرق الروسي ر . ك . بيتروف أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورج فقام بنشره وأخرجه سنة ١٩١٤ م مطبوعاً في مطبعة بريل بليدن وقدم له بمقدمة باللغة الفرنسية تكلم فيها عن الكتاب بما سبق أن نقلنا عنه وأردفها بالحديث عن ابن حزم وعن حبه وعن مكانه في تاريخ الحياة الفكرية والأدبية ثم أجل في الخاتمة ما اشتمل عليه الكتاب ، وحاول أن يعرض تلخيصاً لأفكاره ينتفع به طلاب الاستشراق ممن لا تسهل عليهم قراءته بالعربية .

وهو يصف مخطوط ليدن في أول المقدمة فيقول : إنه نسخة وحيدة موجودة في مجموعة فارنر (Warner) وليست هي بخط المؤلف ولكنها بخط ناسخ أرخ فراغه من نسخها بعام ٧٣٨ هـ . ثم يوقفنا بتروف على أمر خطير في تاريخ الكتاب فيذكر أن في الصفحة ٢٧٦ من المخطوط المذكور إشارة قيمة لا يعرف الذي أشار بها ، تقول إن كاتباً مجهولاً قد حاول أن يختصر الطوق بحذف بعض ما فيه

D. K. Petrof : Collier de la Colombe : L'Introduction (١)

Dozy : Histor des Musulmans d'Espagne (٢)

» » » » » Tome III p 328 (٣)

Francisco Pons Boigues (٤)

Nykl : The Dove's Neck Ring — Introduction (٥)

من الشعر ، ولهذا فالنسخة التي بين أيدينا الآن ليست هي النسخة الأصلية للكتاب كما خلفها المؤلف . وإلى هذا أشار الأستاذ سعيد الأفغاني في مقال له فقال : « وكان من نعمة الله على المكتبة العربية أن يسلم لها مختصر الكتاب طوق الحمامة^(١) » .

ويظهر من وصف المخطوط أن فيه غلطاً كثيراً جاء عن جهل الناسخ الذي يبدو أنه كان من الجبل بحيث لم يكن يفهم ما كان ينسخ^(٢) . وإذا أضفنا إلى ذلك أن بيتروف ناشر الكتاب رجل « رومانيسست » درس العربية بطريق الترجمة^(٣) أدركنا مبعث هذه الأغلاط الشائعة في النسختين المطبوعتين من الطوق .

وقد اقترح جولد تسيهر في مقال له بمجلة (Z. D. M. G.) مجلة الجامعة الألمانية للمستشرقين تصحيحات عديدة في النص المطبوع ، وكذلك فعل بروكمان في Literarisches centralblatt أما آسين بالاثيوس فقد كتب عن حياة ابن حزم ومذهبه ، وتعرض في الجزء الأول من كتابه لدراسة طوق الحمامة دراسة مستفيضة ولكنه قبل النص كما نشره بيتروف ولم يشر إلى الألفاظ .

وقد كتب للمستشرق الفرنسي وليم مارسيه مقالا فيه ملاحظات على النص الذي نشره بيتروف وضمنه تصحيحات عديدة^(٤) .

وقد طبع طوق الحمامة طبعة أخرى في دمشق ، طبعتها مكتبة عرفة عام ١٣٤٩ هـ عن النسخة التي نشرها بيتروف .

وترجم الطوق إلى الروسية م . ا . سالييه M. A. Sallier^(٥) . وترجمه إلى الإنكليزية المستشرق التشيكوسلوفاكي ا . ر . نيكسل من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو وصدره بمقدمة بحث فيها عن الكتاب ومؤلفه وعصره ، وعن الشعر على جانبي البيرانييس ، وهو الذي نشر من بعد ذلك كتاب الزهرة لمحمد بن داود الظاهري .

(١) « ابن حزم الإمام المحب » مقال في العدد ٦٧ من السنة الثانية لمجلة الثقافة .

(٢) هذه ملاحظة للمستشرق الهولندي : وردت في Snouck Hurgronje W. Marcois : Observations sur le Texte du Tawq, p 59 du :

(٣) نفس المرجع السابق : Memorial Henry Basset :

(٤) ونشر ذلك في مقال بعنوان : Observations sur le Texte du Tawq : Al Hamama d'Ibn Hazm- Memorial Henri Basset, p 95—88.

(٥) ملحق دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .

٢

كتب ابن حزم هذا الكتاب استجابة لصديق أرسل إليه يسأله أن يصنف له « رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه »^(١) وقد وردته رسالة هذا الصديق من المريّة وكان هو يقيم في شاطبة . وقد مر بنا أن ابن حزم ارتحل إلى المريّة بعد أن خربت غارات البربر قرطبة وهدمت منازل أسرته فيها ثم أخرج من المريّة منفياً على ما ذكرنا ، ثم وزر للمرتضى عبد الرحمن بن محمد والمستظهر من بعده حتى دالت دولتهم فارتحل إلى شاطبة عام ثمانية عشر وأربعمائة (٤١٨ هـ) حيث ورده كتاب هذا الصديق وفيه رغبته التي أشرنا إليها آنفا . وبهذا العام أو حواليه يؤرخ ، فإن أرندتك تأليف طوق الحمامة^(٢) . أما نيكول مترجم الكتاب إلى الانكليزية فيرى أن ابن حزم قد كتب كتابه عام ١٠٢٢ م أي حوالي عام اثني عشر وأربعمائة للهجرة ، قبل أن يلي عبد الرحمن المستظهر بالله الخلافة مستدلاً على ذلك بعدم ذكره فيه^(٣) . ونحن ننشد ابن حزم في هذا التاريخ وما يقرب منه ، فنجد رجوعه إلى قرطبة عام تسعة وأربعمائة في خلافة القاسم بن حمود الذي يبدو أنه صفح عنه وأجاز له الإقامة في مسقط رأسه . ولا نعرف أنه خرج منها إلا بعد مقتل صديقه وأميره الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله ، حيث سجنه المتغلبون على الأمر . ولا نعرف عنه بعد ذلك إلا أنه ارتحل إلى شاطبة أو كان فيها عام ثمانية عشر وأربعمائة ، حيث انصرف فيها إلى العلم والتعليم (وقد مر تفصيل ذلك في الكلام على حياته) وبذلك يكون ، فإن أرندتك أقرب إلى الصواب في تأريخه تأليف الكتاب بسنة ٤١٨ هـ .

وما أظن ذكر المستظهر في الكتاب أو السكوت عنه يقدم في الأمر أو يؤخر إذا ظهر لنا أن الكتاب ألف في شاطبة وأن ابن حزم لم يكن فيها قبل سنة ٤١٨ هـ . بل لعله لم يذكر المستظهر تجنباً لإثارة ما في نفس الحكام من الحقد عليه لأنه كان وزيره وصفيه . وعهد هؤلاء به غير بعيد .

وهناك أمر آخر يجعله نيكول حجة يلوذ بها في تأريخه لتأليف الكتاب ، ذلك أنه يرى أن ابن حزم لا بد قد ألف كتابه قبل سن الثلاثين حيث لم تنكسر في

(١) طوق الحمامة ص : ٢٠ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن حزم » .

(٣) مقدمة ترجمته لطورق الحمامة .

وهكذا يبدو لنا أن الدافع الذي حدا بابن حزم إلى تأليف كتابه ، هو الإيجاب لصديقه الذي سأله ذلك . ولكن الأستاذ الدكتور طه حسين يرى أن ذلك أيسر الجواب على هذه المسألة ، ويقول : « إن هناك جوابا آخر ، قد يكون أجل من هذا خطراً ، وأبعد منه أثراً ، فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال^(١) لم يقصد بهما إلى الحب في نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه في البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب ، وكيف يصورونه ، وكيف يصفونه في الشعر وفي النثر^(٢) » .

ولست أظن أن من حق الناقد ، أن يقرر غاية الكاتب من وضع كتابه ، على حين يخالف تقديره ما صرح به الكاتب ، وما قرر أنه فعل ذلك من أجله . ويبقى هنالك احتمال آخر ، يعسر تصويره في هذه الحال بصفة خاصة ، وذلك أن الكاتب قد صرح ، بدفعه لتأليف الكتاب ، وهو يخفى في نفسه الدافع الحقيقي الذي دماه إلى ذلك .

ودليل الدكتور طه حسين على ما نذهب إليه ، أن ابن حزم قد بث في كل فصل من فصول الكتاب نماذج شعرية ، ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره : « وأكبر الظن أنه صنع كثيراً من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب » . وهذا شيء لا يطرده في الكتاب ، ولا يسلم دليلاً على ما ذهب إليه الدكتور إذن أن بعض الأبواب ، قد خلا من النماذج الشعرية خلوا تاماً . مثال ذلك باب الإشارة بالعين^(٣) « وباب المساعد من الإخوان »^(٤) ، وقد أورد في الكتاب أبياتاً لابن عمه أبي المغيرة مطلقاً :

اجزعت أن أزف الرحيل وولدت أن نص الذميل^(٥)

على أن النماذج الشعرية التي شجن بها أبواب الكتاب ، ليست من الطراز الشعري الذي يمتدنى في تصوير الحب ، وفي تصويره والتعبير عنه . فهي في الغالب شعر فقيه متكلم ، ليس له من الطابع الشعري حظ كبير ، وهي بعد ذلك

(١) في الحب De L'Amour وقد أشرت إليه في الكتاب الأول من هذه الرسالة .

(٢) مقال « في الحب » في العدد الخامس من المجلد الثاني من مجلة الكاتب المصري .

(٣) طوق الحماسة ص : ٢٩ — ٣٠ .

(٤) « » : ٤٤ — ٤٧ .

(٥) « » : ٩٠ .

سقيمة الأسلوب في الغالب ، تشيع فيها تعابير الفقهاء والعوام ، التي لا تليق بالشعر ولا يستسيغها متذوقه . وصفوة القول فيها ، أن أغلبها شعر مصنوع ، قد يكون صنعه خاصة لهذا الكتاب ، يشيع فيه التكلف ويشبه من بعض وجوهه الشعر التعليمي إلى حد كبير ، وسأمثل لذلك بعد قليل .

على أن الذي دعاه إلى الاختصار على شعره في الاستشهاد به ، هو ما سبق أن لاحظت — في الكلام على حياته — من اعتداده بنفسه ، ومبالغته في الإعجاب بمواهبه .

ورأى الدكتور طه ، في الغاية التي هدف إليها ابن حزم ، من تأليف كتابه بغض من الكتاب ، ويضع من شأنه ، إذ أنه لم يبلغ مما رمى إليه ، أو مما يظن الدكتور أنه رمى إليه — شيئاً ذا قيمة ، في حين أنه درس الحب ، دراسة لها قيمتها ولها شأنها .

٤

وطوق الحماسة رسالة في الحب ، ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، وما يقع فيه ، وقد احتاط ابن حزم ، لما يمكن أن يتعرض له ، من بعض المترممين من الفقهاء ، فعيبوا عليه إتفاقه الوقت والجهد في مثل هذا العمل ، فبرر صنيعة هذا ، بقول يرويه بسنده عن أبي الدرداء ، أنه قال : « أجموا النفوس بشيء من الباطل ، ليكون عوناً لها على الحق » وبالقول المأثور : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد »^(١) .

وقد قسم الرسالة ثلاثين باباً ، عشرة منها في أصول الحب وهي : ماهية الحب وذكر من أحب في النوم ، وذكر من أحب بالوصف ، وذكر من أحب من نظرة واحدة ، وذكر من لا تصح محبته إلا مع الطاولة ، وباب التعريض بالقول وباب الإشارة بالعين ، وباب للرسالة ، وباب السفير . واثنا عشر باباً في أعراض الحب وصفاته هي : باب الصديق المساعد ، وباب الوصل ، وباب طي السر ، وباب الكشف والإذاعة . وباب الطاعة ، وباب المخالفة ، وباب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، وباب القنوع ، وباب الوفاء ، وباب الغدر ، وباب الضنى ، وباب الموت . وستة أبواب في آفات الحب وهي : باب العاذل ، وباب

(١) طوق الحماسة ص : ٢ .

الرقيب ، وباب الواشى ، وباب الهجر ، وباب البين ، وباب السلو .
ثم اختتمها بباين ليسا من موضوع ما جرى فيه ، ولسكنهما مواعظ دينية
ونصائح خلقية للحجين ، شرح لهم فيها فضل التعفف ، وقبح المعصية .

وهكذا نرى أنه وضع لرسائله خطة منسقة ، واتبع فيها طريقا منطقيا ، فبدأ
بالكلام على ماهية الحب وعلاماته ، ثم عن مبدئه ومنشئه ، وأردف ذلك
بالحديث عن توسل المحب بشئ السبل للوصول إلى المحبوب ثم تكلم على ما يلابس
الحب من طى للسر ، أو إذاعته ، وما يدخل عليه من آفات ، كالواشى والرقيب
والعاذل ، واختتمه بما يختتم به الحب ، من الهجر أو البين ، أو السلو أو اللوت .

وقد أضرب ابن حزم عن أن يسوق شيئا من أخبار من غير من العشاق
وأن يستشهد بشئ من أشعارهم . وهو يقول لصاحبه الذى رغب إليه أن يكتب
فى الحب : « ودغنى من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت
الأخبار عنهم وما مذهبي أن أنضى مطية سواى ولا أتخلى بحلى مستعار^(١) » .

فكتبه سجل لما شاهد أو سمع من الثقافات فى عصره وفى الحقيقة التى عاش
فيها بصفة خاصة . بل فى بيئته الأندلسية فحسب إذ لم يأت فى كتابه على ذكر
المشاركة ولم يخرج بكتابه من الأندلس إلا مرتين مرة إلى المغرب الأقصى وأخرى
إلى بغداد حيث يروى خبر طلم أندلسى قتن بحارية رآها فى أحد أزقة بغداد فمات
هياما بها .

فالكتاب إذن فى الحب عند أهل الأندلس ومسحة الإقليمية بارزة فيه أى
بروز . وهذه المسحة الإقليمية بعض ما فى آثار ابن حزم من تعصبه للأندلس
ولأهلها ولحياتهم الاجتماعية والأدبية^(٢) وهذا التعصب كان — فيما يبدو —
ردا على شعور الأندلسيين بالنقص فى الناحية العلمية والأدبية واعتبارهم أنفسهم
عمالا على المشاركة فى كل شئ وإعجابهم بالشرق وعلمائه وكتبه إعجابا بلغ بهم أن
ينمطوا نوابغهم ولا يسووا بينهم وبين المشاركة فى الاعتبار . ولا ابن حزم
فى الشكوى من هذه الحال شعر كثير .

ولعل ابن حزم كان يرى فى هذا التعصب للأندلس إرضاء لغروره وردا

(١) طوق الحمامة ص ٣ .

(٢) ولا ابن حزم رسالة فى فضائل أهل الأندلس رواها المفرد فى نفع العليل .

لاعتباره الذي كان يرى شعور الأندلسيين بالنقص مسقطا له ومزريا به ونائيا به عن المنزلة التي كان يرتضيها لنفسه .

وقد يكون إعراضه عن إيراد أخبار المتقدمين حائداً إلى الشك فيما كان يتداول عنهم من الأخبار وهو إذن يتقيد بمنهج علمي صحيح ويستحق على ذلك الثناء وقد يكون أراد أن يكون كتابه جديداً في طريقته وفي مادته فيستمدّها من نفسه ومن بيئته ويبدع في التأليف أسلوباً لم يشع بين المؤلفين من قبل . على أنه لم يكن أول من تعصب للأندلس في تأليفه فقد سبقه إلى ذلك أبو عمر أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحقائق الذي ألفه على غرار كتاب الزهرة ولم يورد فيه لغير الأندلسيين شيئاً^(١) .

وفي النفس أشياء من قوله : « وما مذهبي أن أنضى مطية سواي ولا أتحملي بحلي مستعار » وهي قد تفسر إعراضه عن إيراد أخبار المتقدمين ورواية أشعار غيره وفيها من الإعجاب بنفسه والإدلال بمواهبه ما لا يليق بطالب المعرفة والمتمرس بخدمة العلم . ولو شاء دارس كتابه أن يثبت كذب دعواه لاستطاع فهو على أية حال قد قرأ كتاب الزهرة لمحمد بن داود وأفاد منه بل وأجرؤ أن أقول إنه تقل عنه بالنص . مثال ذلك كلامه على ماهية الحب وعلى الهجر وتقسيمه إياه أربعة أضرب كما فعل ابن داود وتقل عنه عبارات بألفاظها . مثل قوله في هجر الدلال إنه ألد من كثير الوصال^(٢) .

وصفوة القول أن طوق الحماسة رسالة في الحب تستمد معينها من حياة المؤلف العاطفية وما جرى له في حبه من أحداث وما تقلب فيه من أحوال ومن الحياة العاطفية لمعاصريه من وجوه الدولة والعلماء وطلاب العلم فقد كان له من اطلاعه على خفايا الأمور في الأمر الكبيرة عوناً على تأليف الكتاب ومادة بنى منها هيكله وأقام منها بناءه .

ولولا أنه يعالج في الكتاب عاطفة إنسانية عامة تكاد أصولها تتحد في تقوس المحبين مهما اختلفت بيئاتهم وتباعدت أزمانهم لقلب عليها اللون الإقليمي وهو قد غلب إلى حد ما وأظهرنا على طراز خاص يكاد يتميز عن غيره من أطرزة الحب . حيث يفسح له الخلفاء والوزراء والفقهاء مكاناً في تقومهم

(١) رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس وترجمة أبي عمر المذكور في معجم الأدباء .

(٢) يراجع على سبيل المثال باب الهجر في طوق الحماسة .

فلا يخشون من ذلك ملاما ولا يجدون فيه معابا ومن ثم يصبح ضرورة اجتماعية إلى حد ما مبرأة مما في حب المشاركة من الإيغال والإغراق والبلوغ فيها مبلغ التميم والولة هو حب مترف يناسب الحياة المترفة التي كان يحياها أهل الأندلس في بلد كانت تحبب إليه ثمرات كل شيء وتفيض جوانبه بحسان الغال والقوط .
أما ما في الكتاب من الشعر فقد حرص ابن حزم — كما قدمت — على أن لا يورد فيه لغیره شيئا^(١) فأفسد بذلك كتابه وأساء إليه . وهو يتكلف في شعره تكلفا يصل به أحيانا إلى السماجة فينظم معاني الأبواب في أبيات ثقيلة على النفس لا يكاد يسفيها الدوق . فمن ذلك قوله :

منهم فتي كان في محبوبه وقص كأنما الغيد في عينيه جنان^(٢)
وكان منبسطا في فضل خبرته بحجة حقها في القول تبيان
إن لها وبها الأمثال سائرة لا ينكر الحسن فيها الدهر إنسان
وقص فليس بها عنقاء واحدة وهل تزان بطول الجيد بعران
وآخر كان في محبوبه فوه يقول حبي في الأفواه غزلان
وآخر كان في محبوبه قصر يقول إن ذوات الطول غيلان^(٣)

وهكذا نرى أن شعره هذا أشبه بالشعر التعليمي يحاول أن ينظم به معاني الباب الذي كان يتكلم فيه وهو باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها . وليست هذه الغنائية بقاصرة على هذا الطراز من شعره ولكنها تشيع في أغلبه حتى الذي يخاطب به الحبيب . ها هو ذا يقول :

ولاني وإن تعتب لأهون هالك كذائب تقرر زل من يد جهنم
على أن قتلي في هواك لذادة فيا عجبا من هالك متلذذ^(٤)
ويقول في التذلل للحبيب :

ليس التذلل في الهوى يستنكر فالحب فيه يخضع المستكبر
لا تعجبوا من ذاتي في حالة قد ذل فيها قبلي المستبصر
ليس الحبيب مماثلا ومكافئا فيكون صبرك ذلة إذ تصبر
تفاحة وقعت فآلم وقعها هل قطعها منك انتصارا^(٥) يذكر

(١) خرج على ذلك مرة واحدة كما أسلفت فروى أحيانا لابن عمه أبي المغيرة ص ٩٠ .

(٢) لم أفهم لها معنى .

(٣) طوق الحمامة ص ٢٦ — ٢٧ .

(٤) طوق الحمامة ص ٣٩ .

ولا يظن أني أختار من شعره أردأه فشعره في الغالب سواء في الخلو من
العاطفة وفي هزال المعاني وبرودة التشايبه وركاكة الأسلوب والتكلف شائع
في ثناياه . وقد أفسد بإيراده الكتاب وقطع على القارئ لذة التمتع بأسلوبه
الأنيق الجميل في النثر حتى لا يكاد يصدق أن هذا الشعر لصاحب هذا النثر لولا
أنه يفاخر بنسبته إليه ويعتز به فيقول في معرض استشهاده به : « وفي ذلك
أقول وأنا أقول » إلى غير ذلك .

ومن عجب أن يبلغ التفاوت بين شعر ابن حزم وبين نثره هذا المبلغ وأعجب
منه أن يعجب هو بشعره هذا ويفخر بنسبته إليه ولا يقتصر عليه ولعل ذلك
حائد إلى أن ابن حزم كان يعجب بنفسه إلى حد الإفراط ويبالغ في الاعتداد بعلمه
وأدبه . وهذا الإعجاب قد يبلغ بالمرء إلى أن يغض طرفه عن عيوبه ولا يكتفي منه
بذلك بل يريه مساوئه محاسن وهذره كلاما منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه .

وأغلب الظن أن ابن حزم قد حدثته نفسه يقول الشعر ليستكمل لنفسه
صفات الأديب العالم المحيط بكل شيء والقادر في كل فن فأراد أن يقول الشعر
فقال ولم يسعفه الطبع ولم تواته السليقة فكان من أمره ما نواه وما تعييه عليه .

الفصل الثالث

آراؤه في الحب

وقبل أن أفيض في شرح آراء ابن حزم في الحب أود أن أشير إلى النبع الذي كان يغرف منه والمعين الذي كان يصدر عنه في هذه الآراء . فهو كما سبق أن لا حظنا عليه ونقلنا عنه قد أعرض عن رواية أخبار المتقدمين وأضرب عن ذكر أشعارهم فلم ينفذ في ظاهر الأمر منها وزعم أنه انتصر على ما رأى أو صح عنده بنقل الثقات^(١) .

على أنه قد سجل على نفسه في أول الكتاب أنه اطلع على كتاب الزهرة لمحمد بن داود حيث قال في صدد الكلام على ماهية الحب : « لا على ما حكاه محمد ابن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة^(٢) ... الخ » .

وهذا يصيف إلى مصدره الذي زعم أنه لم يصدر عن سواه مصدرا آخر ودارس الكتاب لا يملك إلا أن يحكم أن ابن حزم قد أفاد من ابن داود إلى حد بعيد وسيأتى بيان ذلك في موضعه إن شاء الله .

فصادره التي استقى منها آراءه في الحب إذن ثلاثة . خبرته الشخصية بالحب وما جرى له فيه وكتاب الزهرة لمحمد بن داود وما كان يجري في عصره من حوادث الحب التي كان يطلع عليها عن طريق الأصحاب وعن طريق النساء اللواتي كان اتصاله بهن وثيقا .

١

وأصل الحب عند ابن حزم أنه « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ... على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ومجاورتها في هيئة تركيبها^(٣) » أي أن الحب في رأيه إنما يكون بين النفوس التي كانت من أصل واحد في عالمها العلوى وعلى هيئة متقاربة متجاورة في تركيبها .

(١) طوق الحمامة ص : ٣ .

(٢) » » » : ٥٠ .

(٣) » » » : ٥٠ .

وهو لا يقبل ما نقله محمد بن داود عن بعض المتفلسفين من « أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع منه النصف الذي كان معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة^(١) » .

ومهما يكن من أمر هذه الخرافة الافلاطونية التي ردها كلاهما ترديدا ممسوخا بعض المسخ فإن كلام ابن حزم يدل على قصر بابه في الفلسفة وقلة ذات يده فيها فهو يخلط بين النفس والروح خلطاً فيزعم أن للنفوس طالما علويها وعنصرها رفيها وذلك لا يكون إلا للروح إذ النفس هي مجموعة القوى التي تصدر عن التركيب الإنساني من عقل وإحساس واتفعال . أما الروح فهي التي تستمد منها النفس قوتها . وقد قسم ابن سينا النفس إلى أقسام منها النفس الناطقة والنفس الشهوانية والنفس الحيوانية^(٢) وتحت كل من هذه الأقسام تتدرج القوى التي ذكرناها . والنفس في العلم الحديث موضوع بحث السيكولوجيا العلم الذي يدرس مظاهر التفكير والإحساس والاتفعال في الإنسان .

وابن حزم يشير في خلال كلامه على ماهية الحب إلى أن الحب وهو في رأيه اتصال بين النفوس لا بد أن يكون بعيداً عن الغرض مبرأ من الغاية لأن الاتصال هو الذي يوجبه ويفرضه على المتحابين^(٣) . وهو بذلك يقول بما قال به الإمام الغزالي من بعده وبويس جبسون من أن الحب سرور بالمحبيب لذاته لا لأنه يضمن رغبة أو يقضى شهوة .

ثم يعرج على مسألة قديمة لم يتكلم في الحب أحد من علماء المسلمين إلا أشار إليها وأفاض فيها تلك هي مسألة المشاكلة والمجانسة فقد تعرض لها أغلب من تحدثوا عن الحب في مجلس يحيى بن خالد بن برمك ثم تكلم فيها أبو بكر محمد بن داود في كتاب الزهرة وتحدث عن إخوان الصفا في رسائلهم . وهاتين أولاه نرى أن هذه المسألة لا تزال قدرا مشتركا في كلام أهل الاسلام في الحب على أن ابن حزم يفسرها بالاتصال ويجعلها جوهرها وعنصرها الأصيل وأصلها الأول فيقول : « والشكل دأبا يستدعى شكاؤه والمثل إلى مثله ساكن وللمجانسة

(١) كتاب الزهرة ص ١٥ .

(٢) رسالة العشق وقد مر الكلام عليها في الفصل الأول من الكتاب الأول .

(٣) طوق الحمامة ص ٦ .

عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزوع^(١) فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ومنحها المهيأ لقبول الاتفاق والليل والتوق... الخ^(٢) .

وهو يدل على ما ذهب إليه في شأن الموافقة والمجانسة فيقول : « ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق (في) الصفات الطبيعية لا بد من هذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عياناً وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف^(٣) » .

وقد تتغير النفس في هذا العالم الأدنى وتحيط بها الطبائع الأرضية فتحجب كثيراً من صفاتها^(٤) فتتفر بمن يسكن إليها ولا تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها من قبل في عالم النفوس^(٥) .

وهذا الاتصال بين النفوس وبالتالي للموافقة والمشاكلة بين الطبائع هي التي تصل بين النفوس بعلاقة الحب وتجمع عليها المتحابين ، فإذا وجدت النفس شكها وظفرت بمثلها لم تبال بصورته ولم تهتم بعرضه فأما ما يشاهد من ميل الإنسان إلى الجميل وتعلقه به في أغلب الأحيان فتفسيره عند ابن حزم أن النفس تولع بالحسن فهي إذا رآته وميزته في إنسان تعلقت به وثبتت لعلها تجد فيه المجانسة والمشاكلة فتحبه وإلا لم يتجاوز تعلقها به الصورة وذلك في رأيه هو الشهوة . يقول : « وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز أحبابها الصورة وذلك هو الشهوة^(٦) » .

وتفسيره الإعجاب بالجمال بأنه هو الشهوة إسفاف منه وإمعان في المادية لا يقبل منه بحال . ومن عجب أنه لم يلحظ أن في المحبين من أحب الجميل من غير

(١) في الأصل « النزاع » وبما صححناه يستقيم المعنى .

(٢) طوق الحمامة ص ٦ .

(٣) « ٨ » .

(٤) « ٢٣ » .

(٥) « ٧ » .

أن ينال منه الإسعاد أو المواصلة فثبت على الحب ودام عليه . إلا أن الإعجاب بالجمال أكبر هذه الحياة به يتعاطف الإنسان مع الإنسان بل مع غيره من مظاهر الكون الجمال معناه الواسع الذي لا يحد بالصورة والعرض .

وما دام الحب اتصالاً بين النفوس فهو لا يتصل بالجسد ولا يحفل بلذته ، « وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدى واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان فهذا ^(١) سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ^(٢) » . فهو إذن يميز بين الحب والشهوة كما فعل ذلك من بعده هافيلوك اليس .

والحب يكون « إذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال تقسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس ^(٣) » .

فالحب إذن شيء آخر غير الشهوة وغير الاستحسان والإعجاب وهو أعمق من ذلك وأبعد في النفس غورا . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه الحب العذرى .

على أن ابن حزم قد نظر إليه من جانب واحد فقط فقال : إنه يبدأ شهوة واستحساناً ثم تنفصل الشهوة وتزول أو تصبح شيئاً ثانوياً ، وهذا أيضاً رأى بعض علماء النفس المعاصرين .

ولكن من الحب العذرى ما يبدأ من قبل أن تظهر الشهوة ، يبدأ ألفة بين حبيبين يستلطف أحدهما الآخر ويسكن إليه ويرتاح لصحبته ثم تستيقظ في النفس غريزة الجنس فيحس كل منهما بها إحساساً مبهماً يربطه بألفه ويجذبه إليه أكثر من ذى قبل وهكذا حتى تكتمل فيهما عاطفة الحب . وهذا شأن أكثر العشاق العرب الذين اشتهروا فى تاريخ الأدب بالعشاق العذريين ^(٤) .

ثم يلتفت ابن حزم إلى مقوم آخر من مقومات الحب العذرى هو التوحيد فيه والانصراف إلى شخص بعينه وأنه لا يمكن أن يحب المرء اثنين حبا حقيقيا فيقول : « ومن هذا (من الخلط بين الحب والشهوة) دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا اتفاقاً وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ^(٥) » .

(١) فى الأصل « هذا » وبما صححناه لتنظيم العبارة .

(٢) طوق الحماة ص ٢٣ . (٣) طوق الحماة ص ٢٣ .

(٤) مر الكلام فى ذلك فى الباب الثانى من الكتاب الأول من هذه الرسالة .

(٥) طوق الحماة ص ٢٣ .

٢

أما الوقوع في الحب فقد استقصى ابن حزم الأسباب التي تؤدي إليه وشاء أن يكون دقيقاً فيبدأ بالسهل والأهون وذلك أن يحب الإنسان في النوم وقد شاهد ذلك في صاحبه أبي السري عمار بن زياد مولى المؤيد حين دخل عليه فرآه مفكراً منها فسأله عما به « فتمنع ساعة ثم قال : لي أعجوبة ما سمعت قط قلت : وما ذاك قال : رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها وإنني لفي أصعب حال من حبها . ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموما مغموما لا يهنئه شيء وجدا... الخ^(١) » .

ولا شك أن هذا أمر غريب إذا صح وهو على أية حال نزوة شذوذ يبعثها الحرمان والكبت .

وقد يقع الحب بالوصف فيعلق الإنسان شخصاً لم يره ولم يعاينه وقد تقوى هذه العلاقة بالمراسلة والمكاتبة ثم تشتد فتظهر فيها آثار الحب من الهم والوجد والسرور وابن حزم يفسر ذلك بتأثير وصف المحاسن في النفس وتخيلها للموصوف فتألفه وتتعلق به ثم تحبه على أنه في نظره بنيان قائم على غير أساس فهو لا يلبث أن يكشف أمره بالمعاينة فتؤكده أو تنفيه وتذهب به ذلك أن الصورة المتخيلة إما أن تكون أكبر من حقيقة المتصور فإذا عاينها من وقع في حبها بالتصور وخبرها فترو صدمته خيبة الأمل وإما أن تكون أقل فإذا عاينها ازداد لها حبا وبها تعلقا والحال الأول أكثر وقوعاً وأدنى إلى طبيعة الخيال . وابن حزم يلاحظ أن هذا يقع أكثر ما يقع « في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال^(٢) » . وأقوم ما في هذا الذي سقناه من كلام ابن حزم أنه يعرض لنا نموذجاً جديداً وطريقة مبتكرة من طرق البحث في الحب بل وفي العلائق الاجتماعية فهو دراسة للظواهر فيها شيء من الدقة والاستقراء تعتمد على الملاحظة والملاحظة وفيها كذلك شيء من الموضوعية « objectivity » .

ولعل ابن حزم من أقدم من وضع حجر الأساس لهذه الطريقة الجديدة

(١) طوق الحمامة ص : ١٧ .

(٢) « » » : ١٨ .

التي يمتاز بها العلم الحديث في مختلف فروعها من طبيعة وسيكولوجيا واجتماع وغير ذلك . على أن فيها مع ذلك سذاجة الابتداء وبساطته .

وكثيراً ما يقع الحب من نظرة واحدة وابن حزم يقسم أن هذا النوع من الحب قسمين فيبدأ على عادته بالأغرب النادر الوقوع الذي يخالف الحب بالوصف حين يعرف المحب صفات محبوبه ويسمع عن محاسنه ويتخيل فيخال من غير أن يبصر ويعاين . وهو هنا يحب بالنظر فلا يعرف عن الصفات والمحاسن شيئاً . وابن حزم يقول فيه : « هو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً^(١) » وهو يستشهد على ذلك بما حدث للشاعر الرمادي الذي فتن بحبابة لم يعرفها ولم يعرف منزلها ولكنه راها لأول مرة فهم بها وظل كذلك يتسقط أخبارها ويتعرض للموضع الذي رآها فيه فلم يحل بطائل وبقي يتغزل بها وقتاً طويلاً ويكون لها المحبة في قلبه^(٢) .

والقسم الآخر أن يعشق المرء من يعرفها ويعرف اسمها ومكانها^(٣) . وهو يقر بأن هذا النوع من الحب خليك بأن لا يدوم فهو كما ابتداء سريعاً لا بد له أن ينتهي سريعاً كذلك « فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لحظة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ونخب بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناً وأبطؤها حدوثاً وأبطؤها تقاداً^(٤) » .

ولأبي بكر محمد بن داود كلمة جميلة في هذا المعنى يقول في خاتمها : « أخلق بمن يسقيه أول داء أن يشفيه أول دواء » .

ثم يعود ابن حزم فيعقد باباً لمن لا يحب إلا مع المظاولة وهو يقرر أن الحب لا يقع وقوعاً حقيقياً إلا بطويل المشاهدة وكثير المخافتة ومتبادي الألس . وهذا الحب خليك بأن يبقى وأن يدوم . وهو يعجب ممن يدعى أنه وقع في الحب من أول النظر ولا يكاد يصدق بل إنه ينفي أن يكون ما يدعيه حبا متمكناً من النفس راسخاً في القلب ويرى أن ذلك شهوة طابرة لا تبق ولا تستقر . وهو يعزز ذلك بحديثه عن نفسه وكيف يقع فيها الحب ويتمكن منها .

(١) طوق الحماة ص : ٢٠ .

(٢) » » » » ٢٠ : ٢١ .

(٣) » » » » ٢١ : ٢١ .

(٤) » » » » ٢١ : ٢١ .

حديثاً فيه صدق وفيه إخلاص يتبينهما القارىء من أثر الكلام في نفسه يقول :
« وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى
دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والشوق فما نسيت
ودأ لى قط وإن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليفضى بالطعام ويشرقنى بالماء^(١) .
ولقد مر بنا حديث ابن داود فى هذا الشأن وتبين لنا أنه وضع للحب
مراتب ومراحل إذا قطعها الحب واحدة بعد واحدة كان خليقاً بأن يقيم على الحب
والا كان انحطاطه قريباً كما كان ارتقاؤه فيها سريعاً وظنى أن الحب لا يتقيد
بذلك ولا يلتزمه وابن حزم كان أقرب إلى الواقع فى اقتصاره على طويل الملازمة
ومديد المخافة ومتادى الأنىس .

ومما يلاحظ أن ابن حزم حين يستقرى ظواهر الحب فيمن حوله من
الناس يخرج حديثه سطحياً لا عمق فيه ولا تفاذ ، بل قليلاً ما يسلم من الشطط
والتهافت حتى إذا استبطن نفسه واستشف قلبه واستخبره وجد عنده الخبر
اليقين . وها هو ذا حديثه عن أحب فى النوم ومن أحب بالوصف ومن أحب
من نظرة واحدة حديث لا يعدو الظواهر ولا ينفذ منها إلى ما بعدها ويحيل إلى
أن الكلام فى العواطف والمشاعر — عواطف الآخرين ومشاعرهم — لا يمكن أن
يذعن الموضوعية إلى حد بعيد والشخصية أو الذاتية « subjectivity » التى تشاهد
الخلجات وتراقب الخطرات لا بد منها لمعرفة القدر المشترك بين أبناء الجنس .
ومن هنا ندرك إخفاق المذهب السلوكى فى علم النفس وقلة احتفال العلماء به ذلك
لأنه يقتصر فى بحثه على الملاحظة والملاحظة والتجربة الموضوعية على دراسة
النفس الإنسانية . وقديماً قيل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

٣

وهذا الحب الذى لا ينشأ إلا بالمطاوله وكثير المخافة يرقى الحب فيه مراتب
ويقطع الطريق فيه مراحل كل تسلم إلى ما يليها .
فأول مراتب الحب عند ابن حزم الاستحسان وهو أن يتمثل الناظر صورة
المنظور إليه ويؤخذ بها أو أن يستحسن أخلاقه وصفاته .

وثاني المراتب الإعجاب ، وهو رغبة المستحسن فيمن استحسنه ، وفي قربه وهو الذي سماه أبو بكر بن داود بالمودة . حتى إذا تمها له ذلك وتزود منه ارتقى إلى المرتبة الثالثة وهي الألفة وهي « الوحشة إليه إذا غاب » .

ثم تزداد الألفة وتقوى أو اصرها فيشغل المألوف بال أليفه ويستحوذ على تفكيره ويتمكن من خواطره ، فتستحيل الألفة كافاً ، وهو المرتبة الرابعة . حتى إذا زاد انشغال البال وتحكمت الهواجس والوساوس وتبلبلت الخواطر أصاب الكلف منها « امتناعه عن النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك » وهذا هو الشغف وهو المرتبة الخامسة ، آخر مراتب الحب ، وليس وراءه في الحب منزلة بل لقد يؤدي إلى المرض والتوسوس أو الموت ^(١) .

ولعل من المفيد أن نرجع البصر إلى محمد بن داود وكلامه في مراتب الحب فقد جعلها ثمان الاستحسان ثم اللودة ثم المحبة ثم الخلّة ثم الهوى ثم العشق ثم التميم ثم الوله ، وهو قد أفرط فيها فأدخل أحوالاً تقرأ على الحب أو صفات تغلب عليه في بعض الأحوال .

وأحسب أن ابن حزم كان أكثر منه توفيقاً في بيان مراتب الحب ومراحلها .

٤

ولا يلبث الحب أن يسم المحب بميسمه ويطبعه بطابعه فتبدو فيه أعراضه وتلوح عليه أماراته وعلاماته ، وللحب علامات وأعراض لا يملك المحب إخفاءها ولا يمكن أن يتحفظ منها ويتستر عليها . وقد عقد لها ابن حزم باباً يقول في أوله : « وللحب علامات يقفوها الفطن ويمتدئ إليها الذكي » ثم أخذ يعددها ويشرحها ويستشهد عليها بما شهد في نفسه وفيمن حوله من المحبين .

فأول علامات الحب إدمان النظر إلى الحبيب ، فالمحب لا يزال يتتبع حبيبه بنظره ولا يلتفت إلى شيء سواه . ومنها إقبال المحب بحديثه على المحبوب والالتفات إليه والإنصات لحديثه إذا حدث كأن الحديث إليه وحده يوجه ^(٢) . ومن علامات الحب ما يبدو على المحب من البهت والروعة عند رؤية محبوبه فجأة . وإذا خطر أمامه شبيه بحبيبه أو خطر اسمه بسمعه اضطرب وفقد اتزان ^(٣) .

(١) ابن حزم — رسالة في الأخلاق والسير من ٥٨ .

(٢) طوق الحمامة من ١٠ — ١١ .

(٣) ١١ .

ومن علامات الحب أن يجود فيه البخيل وتنسبط فيه اليد المغلولة إلى العنق ، وينطلق فيه القلوب ويتشجع الجبان ويتأدب الجاهل ويتفتك الناسك ويتفتى السن ... إلخ^(١) . كل ذلك إرضاء للمحبيب وابتغاء للزلفى عنده . وقديما قال كثير :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا لتحسن يوما عند ليلى شمائله
ثم يفيض ابن حزم في استقراء ما شاهده في نفسه ، وفي غيره من علامات الحب استقراء دقيقا وتقصيا للجزئيات عجيبا ، فيذكر من علامات الحب وشواهد الظاهرة : « الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفي والليل بالانكاء ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما بقي المحبوب . إلخ^(٢) إلى غير ذلك مما نسميه بلغة العصر مداعبات المحبين ، حتى لكأنه ينظر إلى مجلس عاشقين ، ويحصى عليهما الحركات والسكنات والنظرات والخطرات .

وقد يحدث بين المحبين — إذا تكافأ في المودة وتأكدت بينهما — الغضب ليسير من الأمور وتأويل الكلام بغير ما يدل عليه . وهذا كما نرى مخالف لما مر من الإقبال بالحديث والإنصات إليه ، وتصديق المحبوب في كل ما يقول ، وابن حزم يفسر ذلك بأن : « الأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها ، ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت . فنجد الفرح إذا أفرط قتل والغم إذا أفرط قتل^(٣) » وهو يرى أن ذلك إنما يحدث بين المحبين : « تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه^(٤) » . وآية ذلك عنده سرعة الرضى بعد هذا الغضب والعود إلى جميل الصحبة وسقوط الخلاف .

ومن علامات الحب ، أن يلتذ المحب بذكر محبوبه ، « فيستدعي سماع اسمه ويستلذ الكلام في أخباره ويجعلها هجرا^(٥) » .

ومنها أن يغصه تذكار المحبوب بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ويبعث فيه الوجوم والإطراق ، وينعقد لسانه في الحديث ، ويتعثر في منطقته ، وهذا يضاد ما قبله ويناقضه . ولم يفسر ابن حزم ذلك ، ولم يحاول أن يفرق بين الحالين ، بل اكتفى بأن يصف الحال الأخيرة ، وصفا فيه كثير من اللوعة ومن حرقة القلب . الأمر

(١) طوق الحمامة ص ١١ .

(٢) (٤، ٣، ٢) طوق الحمامة ص : ١٢ .

(٣) (٥) طوق الحمامة ص : ١٢، ١٣ .

الذى يوحى إلى القارىء أنه إنما يتحدث عن نفسه . « ويعرض للصادق المودة أن يبتدى فى الطعام وهو له مشته ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له من ذكر من يحب ، صار الطعام غصة فى الحلق ، وشجى فى الرىء . وهكذا فى الماء والحديث فإنه يفاتحه مبتهجا فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحوالة فى منطقته ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوجوم والإطراق » (١) . وأغلب الظن ، أن هذه الحال الأخيرة ، تكون إذا ابتلى المحب بفراق حبيبه ، أو دهمته الأفقار بهجرانه أو فقدانه ، حينئذ يبعث التذكر فيه ألما دفينا يشجى به صدره ، وتقذى به عينه .

ومن علاماته أن المحب يحب أهل محبوبه وقرابته ، ويؤثرهم بمودته (٢) كأن المودة قبض يفيض من المحبوب على أهله وخاصته . وهكذا النفس الإنسانية فهى إذا تأثرت بشيء واستجابت إليه ، خلصت مثل هذه الاستجابة على ما يحيط به وما يتصل منه بسبب . وقد سبق إلى هذا المعنى جميل بثينة حيث يقول :

وقالوا يا جميل أتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب
أحبك إن نزلت جبال جسمى وإن ناسبت بثينة من قريب

وهكذا يفيض ابن حزم فى الكلام على علامات الحب ويعطى فيلاحظ ويشاهد تارة ويستبطن نفسه وما يختلج فيها تارة أخرى وقد كان موفقا فى هذا الباب إلى حد كبير وآية ذلك أن علامات الحب مما يلزم أن تلتقى فيه الشاهدة والملاحظة الخارجية بالاستبطان ومراقبة الخواالج ومن هنا جاء حديث ابن داود عنها وهو لا يكاد يتعدى الاستبطان إلى الشاهدة — مقتضيا موجزا إلى حد الإخلال فلم يزد على أن يقول : « وللمحب دلالات تتبين فى الزفرات واللون والنظرات » أو لعله كان أرفق بالمحبين من أن يفضحهم ويدل عليهم ويعرفهم بسيماهم .

٥

وإذا وقع الإنسان فى الحب التمس الوصول إلى المحبوب وتوسل إلى ذلك بوسائل شتى يذكر ابن حزم منها :

(١) طوق الحمامة ص ١٣ .

(٢) * * * ١٥٠ .

١ — التعريض بالقول : « إما بإنشاد شعر أو تسمية بيت أو طرح لغز أو تسليط كلام » وهذا أمر يختلف باختلاف المحبين إدراكا وبلادة وباختلاف المحبين في الإقبال والإعراض ^(١) .

ويصف ابن حزم موقف المحب ينتظر من المحبوب الجواب على تعريضه وصفا رائعا ينبىء عن خبرته بمثل هذا الموقف فيقول : « وانتظاره الجواب إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات لموقف بين الرجاء واليأس هائل وإن كان حينئذ قصيرا ولكنه إشراف على بلوغ الأمل وانقطاعه ^(٢) » .

هذا مايقع من المحب قبل أن يعرف مكانه في نفس محبوبه وقبل أن يقع على رأيه فيه وشعوره نحوه حتى إذا عرف أنه يكن له في نفسه الحب ويبطن له الود كان عقد المواعيد والسؤال عن بعض ما يدعو إلى التساؤل تعريضا بكلام يفهمه كلاهما ولا يفهمه الآخرون إذ يصطلحان على رموز وإشارات وعبارات يريدان بها معاني تخفى على الآخرين على أن هذه الرموز وتلك الأسرار قد يفتضح أمرها عند ذى الحسن النافذ أو التجربة السابقة في الحب ^(٣) .

تلك جزئيات بسيطة قد لا يلتفت إليها من يكتب في الحب ممن أصيب به ووقع فيه ولكن طبيعة الاستقصاء عند ابن حزم أبت عليه إلا أن يحيط بها .

٢ — حتى إذا أصاب المحب غرضه من التعريض بالقول ووجد من المحبوب مواصلة وإسعادا أتبع ذلك الإشارة بلحظ العين . وللأحفاظ لغة يحسن المحبون التفاهم بها ويقضون بها الحوائج من غير أن يسمع نحوهم رقيب أو يتسلط عليها واش أو عدول :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاما تكلمنا بأعيننا سرا فنقضى ولم يعلم بنا كل حاجة ولم تظهر الشكوى ولم نهتك السترا وأبو محمد بن حزم يضع في لغة العيون معجما ينبىء عن مبلغ تضلعه فيها وإحاطته بها . وهو يعترف بعجزه عن أن يعبر عن ذلك بالألفاظ تعبيرا دقيقا ، ويقر بأن ذلك لا يدرك إدراكا واضحا إلا بالرؤية . وهو يصف ما تيسر من هذه المعاني فيقول : « فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر وتفتيرها إعلام بالقبول وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف وكسر نظرها آية الفرح

(١) طوق الحماسة ص : ٢٧ .

(٢) » » » : ٢٧ — ٢٨ .

(٣) » » » : ٢٨ .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد وقلب الحديقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاها سؤال وقلب الحديقة من وسط العين بسرعة شاهد النع وترعيد الحديقين من وسط العينين نهى عام... الخ^(١) .

ومثل هذا ينفي بـخبرة ابن حزم في الحب وفنونه ، وطول ممارسته لها واحتفاله بها ، ويدل على ما كان للحب في البيئة الأندلسية من مكانة ، وعلى شيوعه بين القوم . حتى لقد اصطلحوا فيه على رموز يحتمى بها المحبون من الرقيب الثقيل والواشي الولوع بالإفساد بين أهل الود .

وما أظن أن ابن حزم استمد ذلك من اختبار له للحب بنفسه فحسب ، ولكن يغلب على ظني أنها مشاهداته وملاحظاته في بيئته التي يبدو أنها كانت تحتفل بالحب احتفالا كبيرا .

٣ — ثم يتصل المتحaban إذا عز عليهما اللقاء بالمراسلة ومن المحبين من يرسل محبوبه لوجد لذة الكتابة إليه ولذة جوابه على ما يكتب إليه من أنه يسير عليه لقاءه قريب منه زاره .

ومن المحبين من يسقي الحبر بدمعه أو يسيل دمه فيكتب به إلى حبيبته^(٢) وفي مثل ذلك يقول ابن حزم :

جواب أتاني عن كتاب بعثته فسكن مهتاجا وهيج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبته فعال محب ليس في الود خائنا
فما زال ماء العين يححو سطره فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي أول الخط بيننا وأضحى بدمي آخر الخط بائنا

٤ — وقد يدخل المتحaban بعد حلول الثقة بينهما رسولا يصل بينهما حيث لا يتيسر اللقاء ويسفر بينهما حيث يمتنع عليهما الوصول . وفي ذلك يقول محمد بن داود : « من منع من الوصول اقتصر على الرسول » .

وابن حزم ينصح بتخير السفير : « وارتياحه واستجاده واستفراجه فهو دليل عقل المرء ويده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى^(٣) » .

وأكثر ما يستخدم المحبون في السفارة إلى من يحبون : « إما حائلا لا يؤبه له

(١) طوق الحمامة ص : ٢٩ .

(٢) طوق الحمامة ص : ٣١ .

(٣) » » » : ٣٠ - ٣١ .

ولا يهتدى للتحفظ منه لصباه أو لهيئة رثة أو بدادة في طلعتة وإما جليلا
لا تلحقه الظن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها وما أكثر هذا في النساء
ولا سيما ذوات العكا كيز والتسايع والثوين الأحمرين^(١) .

ويبد أن أمر هؤلاء قد بلغ في قرطبة مبلغا عظيما حتى هتكن الأسرار ومهلن
الصعاب ومهدن الوعر فهو يحذر منهن وينبه عليهن بشدة^(٢) .

ويذكر في آخر الباب خبرا ظريفا عن عاشقين كانت تسفر بينهما حمامة مؤدبة
بعقد الكتاب في جناحها . وفي ذلك يقول :

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشار
سأودعها كتي إليك فما كها رسائل تهدي في قوادم طائر^(٣)

٦

وللحب أحوال منها أن يجهد المحب في طي سره وإخفاء أمره وأن يتصنع
الخلو من الحب . وقد يفلح ذلك فيجوز تديره على غير ذى الحس اللطيف حتى
إذا استحكم فيه الحب وملك عليه أمره لم يلبث أن ينكشف السر ويبدو الخفي
فيظهر الحب في حركاته ونظراته^(٤) .

وهذا الذى ذكره ابن حزم من علامات الحب التى تدل على المحب وتفضحه
وتكشف سره أمر لا تقاومه الإرادة وهو يروى عن بعض من يعرف ممن رام
أن يجحد ما يبدو عليه من الوجد أن واحدا من ذوى وده وأهل الخطوة لديه
جرى معه فى تصديقه بما يزعم من خلوة قلبه من الحب فسر بذلك وابتهج حتى
كان قاعدا ذات يوم فر به من يمواه فبان عليه الاضطراب وامتنع لونه وانعقد
لسانه بعد انطلاق فذكره صاحبه بما يحاول أن يخفيه عن الناس فاعترف بمضاضة
وأقر إقرار مجبر قليل الحيلة^(٥) .

ولهذا الكتمان أسباب . فبعض الناس يكتب حبه لأنه يظن أن الحب من
صفات أهل البطالة التى تنافى الورع وتجاوى التقوى وابن حزم يرد على هؤلاء رد

(١) ملوك الحمامة ص ٢٢ .

(٢) » » » » .

(٣) » » » » .

(٤) » » » » ٣٣ .

(٥) » » » » ٣٤ .

الفقيه لا المحب فيقول : « وما هذا وجه التصحيح فيحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي ياتيها باختياره ^(١) » .

وهذه حال من لم يقدم في الحب عهده ولم يرسخ فيه قدمه إذ المحب العريق في الحب لا بد له أن يرضى به وتطيب به نفسه ، ويسكن إليه قلبه وينشغل بلذته فلا يحفل بسواه .

ومن دواعي السكتان إبقاء المحب على محبوبه وصونه من أن يسلقه الناس بالسنة حداد ^(٢) .

ومنها أيضاً أن يتوقى المحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب وابن حزم يحكى أن بعض شعراء قرطبة تغزل بصبح أم المؤيد فغنت بشعره جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي طاهر ليبتاعها فأمر بقتلها ^(٣) .

وقد قتل أحمد بن مغيث ، واستؤصلت أسرته لأنه تغزل بأحدى بنات الخلفاء ^(٤) .

وقد يتحكم العشق فيغلب العاشق على إرادته ، فيبدى مالا يحسن أن يبديه ، ويسدر في غلوائه ، فيستعذب الافتضاح بعد التصون والتستر : « وكم من مصون الستر مسبل القناع ، مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأحل حماء فصار بعد الصيانة علما ، وبعد السكون مثلا ، وأحب شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه فسهل ما كان وعرا ، وما كان عززا ، ولان ما كان شديدا ^(٥) » . وهو يمثل لذلك ببعض من رأى ومن خبر : « ولعبدى بفتى من سراوات الرجال وعلية إخوانى قد دهمي بمحبة جارية مقصورة فيهم ^(٦) بها . وقطعه جها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر إلى أن كانت هي تعذله على ماظهر منه مما يقوده إليه هواه ^(٧) » .

ونحن إذا رجعنا إلى محمد بن داود وحديثه عن السكتان ، وجدناه أرحب من ابن حزم أفقا وأعمق نظرا ، وأتقذ فراسة فقد أوسع السكتان بمخالفه يقتصر

(١) طوق الحماسة ص ٢٣ . (٢) طوق الحماسة ص ٣٤ .

(٣) طوق الحماسة ص ٣٥ .

(٤) طوق الحماسة ص ٣٦ .

(٥) في الكتاب « فلم بها » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٦) طوق الحماسة ص ٣٦ .

على الجانب الذي عرض له ابن حزم منه ، وهو كتمان المحب حبه عن الآخرين ، وإنما عرض الجانب آخر منه ذلك . هو كتمان المحب عن المحبوب ما يجده فيه وما يكرهه في نفسه . وتكلم على أصرار المحبوب عند لحظة من زيارات ومواعيد ، وما إليها من الأمور التي يعذر المحب في إظهار الناس عليها .

ويخيل إلى أن ذلك كان رهنا بطبيعة الحب كما أدركه كل منهما ، وكما اختبره وتقلب في أحواله . إذا لم تكن حياة ابن حزم تبيح له أن ينغمس في الحب شأن ابن داود ، أو أن يعاني فيه ما عاناه . فقد كان محبوب ابن حزم طوع يديه إلى حد بعيد ، ولم يكن يتكلف في رضاه كثيراً ، أو يبذل من أجله غالباً ، وهكذا يكون حب المترفين في الغالب . وهذا الأمر يوحى في النفس فكرة التسكافو في الحق ، وبالغ أثرها في تكوينه وفي تكييفه ، وسنعود إلى بسط القول فيها بعد قليل .

ومن أحوال الحب أن يؤثر في طباع المحب وأخلاقه . فيوجهها كما يشاء المحبوب ويعرفها كما يهوى . فتراه يطيعه فيما كان قبل الهوى يعسر عليه ، ويعظم أمره لديه ، وابن حزم يصور ذلك تصويراً طريفاً ، ويعبر عنه تعبيراً لطيفاً . فيقول : « وربما يكون المرء شرس الأخلاق ، صعب الشكيمة جموح القياد ، ماضى العزيمة ، حى الأنف أبى الخسف . فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورط غيره ، ويعوم في بحره عادت الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلاله والحمية استسلاماً »^(١) .

ولسلطان الهوى من القوة ما تذل له الأعناق ، وتعنو له الوجوه . فقد يبتلى المحب بمحسوب يكره الشكوى ، ويضيق بها فيضطر المحب إلى أن يكتف حزنه ويخفى وجده ، وينطوى على علته . وقد يتجنى المحبوب لغير ذنب ينجيه المحب فلا يملك هذا إلا الاعتراف بذنب لم يقتضه . وابن حزم يعرف من دهم بمثل هذا المحبوب « فما كان ينفك من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتب عليه ، والضغط وهونق الجلد »^(٢) .

وتدرك ابن حزم تربيته الارستقراطية ، ومنزلته الاجتماعية الرفيعة فيبرر ذلة المحب للمحسوب تبريراً لا يسعفه فيه طبع من ذاق الحب فعرفه ، وتهذبت به نفسه صبر فهو ينفي أن يكون المحب على الذلة للمحسوب دناءة في النفس . لا لأن الحب

يفرض ذلك عليه ، ولكن لأن « المحبوب ليس له كفؤاً ولا نظيراً فيقارض بأذاه وليس سبه وجفاؤه مما يعبر به الإنسان ، ولا يبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع في مجالس الخلفاء ، ولا في مقاعد الرؤساء . فيكون الصبر مستجرة للمذلة وضراعة قائدة للاستهانة . فقد ترى الإنسان يكلف بأتمته التي يملك رقها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها ^(١) » .

وعجيب من ابن حزم أن يقول بذلك ، وهو يصف الحب بأنه اتصال بين النفوس في عالمها العلوى ، وانجذاب بعضها إلى بعض لأنهما في الأصل من جوهر واحد ، ولعل نفسه حجبت بمظاهر البيئة التي نشأ فيها ، وتأدب بآدابها حتى انكشف نورها .

وأين هذا من قول أبي بكر بن داود في هذا الشأن : « والحازم من صبر نفسه على مضاضة التدلل ، والتمس العز في استثمار التدلل » .
وهنا تعاودنا فكرة التكافؤ في الحب ، وهو لا بد منه ليأخذ الحب مكانه في النفس ، ويستقر فيهما ذلك أن الحب لا بد فيه من الشعور بالافتقار إلى الحبيب والحاجة إليه من غير أن يظن المحب أن ذلك وهم يحلوه اليقين .

٧

وكما أن للحب مراتب يرقى فيها المحب واحدة بعد واحدة وأحوالاً يتقلب فيها حالاً خالاً . فإن فيه آفات تصيب المحب فتغصن عيشه وتقض مضجعه .
فمن آفات الحب العاذل ، وهو عند ابن حزم أقسام وأفضلهم « صديق قد أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه . فعذله أفضل من كثير الساعدات » وهو بذلك يقي المحب من الاستسلام لمحبه استسلاماً يورده موارد الهلاك ، وأحسن ما يكون هذا العاذل وأتقن ، إذا كان رفيقاً في القول يدرك متى يقع في النفس كلامه ، ومتى تزور عنه وتناهى بجانبها « على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعده وقبوله وعصيانته ^(٢) » .

ومن العذال عاذل زاجر يغرى بالعذل ، ولا يفيق من اللامة وهو كما يقول فيه ابن حزم خطب شديد وعبء ثقیل . وقد وقع له هو مثل ذلك ^(٣) .

(١) طوق الحمامة ص : ٤٠ .

(٢) » » » : ٤٣ — ٤٤ .

(٣) » » » : ٤٤ .

على أن من المحبين من يبتلى بالحب قلبه وتعمر به نفسه ، فلا يعبأ بالعذل ولا يبالي بالعاذل . بل قد يميل إليه ، ويلذ له عذله ليريه عصيانه وإياه ، ومخالفته له . وقد شاهد ذلك ابن حزم فيمن عرف من المحبين^(١) . وما ذلك من الحب بعجيب فقد يجد في العذل لذة ذكر المحبوب والأنس بالحديث عنه . وقد كان أبو بكر بن داود أعمق منه نظراً في الكلام على العاذل فقد تنبه إلى أمرين خطيرين في العذل هما أي المحبين ينفع فيه العذل والثاني هل يزيد العذل في المحبة . وتحدث عنهما حديث الخبير بالحب وبأحوال المحبين . وابن حزم يتبع باب العاذل بباب يتكلم فيه على المساعد من الإخوان ويذكر فيه حرص النساء على الأمرار وولوعهن بالسكتان وشغفهن بإصلاح ذات البين بين المحبين .

ومن آفات الحب الرقيب وهو الموكل بالوصل يكدره ويشوب صفاءه وابن حزم يصفه وصف الذي أصيب به فطالت به مصيبته وابتلى به فعظمت به بليته فيقول : « ومن آفات الحب الرقيب وإنه لحي باطنة وبرسام ملح وفكر مكب^(٢) » وهو كعادته يقسم الرقباء أقساماً . فأولهم رقيب حسن النية ليست مراقبة للمتحايين دأبه ولا غرضه وإنما يوقعه بهما الطالع السيء فيطلع عليهما نحسا يصيهما منه قلق قد لا يصيهما مما هو أشد منه وقد شاهد ابن حزم مثل ذلك وهو يحكيه في ص : ٤٧ .

ومنهم رقيب فضولى « أحسن من أمر العاشقين بطرف وتوجس من مذهبهما شيئاً » فهو يريد أن يروى فضوله ويشفى غليله فيتمهد الموضع التي يأويان إليها ويخلوان فيها فيدمن الجلوس فيها ويرمقهما من طرف خفي لا تقوته حركة ولا تعدوه خطرة . وابن حزم يعرف من هم أن يباطش رقبيا هذه صفته^(٣) .

هذان رقبان على المتحايين كليهما وهما أقل خطراً وأهون شراً ممن يوكل بالرقابة على المحبوب وهو الذي لا مفر من أذاه إلا بترضيه فإذا هو لم يرض كان على الحب أن يقنع بإشارة اللحظ وبالهمس وبالتعريض بالقول على ما سبق أن ذكرنا في سبيل الوصول إلى المحبوب . ويرى ابن حزم بحق أن أشد ما يكون الرقيب على المتحايين . « إذا كان ممن امتحن بالعشق قديماً ودعى به وطالت مدته

(١) طوق الحماسة ص : ٤٤ .

(٢) طوق الحماسة ص : ٤٨ .

فيه ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه^(١) « إنه إذن لا يدع للعاشقين حيلة يلتصسان فيها الوصل إلا أفسدها ولا خطة يحكمآن حبكها إلا فكعراها .

ومن طريف أمر الرقيب أن ابن حزم شهد بحمين كلاهما واقع في هوى محبوب واحد فشكل منهما رقيب على صاحبه^(٢) .

ويلاحظ على ابن حزم في هذا الباب أنه تكلم في الرقيب كلاماً موضوعياً فاستقصى وألم به من أطرافه ولكن لم يعرض لنظرة العشاق إلى الرقيب بالنسبة لغيره من آفات الحب كالعذل والوشاية والهجران والفراق . وقد فعل ذلك من قبله — فأحسن — محمد بن داود .

ومن آفات الحب الواشى . والوشاة ضربان يتفاوت أذاهما . أحدهما واش يسمى بين المتحايين ليقطع ما بينهما من أسباب المودة ويحل ما بينهما من عرى المحبة وهو على ما فيه من أذى شديد أخف من الآخر وطأة وأقتر سوءة ذلك لأنه مفسد بطبعه لا يرمى من وراء إفساده إلى غرض ولا يهدف إلى غاية أما الآخر فهو الذى يسمى لقطع ما بين المتحايين حتى يستأثر هو بالمحبوب وينفرد به وهو يكون أدهى أذى وأشد بلاءً لأنه يجهد في سعايته ويتوسل بكل الوسائل لقطع ما بين المحب ومحبوبه تحدوه إلى ذلك غاية ويستثيره إليه غرض يصور له لذة الظفر فيزيد في اجتهاده ويضاعف في سعيه^(٣) .

وأبو محمد بن حزم يلاحظ أن وشاية الواشى وسعايته تكون بالمحب إلى المحبوب فأما السعى بالمحبوب لدى المحب « فهيات حال الجريض دون القريض ومنع الحرب من الطرب شغله بما هو (فيه) مانع له من استماع الواشى وقد علم الوشاة ذلك وإنما يقصدون إلى الخلى البال العائل بحوزة الملك...^(٤) » .

وهذا صحيح إلى حد ما إلا أن ابن حزم يبالغ حين ينفي الوشاية بالمحبوب إلى المحب هذا النفي القاطع مع أن العذل من جنسها يكون والعاذل قد يسمى بما يعلم عن المحبوب إلى المحب ليصرفه عنه وليربيله عن وده .

ويذكر ابن حزم من الوشاة جنساً آخر وهو الذى يسمى بالمحب والمحبوب

(١) طوق الحمامة ص ٤٩ .

(٢) طوق الحمامة ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) » » » » ٥٠ .

(٤) » » » » ٥١ .

كليهما ويكشف سرهما وهو عنده ليس بذى بال ولا يلتفت إليه إذا كان المحبوب مساعداً^(١). وهو من جنس الرقيب .

والحق أن المتحايين إذا تأكدت بينهما الثقة وتكافأت بينهما للودة فليس إلى قول الوشاة سبيل إليهما .

ويبدو أن ابن حزم قد لقي في حبه وفي غير حبه من الوشاة عنقا شديداً وبلاء مبيناً فهو يختص بالكلام على الوشاية والنميمة من الناحية الخلقية والدينية أكثر الباب ويستشهد على شناعة فعلهم بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأقوال الحكماء . ولا ننس أنه لقي من السعاية والوشاية في حياته ما ألقى به في سجن خير أن صاحب المرية حين بلغه من بعض الوشاة أن ابن حزم وصاحبه محمد بن اسحق يسميان لإعادة بني أمية إلى الحكم^(٢) . فلا عجب إذن أن يفيض في الكلام على الوشاية والوشاة هذه الإفاضة الطويلة . بخلاف سلفه أبي بكر ابن داود فقد سبق أن لاحظت أنه أقصر في ذلك فلم يطل لأنه — فيما يبدو — لم يقتل بالوشاة كثيراً ولم يلق منهم ما يلقى غيره من المحبين لتأكد الثقة بينه وبين حبيبه وعنوان باب الواشي في كتاب الزهرة يوحى بذلك ويدل عليه : « من أحبه أحبابه وشى به أترابه » .

ومن آفات الحب التي يوجس منها المحبون خيفة ويحذرون منها جهدهم الهجر وابن حزم يصنفه سبعة أصناف : —

١ — هجر يوجب تحفظ من رقيب حاضر وأنه — في نظر ابن حزم — لأحلى من كل وصل^(٣) . وهو تظاهر بالهجر وليس هجراً إذ ليس فيه ما يغيظ المحب من تغير محبوبه وانحرافه عنه وإنما هو ضرورة تدعو إليها ظروف المحبوب والمحب ولقد سماه أبو بكر بن داود بالحجاب ولم يدخله في باب الهجر وهو لا يستلزم احتجاب المحبوب عن محبه إذ قد يكون كما ذكر ابن حزم إضراباً عن التحدث بحديث الحب والتظاهر بأعراض كل منهما عن الآخر^(٤) .

٢ — وهجر يوجب التدلل . وهو كما ينقل ابن حزم عن ابن داود أنه من كثير الوصال وفيه اختبار لصبر المحب ولثباته على الحب . وقد لاحظ فيه

(١) طوق الحمامة ص ٥١

(٢) » » » ١١٧ — ١١٨ .

(٣) » » » ٦٣ .

(٤) » » » ٦٣ — ٦٤ .

ابن حزم ما سبق أن علقته به على كلام ابن داود فيه من : « مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل فيكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره »^(١) وابن حزم يحدثننا أن ذلك قد حدث له في صباه مع من كان يألف حتى كثر فشك في ود أليفه^(٢) . وليس هذان الصنفان من الهجر في شيء إذ ليس فيهما مضاضته وليس فيهما ما يبعثه الهجر في نفس المحب من غيظ وأسف ولوعة .

٣ — ومن الهجر هجر يوجهه العتاب لذنب يقع من المحب^(٣) ، وهو الذي يدعوه ابن داود هجر المكافأة على الذنب ويرى أن التوبة تخرجه من القلب . وابن حزم يرى في هذا الهجر بعض الشدة على أن فرحة الرجعة ومرور الرضى يغلب عليه ذكرهما فيطيل في الحديث عنهما ويعرض عن ذكر شدته ومضاضته . وهو يصف موقف الحبيبين في مجلس خلا من الرقيب فأخذوا فيه بأطراف الحديث هذا يعاتب وهذا يبسط عذره فيقول : « وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام في فكر ألد وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلاً وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمة مانع من الإطالة فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والادلاء^(٤) بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذم . سلف فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يرد بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفي وربما أدامه فيه ثم يتسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر »^(٥) . وهذا الإبداع في التصوير ، والصدق في التعبير ، ينم عن خبرة بمثل هذا للوقف ، ووقوع في مثل هذا المأزق ، وألفة لهذه المواقف ، وقد اعترف هو بذلك فأخبر عن نفسه أنه اختبر الوقوف بين أيدي الملوك والاعتذار إلى السلاطين فكان أشد من الحديد وأتقذ من السيف لا يجيب إلى الدنية ولا يساعد على الخضوع ، ووقف بين يدي محبوبه فكان أذل من الرداء وألين من القطن يبادر إلى أقصى غايات التذلل لو تقع ، ويفتتم فرصة الخضوع لو تجمع^(٦) .

(١) طوق الحمامة من ٦٦ .

(٢) » » » ٦٦ .

(٣) » » » ٦٧ .

(٤) في الأصل « الأدلة » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٥) طوق الحمامة ٦٧ . (٦) طوق الحمامة من ٦٧ — ٦٨ .

٤ — وقد يفلح الواشون في نقض أسباب المودة فيحدث الهجر .
 ٥ — ومن أصناف الهجر هجر الملل وهو صفة توجد في بعض الناس فلا يصح لهم صديق ولا يصفو لهم إزاء ، والملل « لا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطول مساعدته لمحبة ولا يعتقد منه ود ولا بغض »^(١) ولذلك أبعد ابن حزم هذه الصفة عن المحبين ، وجعلها في المحبوبين ، فهم في الجملة أهل التجنى والتظنى والتعرض للمقاطعة^(٢) .

وقد اكتفى ابن حزم بأن نفي صفة الملل عن المحبين وقال إن حق من تزيا بزيمهم وهو ملول « أن يهرج مذاقه وينفي عن أهل هذه الصفة »^(٣) ولكن ابن داود كان أكثر منه إحاطة بأحوال المحبين فقد قال إن هجر الملل إنما يزيله الشوق المنبعث في نفس الهاجر .

٦ — ومن الهجر ما يبدأ به المحب لجفاء يبدو من المحبوب نحوه وانحرافه عنه . أو من أجل ثقل يلازمه^(٤) . فيقدم على أهون الشرين في نظره ويستجير من الرمضاء بالنار .

٧ — هجر القلى . وقد سماه أبو بكر بن داود بالهجر الذى يوجب البغض المتمكن في القلوب . وليس هو بالهجر ولكنه زوال ما أوجب المحبة وانقطاع لأسباب المودة لا حيلة في وصله ولا سبيل إلى ذلك لأن الهجر طارىء يعرض للعلاقة بين الحبيبين وفتور يكون بينهما أما المحبة فقائمة قيام التوثؤ في الصدق وطالعة طلوع الشمس من وراء الغمام ، لا يلبث الطارىء أن يزول حتى يعود الأمر بينهما إلى سيرته الأولى ، أما في مثل هذه الحال ، حال القلى ، فالمحبة التى يتوهمها المحب هى الطارئة إذ ليس فيها تكافؤ في المودة ولا تجاوب بين النفسين . ولست أدري كيف جاز ذلك على ابن حزم وهو يقول فى أول الكتاب إن المحبة اتصال بين النفوس وموافقة فى الطباع ومشاكاة فى الخلائق .

ومن آفات الحب التى ترمى المحبين فتصميمهم وتقصدهم فتقصدهم البين وليس شئ أشد على النفوس منه : « ولو سالت الأرواح به فضلا عن الدموع كان قليلا »^(٥) . والبين أصناف فمنها بين مؤقت ترجى العودة من بعده وينتظر الإياب ، ولا يزال المحب فيه يتقلب على الجمر حتى يتاح له اللقاء . وابن حزم

(١) طوق الحامدة ص ٦٩ .

(٢) طوق الحامدة ص ٧١ .

(٣) « ٨٠ » » » » (٤)

يعرف من كان يغيب محبوبه عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه^(١).

ومن البين أن يحتجب المحبوب عن المحب بأن يضطر إلى الاحتجاب اضطراراً أو أن يفعله بنفسه مختاراً. وهذا يولد من الحزن والأسف غير قليل وقد جربه ابن حزم فكان مرا^(٢).

ومن أصناف البين ما يوقعه المحب بنفسه قطعاً لأسنة الوشاة وحذارا من أن يكون قربه من الحبيب سبباً لأن يفشو أمرهما ويشتهر فيقع الحجاب ويمتنع عليهما اللقاء^(٣) وقد أوجز ابن حزم في حديثه عن ذلك في حين أن سلفه محمد بن داود قد قال فيه فأطال وفصل الدواعي التي تدعو المحب إلى أن يبسط على روحه يد النوى. ونصح المحبين نصح المجرب الخبير فقال: « من تجلد على النوى فقد تعرض للبلى » وفصل ذلك تفصيل الرفيق بأهل الهوى العزيز عليه أذاهم فقال: « إن الحزم لأهل الهوى ألا يبسطوا على أرواحهم يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش ويبرح القلوب فكيف إذا تحكم فيه الاشتياق ، وأمدت صاحبه الفكر بخواطر الإشفاق ، والتهبت في الضمير لوعات الاشتياق ، حينئذ تسكب العبرات ، وتمكن الحشرات^(٤) ».

ومن البين ما يوقعه بالمحب بعض آفات الزمان فيضطره إلى الرحيل فمن يحب وعذره في ذلك مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل^(٥) ومن هذا ما يخبر به أبو محمد بن حزم عن صديق له كانت داره بالمرية وقدم شاطبة فتزل عنده وكان له بالمرية علق يتعلق به ويهم فيه فسدت في وجهه سبل الرجوع حتى أصابه من ذلك غم وهم وحزن كبير^(٦).

وأشد ما يكون البين حين لا يكون المحب من الأوبة على يقين وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب وهو الذي قالت فيه الشعراء فأكثر وفيه يقول ابن حزم:

وذى علة أعيى الطبيب علاجها ستوردني لاشك منهل مصرعى

(١) طوق الحمامة ص ٨١ .

(٢) طوق الحمامة ص ٨٢ .

(٣) كتاب الزهرة ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٤) طوق الحمامة ص ٨٢ .

(٥) » » » ٨٢ - ٨٣ .

رضيت بأن أضحي قتيل وداده كجارع سم في رحيق مشعشع
فما لليالي ما أقل حيادها وأولعها بالنفس من كل مولع
كأن زمانى عبشمى يخالى أعنت على عثمان أهل^(١) التشيع

وقد أغفل ابن حزم ما يفعله البين بنفوس العشاق فيستثير فيها كامن
الأشواق . ويضاعف فيها التعلق بالمحبوب .

وفي رحيل المحب عن المحبوب أو رحيل المحبوب عن المحب يقع الوداع وهو
موقف هائل تنقطع فيه القلوب وتدمى المهاجر . وابن حزم يقسمه قسمين
« أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثاني يتمكن فيه بالعناق
والملازمة^(٢) » ويذكر أن من الشعراء من كان يتمنى البين ليحظى فيه بالوداع وهو
ينعى ذلك عليهم ويقول في ذلك قوله الخبير المجرب : « فما في مرور ساعة
بحزن ساطات^(٣) » .

ثم يوازن ابن حزم بين الهجر والبين وأيهما أشد ويقول إن ذلك يختلف
 باختلاف المحبين « فذو النفس الأبية الألوف الأنوف لا شيء يعدل عنده مصيبة
البين » ذلك لأنه لم يبعثه من نفسه باعث ولم يدعه إليه داع من غدر أو جفاء
أو انحراف وإنما أصابته به غير الدهر ومصيبات الزمان فلا يزال الشوق إلى من
يحب يقطع عليه سبيل الالتذاذ بالعيش من بعده والهجر عنده داعية السلو
ورائد الإقلاع^(٤) .

وأما « ذو النفس التواقة الكثيرة التطلع القلوب العزوف فالهجر دواؤه
وجالب حقه والبين له مسلاة ومنساة^(٥) » ومثل هذا لا يتحقق بالحب ولا يصبر
عليه وما إخال كلام ابن حزم في الهجر يصدق عليه فما دامت نفسه كثيرة النزوع
دائمة التطلع فليهجره الحبيب ما شاء فهو لا بد واجد غيره ممن يرضى به نزوع
نفسه وتوقها وتطلعها .

وابن حزم يخبر عن نفسه بأن الموت عنده أسهل من الفراق وأهون وما
الهجر إلا جالب للكم^(٦) .

وأشد أنواع البين وأولعها بمقاتل المحبين ، بين الموت وابن حزم يصفه وصفاً

(١) طوق الحماسة ص ٨٣ .

(٢) طوق الحماسة ص ٨٦ .

(٣) طوق الحماسة ص ٨٩ .

تقطر منه اللوعة فيقول إنه هو المصيبة الحالة وقاصمة الظهر وداهية الدهر وهو الويل وهو المغطى على ظلمة الليل وهو قاطع كل رجاء وماحى كل طمع... (١) الخ ذلك لأنه أصيب به فما انتفع بالعيش من بعده وما فارقه لوعته ولا زال عنه أساه فقد جفع بحبيبه نعم وأسى عليها أسمى شديداً (وقد مر بنا ذلك في الكلام على حبه) .

وقد تسنح الأيام للعاشق وتغفو عنه عين الدهر وتغفل عنه غير الأيام فسمح له بالوصل من حبيبه وهو غاية التمني ونهاية الأرب ، ولقد وصف لذته ابن حزم فقال : « ولقد جربت اللذات على تصرفها وأدركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا للمال الاستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف ولا التروح على المال من الموقع في النفس ما للوصل لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليها الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء (٢) » .

والوعد بالوصل — كما يقول ابن حزم — مكان لطيف من شغاف القلب والموعود لا يفتأ يترقب حلول الوعد ويتخيل ما سيحظى به من حظ رقيق ولذة ما بعدها لذة .

ومن الناس من يزعم أن تمادى الوصل يودى بالحب وابن حزم يخالف هؤلاء بحق ويرد عليهم بقوة ويرى أن ذلك إنما يحدث لأهل الملل . فأما الحب الثابت على حبه فكلما زاد وصلاً زاد اتصالاً وهو يحدثنا عن نفسه فيقول : « وعنى أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأً ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجود الإنسان وراءها مرعى فما وجدتني إلا مستريداً ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقتني فترة (٣) » ويخاطب حبيبه فيقول :

وددت لو أن القلب شق بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

(١) طوق الحمامة ص ٨٨ .

(٢) » » » » ٥٦ .

(٣) » » » » ٥٨ - ٥٩ .

فأما إذا لم يظفر بوصل حبيبه ولم تسعفه الأيام بنيل طلبه ، فلا بد له أن يقنع
بعلامات القبول ، ودلائل المودة ، يعمل بها نفسه ويسكن بها روعه .

إذا المرء لم يقض له ما أراد ، أراد الذي يقضى له شاء أم أبي
فمن ذلك الزيارة وفيها تتكلم الضمائر وتتحدث السرائر وتبوح العين بما تنوء به
الألسن . وهي عند ابن حزم على وجهين . أحدهما أن يزور المحب محبوبه ، وهذا
وجه يتسع فيه المجال ، ليشفى المحب غليله ويبل أوامه . والآخر أن يزور المحبوب
محبه ، وهذا لا سبيل فيه إلا إلى النظر والحديث الظاهر ^(١) .

وما أظن ذلك في هذين النوعين من الزيارة ضربة لازب ، وماذا يحول بين
المحب الذي يتحفه المحبوب بزيارته ، وبين أن يأخذ وإياه في ضروب من الأناج
والمتعة كالذي يفعل حين يزوره بنفسه . ويبدو أن ابن حزم قد صنف هذين
بناء على ما لديه من الملاحظة والتجربة ، ولم ينظر إليه على أنه أمر يحدث بين المحبين
في كل زمان وكل مكان .

ومن القنوع أن يرضى المحب ويسر ببعض ما يتصل بمحبوبه من أجزاء الجسم
أو الثياب أو غير ذلك ، وقد اشتهر عن العشاق تقبيل الأثر والوقوف على المنازل
والتسليم على الديار ونحو ذلك . وابن حزم يتحدثنا عن بعض ما شاع في عصره من
تهادى خصل الشعر بمبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت في أصلها
بالمسطكى وبالشمع الأبيض المصنئ ، ولفت بها تطاريف الوشى والخز وما أشبه
ذلك ^(٢) .

ومنه أيضاً أن يقنع المحب بمزار الطيف وتسليم الخيال ويرضى به . وابن حزم
يفسر ذلك تفسيراً قريباً مما يقول به المعاصرون فيقول : « وهذا إنما يحدث عن
ذكر لا يفارق وعيد لا يحول وفكر لا ينقض ^(٣) . فإذا نامت العيون وهدأت
الحركات سرى الطيف ^(٤) » .

(١) طوق الحمامة ص ٩٢ .

(٢) طوق الحمامة ص ٩٤ وقد تحدث عن هذه الظاهرة الأستاذ سيجوند فرويد وهو يسميها :
Fetichisme ويعزوها إلى انحراف جنسي يحدث عن طريق الإكبار الجنسي Surestimation
Sexuel ويذكر أنها لا تظهر إلا حيث لا يمكن الوصول إلى الموضوع الجنسي Freud : Trois
sur la Theorie de la Sexualite, p 44.

(٣) وقد سبق إلى ذلك أبو تمام حيث يقول :

زار الخيال لها لابل أزاركه فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم

(٤) طوق الحمامة ص ٩٥ .

وهو يقسم حال المحب للزور في المنام أربعة أقسام . فمنهم محب مهجور يرى في منامه ما يتمنى من عودة حبيبته إلى الإسعاد والسعادة ورجوعه إلى الوصل ، فيسر بذلك حتى إذا أفاق لم يجد شيئا ، فأسف وأسى وتليف . ومنهم محب بلغ من حبيبته ما يتمناه ، ولكن غوائل الإشفاق تهيمن على نفسه ، فيرى في منامه ما يشفق منه وما يخشاه فيهم له ويغتم ، حتى إذا صحا ذهب ذلك وسرى عنه وعلم أنه بعض وساوس الإشفاق^(١) . ومنهم محب داني الديار قريب المزار ، يرى أن التناهي قد فدحه فيحزن ويأسى ، ثم يفيق فيذهب ما به . ومنهم من تنأى به الدار فيرى أنه قد قرب من يهواه ، فيفرح حتى يفيق فيعود إلى غمه وأساه^(٢) .

ثم ينقد ابن حزم الشعراء الذين قالوا في القنوع فاشتطوا وأبعدوا : « فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما ، ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما^(٣) » . وهو يرى أن ذلك محض تحكم في القول وتشدق باللسان واستطالة بالبيان^(٤) .

ومن العجب أن يدلى هو بدلوه بينهم ، فيروى لنفسه ما يصفه بأنه « قول لا يمكن التعقب أن يجد بعده متناولا ولا وراءه مكانا » . ذلك قوله :
وقالوا بعيد قلت حسبي بأنه معي في زمان لا يطيق بعيدا
تمر على الشمس مثل مرورها^(٥) به كل يوم يستنبر جديدا
فن ليس بيني في السير وبينه سوى قطع يوم هل يكون بعيدا
وعلم إله الخلق يجمعنا معا كفى ذا التداني ما أريد مزيدا^(٦)
ولعله لم يعب عليهم الإبعاد والاشتطاط ، إلا ليزعم لنفسه التفوق عليهم وليوجي إلى القاريء أنه أوسع منهم خيالا ، وأقدر منهم على المبالغة وتلك ظاهرة عامة في الكتاب .

(١) طوق الحماسة ص ٩٦ .

(٢) » » » ٩٧ .

(٣) ينسب إلى جميل في هذا المعنى قوله .

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك بنا تدان
تري وضوح الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علا

(٤) طوق الحماسة ص ٩٩ .

(٥) في الأصل « مهوره » ولعل الصواب ما أنبتناه .

(٦) طوق الحماسة ص ٩٩ .

وحديث ابن حزم عن الوصل والقنوع ، يوحى فى النفس أنه يريد بالوصل شيئاً أكثر مما يطمح المحب العذرى إليه ، فهو يجعل الزيارة والحديث وبث الشكوى وغير ذلك مما يكتفى به المحبون العذريون ، ضرباً من القنوع يعلل المحب به نفسه عن الوصل . وإذا كان هذا مراده فقد ناقض نفسه وخالف ما قال به فى أول الكتاب ، من أن الحب غير محظور فى الشريعة ما دام لا يدفع المحب إلى ارتكاب المعصية واقتراف الإثم ، بل كيف يكون ذلك وقد ختم الكتاب ببيان حث فيها على الوقوف عند حدود الشرع والتزام الفضيلة وشرح فيها فضل التعفف وقبح المعصية .

٨

وينتهى أمر الحب فى الغالب بأحد شيئين إما باخترام منية أو سلو حادث . ونفس المحب لا تسلو إلا لتغلب بعض قواها على قوة الحب التى تولدت فيها . ففى إما أن تغلب فيها الأتفة من الغدر فتصرفها عن تحب كرها وإما أن يتناول عليها الهجر أو البين فيدخل عليها اليأس فيفتر نزوعها إلى من تحب شيئاً فشيئاً حتى يبلغ بها ذلك إلى السلو^(١) . ولذلك فالسلو عند ابن حزم ضربان سلو طبيعى وهو الذى يسمى النسيان وهو فراغ القلب وخلو البال ويتولد من اليأس إذا تناول البين أو تزايد الهجران . ولا يخلو السالى على هذه المشاكاة من الذم . والضرب الثانى سلو تطبعى يكرهه المحب عليه نفسه ويصارعها ويحاولها حتى تتصبر ثم تسلو وهو لا يحدث إلا لأمر عظيم لا يصبر عليه الحر ولا يستقيم معه الحب وليس على من سلا على هذا النحو جريرة ولا يلحقه فى سلوه الذم^(٢) .

وللسلو أسباب كثيرة منها : الملل . وليس ذو الملل بالمحب الحقيق وإنما هو فى رأى ابن حزم طالب لذة ومبادر شهوة والسالى على هذا الوجه مذموم^(٣) . وما أظن أن هذا يطرد فى الملل فقد لا يكون طالب لذة ولا مبادر شهوة بل متمكناً فى الحب فانياً فيه ولاكن هذه الخليفة تغلبه وتعلو عليه . وابن حزم يذهب فى هذا الشأن مذهباً جميلاً مراده أن الحب لا يعمل وأن المحب متى ذاق لذته وأدرك كنهه لم يخطر الملل بباله .

(٢) طوق الحمامة ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(١) طوق الحمامة ص ١٠٤ .

(٣) » » » ١٠٥ .

ومن أسباب السلو الاستبدال وهو مثل اللبل بل أقبح منه وأكثر استحقا للذم .

ومن أسبابه أيضاً الحياء الذى يمنع المحب من التعريض بما به وإظهار المحبوب عليه فيتناول الأمد وتتراخى المدة فيبلى جديد المودة ويحدث السلو وابن حزم يرى فى مثل هذا المحب رأيين . فإن كان سلوه نسيانا فهو ملوم « إذ منه جاء سبب الحرمان وإن كان متصبراً فليس بملوم إذ أثر الحياء على لذة نفسه^(١) . ولعمري إن هذا أحرى بأن لا يحشر فى سلو المحب عن المحبوب ذلك لأن الحب فى هذه الحال انما يؤاد فى مهده ويحترم وهو جنين فهو لم يبد منه إلا أعراضه الأولى ولم يتمكن بعد فى القلب .

ومن أسباب السلو ما يأتى من قبل المحبوب كمن يتناول حجره ويكثر عتابه أو أن يهجر المحب ليصل غيره فيفدر به ويتحلل من الوفاء له . والسلو فى هذا المقام لا لوم فيه ولا غبار عليه أما إذا كان الهجر واقعاً من وشاية واش أو من أجل ذنب اقترفه المحب فالسلو فيه مذموم والسالى من المحبين فيه ملوم^(٢) .

وهناك أسباب أخرى لا يذم للمتصبر من أجلها ولا يلام السالى بسببها فتنها تفار المحبوب الذى لا يطعم محبه فى أن يظفر بحبه أو ينال مودته^(٣) أو جفاء من المحبوب لا داعى له إذا زاد وجد المحب فى التصبر مهرباً يلوذ به ويستريح إليه^(٤) . ومن أسباب السلو اليأس وهو ثلاثة فروع : « إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبة وإما عارض يدخل على المتحابين^(٥) » .

على أن السالى عن يأس لا يخلو من الذم فإن ذكرى المودة وحفاظ العهد والحنين إلى سابق الوصل لا يفتأ يعاود ذا النفس الكريمة فيمنع عنها السلو ويعيد إليها الشوق ويقطع عليها الالتذاذ بما تجدد من لذائذ العيش .

٩

أما وقد بلغنا آخر اللطاف فى الحب وسائرنا ابن حزم فى حديثه عن نشأته وعلاماته وملابساته فلننظر فيما وضع له من الآداب وما شرع للمحبين فيه .

(١) طوق الحماة ص ١٠٦ .

(٢) » » » ١٠٦ » .

(٣) » » » ١٠٨ » .

(٤) » » » ١١١ » .

(٥) » » » ١١٢ » .

وهو في هذا المضمار يقصر عن سلفه محمد بن داود ولا يلحق به فقد اقتصر من آداب الحب على الوفاء .

والوفاء عند ابن حزم ثلاث مراتب أولها : « أن يفي الإنسان لمن يفي له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحجوب لا يحول عنه إلا خبيث المحتسب لا خلاق له ^(١) » .

وثانيها الوفاء لمن غدر ويلزم بذلك المحب دون المحجوب . وهذه — كما يقول ابن حزم — خطة لا يطبقها إلا جلد قوى واسع الصدر ^(٢) .

وابن داود يرى أن هؤلاء هم الذين يغلبهم الهوى فيعطل فيهم التمييز ويبطل عندهم فعل الإرادة وفيهم يقول : « من غلبه هواه على الصبر صبر لمن يهواه على الغدر » .

وابن حزم يرى أن من قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للعلامة ولكن هذه الحال حال الوفاء للغادر تسمو عليها وتفوقها . ويرى كذلك بحق أن غاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله والسكف عن مياء المعارضة بالفعل والقول والتأني في جرحبل الصحة ما أمكن ^(٣) .

وثالث مراتب الوفاء أن يفي المحب لمحجوبه بعد أن يفجعه به للوت وتفجأه به المنية : « والوفاء في هذه الحالة أجل وأحسن منه في الحياة ^(٤) » وفيه يقول محمد ابن داود : « قليل الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره « وقت الحياة » .

والوفاء يلزم المحب ويجب عليه أكثر من لزومه المحجوب ووجوبه عليه ذلك لأن المحب هو البادى بالمودة وهو المتعرض لعقد الأذمة . « فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه ومن أجبره على استجلاب اللقمة إن لم ينو حتمها لمن أرادها عليها ^(٥) » .

ويشرح ابن حزم آداب الوفاء وشروطه فيقول : والوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها أن يحفظ عهد محجوبه ويرعى غيبته ويستوى في سريره وعلايته ويطوى شره وينشر خيره ويغضى على عيوبه ويحسن أفعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه وألا يكون طلعة

(٢) طوق الحمامة ص ٧٥ .

(٤) » » » » ٧٧ .

(١) طوق الحمامة ص ٧٤ .

(٣) » » » » ٧٥ .

(٥) » » » » ٧٧ .

تؤوبا ولا (ذا) ملة طروقا ، وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك وإن كان
دونه فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولأله الاستشاعة عليه بأن يسومه
الاستواء معه في درجته ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره
ولا يخيفه^(١) به .

ولقد كان ابن حزم أخف على المحبين في آداب الحب من سلفه محمد بن داود
وأرفق بهم منه . فقد حملهم ابن داود ما تنوء به الجبال وتهوى تحت طائله أشداء
الرجال . ولكن ابن حزم كان واقعا أفاد من سيرته ومن مشاهداته فلم يسترسل
فيما استرسل فيه ابن داود من اللثائية التي لا يطيقها أبناء آدم والتي قلت فيها
من قبل أنها لا توجد إلا في أخلاق لللائكة .

ودارس طوق الحمامة تستوقفه فيه معالم واضحة لشخصية مؤلفه أبي محمد على
ابن حزم في حبه وفي تصويره للحب وفي تصويره إياه وفي تعبيره عنه ولا يلبث
أن يعود بالفكر إلى سلفه في هذا الفن فن تصوير الحب والتعبير عنه تعبيراً
شاملاً جامعاً إلى حد ، وذلك هو أبو بكر محمد بن داود الظاهري صاحب كتاب
الزهرة .

وحسبي فيما يأتي أن أنقل الصورة التي انطبعت في نفسي عن شخصية ابن
حزم بالقياس إلى سلفه ابن داود .

١

لقد آثر ابن حزم أن يكون كتابه ثباتاً لما جرب واختبر وشهد في الحب فلم
يلتفت إلى أخبار العشاق الذين حفل بأحاديثهم الأدب العربي واشتهر امرهم فيه
أي اشتهار وأعرض عن أن يستشهد بهم وبأشعارهم في كتابه واقتصر فيه على
أخبار أهل الأندلس أو الطبقة العليا فيه بعبارة أدق فهو كما سبق أن قلت فيه
كتاب إقليمي فيه ضيق الإقليمية وتشابه صورها وفيه التصوير المحم أو القريب
من الأحكام الذي يمتاز به العمل الإقليمي ولولا أنه يبحث في عاطفة إنسانية
تكاد تستوى في جوهرها وإن اختلفت أشكالها لاقتصرت قيمته في تاريخ
الأدب على كونه صورة لجانب من جوانب البيئة الأندلسية في ذلك العصر .

وسر ذلك فيما أظن أن الرجل كان فيه شيء من العصبية لبيئته فوق ما كان فيه من الاعتداد الشديد المفرط بنفسه ولعل مما يكشف عن ذلك أنه لم يرو لغيره من الشعر شيئاً إلا بضعة أبيات رواها لابن عمه أبي المغيرة . ولو أن شعره من الطراز الذى يصدر فيه قائله عن طبع ويعبر فيه عن عاطفة هان الخلاب ولكنه لسوء الحظ ليس له من الطبع الشعرى أو العاطفة حظ يذكر فهو متكلف فى أغلبه بين التكلف تقتحمه النفس ولا تكاد تسيفه .

وهو إلى جانب ذلك كثير الحديث عن نفسه والتبجح بعمله وأدبه والتفاخر بأخلاقه وسجاياه حتى لتمل النفس حديثه حين يدل بعلمه وبما طبع عليه من كريم الخلال وحميد الشيم . فهو لا يكاد يأتى على ذكر أدب من آداب الحب أو خلق كريم من الأخلاق إلا ألصقه بنفسه وأضافه إليه . فهو وفى لمن يحب وفى لمن يرتبط وإياهم برابطة الصداقة لا يتطرق الملل إلى نفسه ولا يخطر البدء بهجر الحبيب على باله إلى غير ذلك مما ينبث فى ثنايا الكتاب ويشيع فى كل باب من أبوابه على وجه التقريب .

٢

وليته حين فعل ذلك تأمل فى نفسه فأطال التأمل واستبطنها فأمعن الاستبطان حتى يكشف عن حركاتها وخطراتها فى الحب الذى طناه واختبره ولكنه لم يفعل ذلك إلا قليلا ولم يأخذ به نفسه إلا نادرا بل لقد شغل نفسه بظواهر الحب التى يدرکہا دقيق الملاحظة المتتبع للمظاهر وان لم يكن من أهل الحب .

ولعل السر فى عمق محمد بن داود وفى غوصه على دقائق الحوالم أنه كان يكتب كتابه من أجل حبيبه ليقدمه هدية إليه فكان يستعير روحه ويمخض نفسه ليخرج منها هدية استهداها المحبوب وأفضى إليه برغبته فيها أما ابن حزم فى فاتحة رسالته ما يدل على أنه كتبها متناقلا لا يدفعه إلى تجويدها والتأنق فيها دافع مثل الذى بعث فى ابن داود إقباله على خراج كتابه ذلك الإخراج البديع . وتغلب طبيعة الملاحظة والشاهدة على ابن حزم حتى يكاد يخضع لها فتسيره ولا يسيرها وتقيد منه ولا يفيد منها ، والناظر فى بعض أبواب الكتاب مثل باب من أحب فى النوم وباب من أحب بالوصف وباب من أحب صفة لم يستحسن غيرها مما يثقفها . وفى ثنايا بعض الأبواب يكاد يقتنع أن ابن حزم إنما يرمى من وراء ذلك إلى تصنيف مجموعة من المشاهدات والملاحظات والاختبارات مرت به

أو بلغه خبرها عن بعض من يثق فيهم وأن تلك غايته الأولى في مثل هذه المواضع وهاهو ذا في حديثه عن أسباب طي السر يتحدث حديثا جميلا يستوحيه من خبرته بأحوال الحب ونفوس المحبين ثم لا يلبث أن يأتي بسبب من أسبابه ينبو عما حوله فيقول : « وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه من إظهار سره لجلالة قدر المحبوب ^(١) وهو يستخرج ذلك من خبرين يوردهما فيما بعد أحدهما عن تغزل بعض الشعراء بصبح أم المؤيد بشعر غنت به جارية في حضرة المنصور محمد بن أبي عامر فقادها ذلك إلى حتفها والآخر تغزل أحمد بن مغيث بإحدى بنات الخلفاء وماجر عليه وعلى أسرته من أذى واضطهاد .

ولا يحسن أحد أننا نغمط لابن حزم فضله في دقة الملاحظة والإفادة منها ولكننا نريد أن نقول إن الملاحظة والملاحظة كان لابد لها في مثل هذا المقام أن تتصل بالاستبطان والتأمل الذاتي وتعاون وإياها في الوصول إلى الحقيقة .

وفي الكتاب موضع تتصل فيها الملاحظة واستقراء الظواهر بالاستبطان والتأمل الذاتي فجاء بحث ابن حزم فيها جامعا بين الحسنيين . سعة الاستقراء وشموله وعمق التأمل وصدق فراسته . مثال ذلك كلامه على علامات الحب وشواهد وحديثه عن الرقيب والواشي .

٣

وبهذا تكون الملاحظة والملاحظة واستقراء الظواهر جانبية على بحث ابن حزم في الحب جائزة على التأمل والاستبطان اللذين لابد منهما في مثل هذا البحث لابد للباحث أن يعترف بأنهما من مزايا الكتاب من وجه آخر ذلك أنه يمتاز بالترتيب المحكم والتصنيف المنظم إلى حد بعيد ، وذلك ييسر على دارسه الإمام بما فيه من الأفكار بسهولة ويسر بخلاف كتاب الزهرة الذي يضطر دارسه إلى أن يجمع أشتات أفكاره المنبثة في ثنايا الأبواب المختلفة ، ويجد في ترتيبها وتصنيفها عناء .

وإذا كنا نأخذ عليه إسرافه في الاعتماد على الملاحظة والملاحظة فمن الحق أن نذكر أنهما من مميزات البحث العلمي الحديث التي تيسر الوصول إلى الحقيقة وتزيد في اطمئنان الدارس إلى ما يصل إليه من نتائج درسه وبحنه .

خاتمة

الحب العذرى ظاهرة اجتماعية وأدبية كان للإسلام الفضل الأول في خلقها وفي إخراجها للوجود . فقد بدأ ظهورها بعد أن استقر له الأمر في بلاد العرب وأخذ مكانه في نفوسهم .

وهو كذلك ظاهرة نفسية قوامها إعلاء الدافع الجنسي والتسامي بعاطفة الحب حتى تصبح عاطفة قوية ثابتة تكاد تختفي فيها الغاية التي يرمى إليها الدافع الغريزي . وقد بدأ الحب العذرى كما مر بنا في فصول هذا البحث عاطفة يتغنى بها الشعراء وتشوبها بعض المظاهر التي تتصل بأصل هذه العاطفة وهو الدافع الجنسي وتطور عند الفقهاء حتى صيروه فكرة أدبية فلسفية — إن صح هذا التعبير — ووضعوا لها حدوداً ورسموا لها معالم عامة وشرحوا مبدأها ومنشأها وملابساتها وما يلزم فيها من آداب وما يدخل عليها من آفات وجهدوا في أن يصفوها مما كان يعلق بها عند من تغنوا بها من الشعراء من الشوائب فأخرجوها فكرة مثالية قد تبعد في بعض الأحيان عن الواقع وتنوء بها طبيعة النفس الإنسانية المكونة من قوى ودوافع غريزية لاسبيل إلى تجاهلها والإغضاء عليها . وأكبر الفضل في ذلك يعود إلى الإمام الفقيه العاشق أبي بكر محمد بن داود الظاهري الذي استطاع أن يجعلها في أبعد صورة وأجل مظهر ومن بعده الفقيه الوزير أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الذي أضاف إليها صوراً جميلة من صور المحب في بيئته الأندلسية وإن يكن نزل بها بعض الشيء عن العمق الذي نفذ إليه سلفه محمد بن داود والآفاق الرحبة التي حوت فيها نفسه وسمت إليها روحه .



وقد كان لهذه الفكرة الجميلة فكرة الحب العذرى أثرها في الشرق وفي الغرب . فأما الشرق فلم يكتف بهذه النظرة المثالية للحب الإنساني وإنما تعداها إلى القول بالحب الإلهي وقد كانت هذه الفكرة فكرة الحب العذرى مرحلة لا بد منها في تاريخ العاطفة للوصول إلى مرتبة الحب الإلهي وحسي في هذا المقام أن أشير إلى مكانة الحب العذرى عند الصوفية ورمزهم به إلى الحب الإلهي حتى قال فيه أحد المتأخرين من شعرائهم :

يا لائمي في الهوى العذرى معذرة منى إليك ولو أنصفت لم تلم
وأن أنوه بكلمة مشهورة عند أهل التصوف لا أعرف قائلها، مرادها أنه
لا يصل إلى الحقيقة من لم يقطع إلى الجواز . والحقيقة عندهم أو عند بعضهم هي
الحب الإلهي وما يسلم إليه من الفناء في الذات الإلهية أو الاتحاد بها والنجاز هو
الحب الإنساني وأقرب الحب الإنساني إلى الحب الإلهي هو هذا الحب العذرى
الذي كان موضوع بحثنا .

هذه ناحية وهناك ناحية أخرى لا تزال مجالاً للدرس والبحث الذي يرجى
أن يكشف عن كثير من الحقائق التي تتصل بتاريخ العاطفة عند العرب والمسلمين .
وقد بداني وأنا أدرس كتاب الزهرة لمحمد بن داود أن هذا الكتاب وما فيه
من أفكار في الحب لا بد أنه كان بعيد الأثر في حياة الصوفية وبخاصة من قال
منهم بالحب الإلهي . وكلامه في مراتب الحب وأحواله خليق بأن يكون قد أثر
في الصوفية أو تأثر بهم .

هذه قضية خطيرة يحسن أن يلتفت إليها في البحث عن نشأة التصوف
الإسلامي وما أظن أحداً من الباحثين فيه تنبه إليها أو اهتم بها من علماء الشرق
أو الغرب .

وأما أثر الحب العذرى في الغرب فحسبنا في الدلالة عليه شهادة عالمين من
جلة علمائه هما الأستاذ المستشرق لوى ماسينيون والأستاذ أندريه موروا عضوا
الأكاديمية الفرنسية .

فقد قال أولهما في ابن داود أنه كان سلفاً للزجال الأندلسي ابن قزمان
القرطبي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ وتغنى قبله بالحب العذرى وكتب فيه كتاب الزهرة .
وابن قزمان هذا هو الذي أثرت موشحاته التي تغنى فيها بالحب العفيف
« Amour courtois » في شعراء جنوب اللوار Poètes de langue d'oc
والغالين والقطالونيين والبروفنسيين والإيطاليين^(١) .

والأستاذ أندريه موروا يتحدث عن نشأة الحب الرومانسي Naissance de
L'Amour Romanesque فيقول إنه لم تبدأ نشأته إلا في القرنين الثاني عشر
والثالث عشر للميلاد أيام التروبادور والتروفيير، حيث نلاحظ في الأوساط

الشعرية ، ومن ثم في قصص الفروسية شيئاً يشبه أن يكون عاطفة مركبة يسميها
باسكال اتفعالات الحب *passions de l'amour* . وهو يعزو نشأة هذا الحب
الرومانسي إلى أمرين : المسيحية بما وضعت من القيود الخلقية وبما منحت للراة
من مكانة في المجتمع لم تكن لها من قبل وامتزاج التقاليد المسيحية بتيارات أخرى
وردت إلى أوروبا عن طريق جنوب فرنسا .

هذه التيارات هي شعر عربي تغنى فيه قائلوه بالحب الأفلاطوني ولم يقتصر
ذلك على الجنوب بل لقد عرف في الشمال في انكلترا وفي غيرها (١) .
ذلك هو الحب العذري وتلك هي آثاره في الآداب العالمية . ولعل وفقت في
جلاء بعض النواحي من تاريخه وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .



المراجع

بالعربية

- (١) الأبيهي : المستطرف في كل فن مستظرف .
- (٢) ✓ ابن حجلة : ديوان الصباية .
- (٣) ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف .
- (٤) » » : رسالة في الأخلاق والسير .
- (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
- (٦) ابن داود : كتاب الزهرة .
- (٧) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى .
- (٨) ابن سينا : رسالة العشق في (مجموعة مطبوعة باسم جامع البدائع) .
- (٩) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
- (١٠) ابن قتيبة : كتاب المعارف .
- (١١) » » : الشعر والشعراء .
- (١٢) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين وثرية المشتاقين .
- (١٣) ابن النديم : الفهرست .
- (١٤) ابن هشام : سيرة ابن هشام .
- (١٥) ✓ أبو بكر السراج : مصارع العشاق .
- (١٦) أبو بكر بن دريد : كتاب الاشتقاق .
- (١٧) أبو جعفر محمد بن حبيب : كتاب مختلف القبائل ومؤلفها .
- (١٨) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين .
- (١٩) أبو العباس المبرد : كتاب الكامل .
- (٢٠) أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع .
- (٢١) أبو علي الفارسي : الأمالي .
- (٢٢) أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني .
- (٢٣) أبو منصور الثعالبي : فقه اللغة .
- (٢٤) أحمد أمين بك : فجر الإسلام .
- (٢٥) » » : ضحى الإسلام .
- (٢٦) إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفاء .
- (٢٧) البغدادي (عبد القادر) : الفرق بين الفرق .
- (٢٨) البلاذري : فتوح البلدان .
- (٢٩) الجاحظ : رسالة في العشق والنساء ضمن رسائل الجاحظ .
- (٣٠) جب (وجماعة من المستشرقين) : تراث الإسلام ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم .

- (٣١) جميل بثينة : ديوان جميل بثينة جمعه بشير يموت .
 (٣٢) حاجي خليفة : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون .
 (٣٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد .
 (٣٤) داود الأنطاكي : ترتيب الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
 (٣٥) زكي مبارك (الدكتور) : حب ابن أبي ربيعة وشعره .
 (٣٦) السبكي (تقي الدين) : طبقات الشافعية الكبرى .
 (٣٧) السهيلي : الروض الأتق في شرح السيرة النبوية .
 (٣٨) صاعد (القاضي صاعد بن أحمد) : طبقات الأمم .
 (٣٩) الضبي : بغية الملتبس في رجال الأندلس في مجموعة كوديرا وريبيرا .
 (٤٠) طه حسين بك (الدكتور) : حديث الأربعاء .
 (٤١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك .
 (٤٢) عياض (القاضي) : كتاب الشفا .
 (٤٣) فان ارنولدك : ابن حزم مقال في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .
 (٤٤) مجنون ليلى : ديوان مجنون ليلى .
 (٤٥) السعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر .
 (٤٦) المغربي : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب .
 (٤٧) النابغة الذبياني : ديوان النابغة ضمن المجموعة المطبوعة باسم خمسة دواوين العرب .
 (٤٨) النويري : نهاية الأرب .
 (٤٩) الوشاء : الموشى المطبوع باسم الظرف والظرفاء .
 (٥٠) اليافعي : مرآة الجنان .
 (٥١) ياقوت الحموي : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
 (٥٢) » » : معجم البلدان .
 (٥٣) أحمد أمين بك : إمامان فقيهان عاشقان (سلسلة مقالات في مجلة الثقافة في شهر مارس سنة ١٩٤٦) .
 (٥٤) سعيد الأفغاني : ابن حزم الإمام الحب (مقال في العدد ٦٧ من السنة الثانية من مجلة الثقافة) .
 (٥٥) طه حسين بك (الدكتور) : في الحب (مقال في المجلد الثاني العدد الخامس من مجلة الكتاب المصري) .
 (٥٦) الفيروز آبادي : القاموس المحيط .
 (٥٧) السيد مرتضى الزبيدي : تاج العروس في شرح القاموس .

بالانكليزية

- (1) Boyce Gibson : Love : Psychologically & Ethically. An Article in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.
 (2) De Cyayangos (Pascal) : History of the Muhammedan Dynasties in Spain.
 (3) Della Vida : Udhra. An Article in the Encyclopaedia of Islam.

- (4) Ellis (Havelock) : Psychology of Sex.
- (5) Fahim : Ibn Daud. An Article in the Encyclopaedia of Islam.
- (6) Freud S. : Introductory Lectures on Psychoanalysis.
- (7) » » : New Lectures on Psycho-Analysis.
- (8) Mc Dougal, W. : An Introduction to Social Psychology.
- (9) » » : Psycho-Analysis & Social Psychology.
- (10) Massignon, L. : Udhri. An Article in the Encyclopaedia of Islam.
- (11) Nicholson, R.A. : A Literary History of the Arabs.
- (12) Nykl, R.A. : The Dove's Neck Ring about Love and Lovers.
- (13) Pearson, A.C. : Greeck Love. An Article in the Encyclopaedia of Religion & Ethics.
- (14) Plato : Lysis Symposium Gorgias, edited by Lamb.
- (15) Stendhal : On Love (the English translation).
- (16) Van Arendunk : Ibn Hazm : An Article in the Encyclopaedia of Islam (Supplement).

بالفرنسية

- (17) Barbier de Meynard (C) : Prairies d'Or.
- (18) » » » » : Surnoms et Sobriquets dans La Litterature Arabe « Vne Article dans le Journal Asiatique Tome X »
- (19) Dozy (R) : Histoir des Musulmans d'Espagne.
- (20) Freud (S) : Trois Essais sur La Théorie de La Sexualité.
- (21) Morçais (W) : Obserrations sur Le Texte du Tauq (Memorial Henri Basset).
- (22) Massignon (L) : La Passion d'Al Hallaj.
- (23) » » : Al Hallaj : Kitab Al Tawasin.
- (24) » » : Recueil de Textes Inédits Relatifs.
- (25) Maurois (André) : de L'Histoir de La Mystique Musulmane.
- (25) Maurois (André) : Sept Visages de L'Amour.
- (26) Petrof (D.K.) : Collier de La Colombe.

بالألمانية

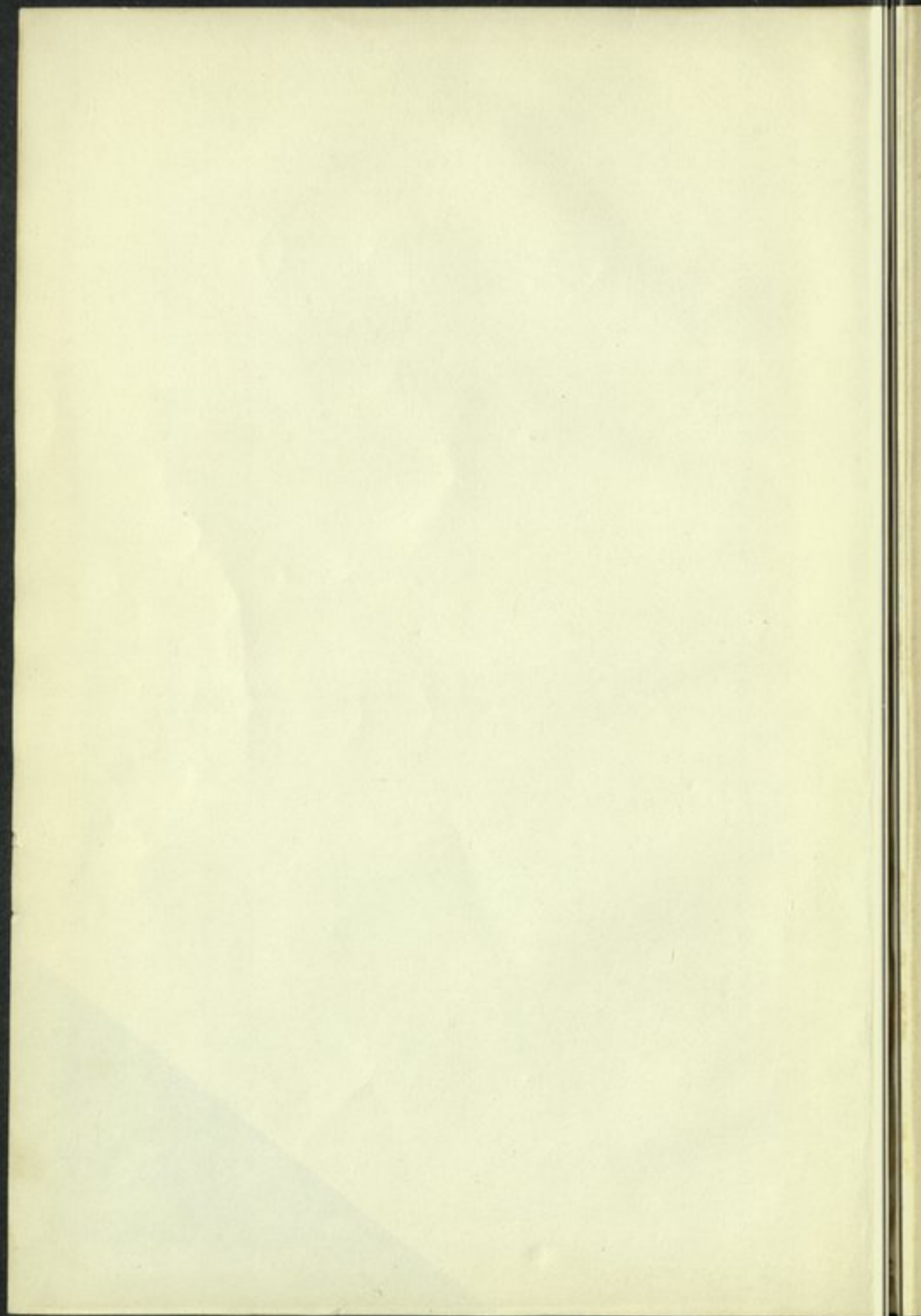
- (27) Brocklmann (Karl) : Geschichte der Arabischen Literatur.
(28) Goldziher (Ignaz) : Die Zahiriten : ihr Lehrsystem und ihr Geschichte.

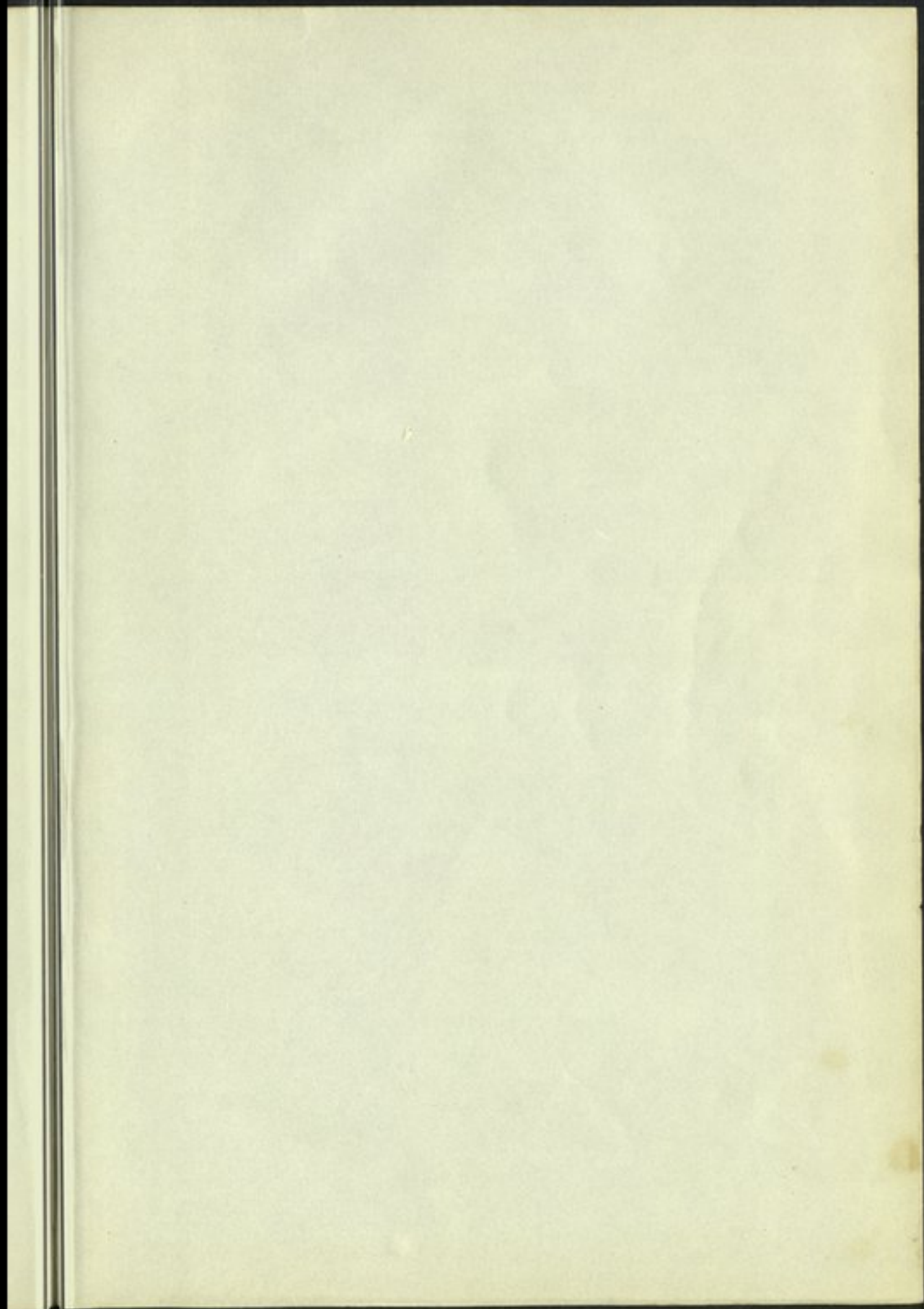
بالإيطالية

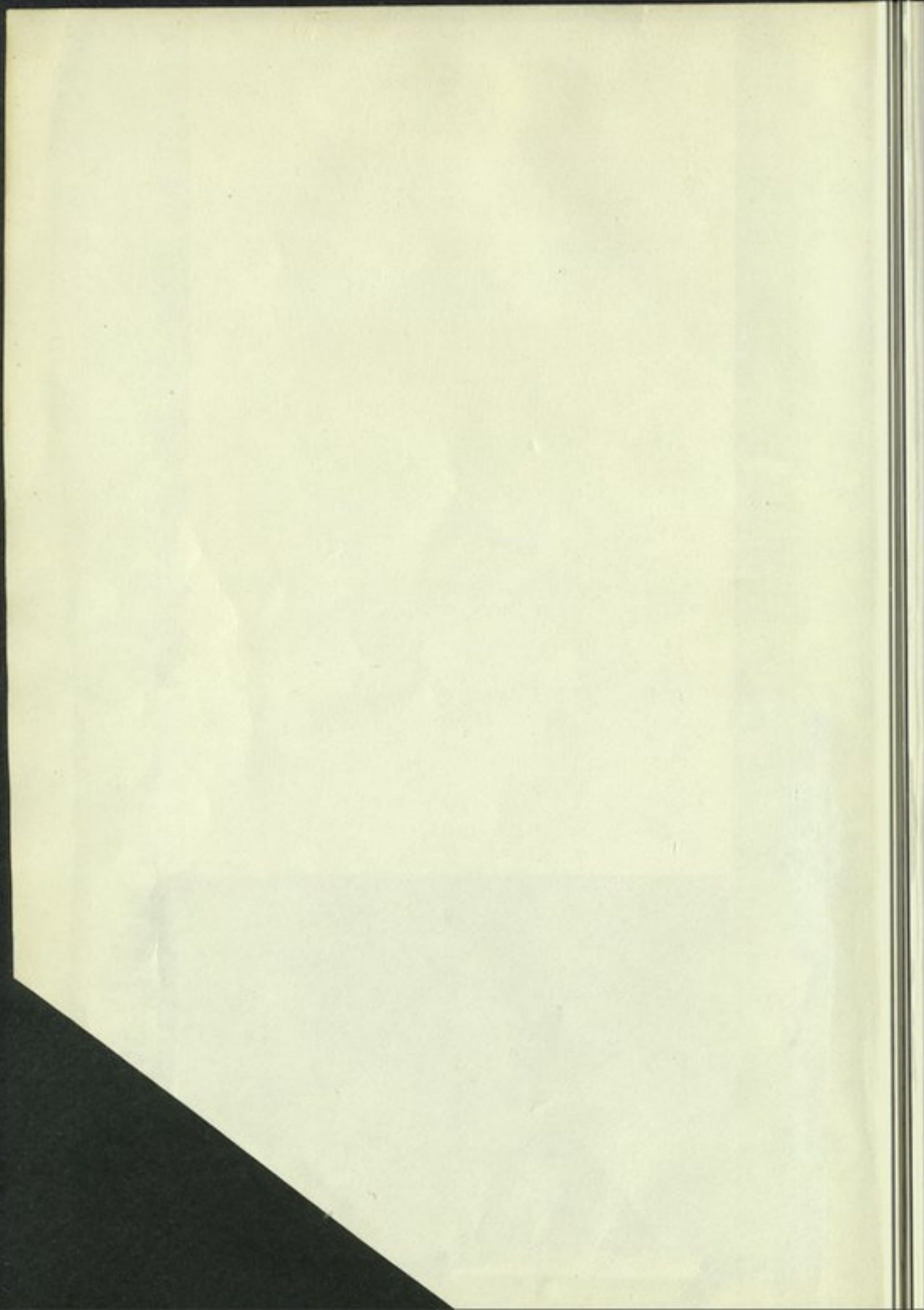
- (29) Francisco Gabrielli : Gamil Al Vdri : Studio Crities é Raccolta dei Framenti.

بالإسبانية

- (30) Nykl (R.A.) : Nuevos Datos Sobre El Kitab El-Zahra.
(Al-Andalus Vol. IV 1936 Fasc. I.)
-







DATE DUE



177.6:J41hA:c.1

الجواري، احمد عبد الستار
الحب العذري

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002004

